البيعة الجامعة

بقلم : محمود تيمور

في غضون الشهر الماضي أحسسنا جميعا قلب مصر يخفق خفوقا قويا جياشا في مناسبة اتخاذ مجلس الأمة اجراء الترشيح لرياسة الجمهورية .

لقد دوى صوت الشعب يعلنها بيعة جامعة للرئيس « جمال عبد الناصر » ، وتزاحمت مواكب البيعة من أقصى البلاد الى أقصاها تزف رياسة الجمهورية الى صانع الجمهورية ومرسى دعائمها .

وفي الحق ان هذا الترشيح للرياسة اذا كان في مظهره اجراء دستوريا تقضى به الأوضاع ، فهو في حقيقته نقطة انطلاق لما تكنه الجماهير نحو قائد الثورة ورائد الأحرار ... نحو البطل الذى هدم بلا تخريب ، وبنى على أسس ، ومضى على الطريق بعد أن أرسل من الأنوار الكاشفة ما يكفل الرؤية الواضحة ، وكانت خطاه على أرض الحقيقة أبعد مدى من وثبات الآمال في آفاق الخيال .

ان الرئيس « جمال عبد الناصر » هو البطل الذى حلم بالثورة ناشئا ، وفكر فيها شابا ، وأضرم جلوتها رجلا ، وتعهدها بعد ذلك في شجاعة رأى وصلابة عزم وصدق جهاد وعمق ايمان . وقد مر بمراحل العهد الثورى دقيقة بدقيقة ، واختلط بها قلبا وقالبا ، وكانت بصيرته النيرة ونظرته الألمعية بمثابة الابرة المغنطيسية التى وجهت السفينة وجهتها الراشدة ، كما كانت ارادته هى الدفة التى حمتها أن ترتطم في مضيق وعر ، أو تنساق في تيار جارف . وهكذا مضت السفينة تشق العباب في سلامة وأمان .

ما كان لبطلنا الرائد العظيم أن يتخلى هو عن مكانه من القيادة ، وما كان للشعب في وعيه وحسن تقديره أن يخليه ، ومن ثم كانت البيعة الجامعة له ، بيعة التقدير السليم ، بيعة الحب الصميم ، بيعة عرفان الجميل لمن أسدى الجميل .

وان حملة الأقلام ، الأدباء والكتاب ـ وهم بطبيعة مهمتهم يرهفون شعورهم بالمجتمع ، ويتسمعون الى خوالجه ، ويستلهمون روحه ، ويصورون نزوعه الى الحياة ، وتطلعه الى الغد ـ ما أحراهم أن يعربوا في اخلاص عن مشاركتهم الصادقة للرأى العربى العام في بيعته الجامعة للرئيس « جمال عبد الناصر » .. بيعة الولاء والوفاء .

محمود تيمور

الفارس الجميل

بقلم: على احمد باكثير

متولى

هذه معالم مدينة البصرة تلوح له فى الافق من بعيد ٠ وجواده ينطلق به نحوها ينهب الارض ويسابق الريح كأنما له هو أيضا حبيب فى البصره يجرفه الشوق اليه ٠ ان هى الا لحظات ويدخل احب مدن الارض الى نفسه لان فيها احب نساء الارض اليه ٠٠ سكينه بنت الحسين وعائشة بن طلحة بن عبيد الله ٠

لقد انطلق من الكوفة وقلبه مشدود الى زوجتيه هاتين ليقضى بينهما بضعة ايام ينسى فيها القتال والنزال ويستمتع فيها باروع آيات الجمال والدلال ٠ولكنه لا يدرى بأى هاتين يبدأ وعلى أى منهما ينزل اول ما ينزل ٠ انه مشتاق اليهما معا فياليته يستطيع ان يلقاهما معا ويستريح !

وها قد دنت المدينة واوشك أن يدخلها ولم يفصل فى هذه المسألة ويقضى فيها بقرار ٠٠ سكينة أمعائشة؟٠ عائشة أجمل ولكن سكينة املح فياويح قلب ضاع بين الملاحة والجمال ٠

وأحس حينئذ برغبة خفية فى أن ينهنه شوقه قليلا ويؤخر دخول المدينة ما امكن حتى ينتهى الى قرار لا يندمعليه فيما بعد ٠ وانه ليعجب من نفسه كيف يتهيب الفصل فى هذا الامر وهو المقدام الجسور الذى لا يتردد فيما يعرض له من شئون الحرب والقتال فيفصل فيه برأى قاطع ويقدم على تنفيذه بعزيمة لا تلين دون تهيب لما يسفر عنه من العواقب ٠

سكينة اولا ام عائشة ؟ ان بدأبسكينة فماذا يقول لعائشة وان بدأ بعائشة فماذا يقول لسكينة ؟ ٠٠ ان فى وسعه ان يتفادى من هذا الحرج بان ينزل عند احدى زوجتيه الاخريين ، عند امة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز او عند ابنة خاله الرباب بنت ريان بن انيف . فسيجد عند هاتين ما يحب دون ان يخشى من احداهما لوما او تقريعا وانهما لجميلتان ايضا وانه لمشتاق الى لقائهما كذلك ولكن المشكلة ستبقى قائمة بعد ذلك ايزور عائشة أم سكينة ؟

وانه لفى حيرته هذه اذ دخل المدينة دون ان يشعر وانطلق به الجواد فى شوارعها وازقتها حتى وقف به تحت دار سكينة بنت الحسين ٠ ورن صوت احدى جواريها فى الدار وهى تقول ٠٠

مولاتى · مولاتى هذا سيدى مصعب بن الزبير قد وصل !

ويل له ايجيء الينا هكذا فجاة دون ان يخطرنا او يبعث الينا رسولا ؟ انزلى اليه يا اميمة وقولى له ينتظر اسفل الدار حتى آذن له بالصعود ·

ـ فيم يا مولاتى ؟ لقد آثرنا على غيرنا بالقدوم علينا فلا يحق لك ان تعامليه هذه المعاملة ·

ـ ويلك انما نزل عندنا ليلقانى بغبار سفره قبل ان اصلح حالى ثم يلقى ابنة طلحة غدا وقد اغتسل وتهيأ وتهيأت له ·

ـ اما انك لتظلمينه يامولاتى دائما··

ـ اسكتى انت ·· ما يدريك · انزلى فقولى له ما قلت لك ·

ونزلت الجارية لتخبر سيدها بما قالت سيدتها فوجدته بين خدمه ومواليه يقومون بخدمته ويعدون له الحمام والثياب والطيب كما امرهم فقد رأى هو ألا يلقاها الا بعد ان يزيل عنه غبار السفرويستبدل بثيابه ثيابا جديدة· فرجعت الى مولاتها واخبرتها بما شهدت وقالت لها الم اقل لك يا مولاتى انك تظليمنه كثيرا ·

قالت لها سكينة :انتظرى حتى يفرغ من زينته فقولى له حينئذ ان ينتظر قليلا حتى آذن له بالصعود ·

ـ ويحك يا مولاتى كنت كثيرةالشوق اليه حتى اذا جاءك طفقت تتدللين عليه·

فنهرتها سكينة قائلة: افعلى ما أمرتك ولا تراجعينى ·

وانتظر مصعب طويلا وكلما استأذن للصعود قيل له انتظر حتى ضاق صدره وفرغ صبره فصعد اليها ووقف بباب غرفتها فوجدها جالسة بين جواريها وقد فرغت من زينتها ·

فعجب من امرها وكان يظنها ماتزال تتزين فاقتحم الباب فلما رأته الجوارى انسللن من الحجرة وخرجن ·

مصعب ! أتجرؤ ان تدخل عندى قبل ان آذن لك ؟

ـ ويحك يا سكينة افى الحق ان تدعينى اتحرق شوقا اليك وانت جالسة هنا تتحدثين الى جواريك ؟

ـ كان عليك ان تبعث الينا رسولا قبل قدومك ·

ـ انما قدمت لبضعة ايام ثم اعود الى الكوفة ·

ـ تعود الى الكوفة ؟

ـ نعم لأنتهى من أمر المختار بن ابى عبيد ·

ـ ألم تنته من امره بعد ؟ لقد ظننت انك قتلته واسترحت منه ·

ـ لم اتمكن من قتله بعد ولكنى عزمته وفرقت رجاله ·

– والله ما صنعت شيئا ما بقى المختار ابن ابى عبيد • والله لبئس زوج الحرة انت •

– فيم يا سكين ؟

– تترك ميدان القتال لتسكن الى حلائلك •

فدنا منها وضمها الى صدره وهو يقول ..

فتملصت من يده وهي تقول ..

– اهذا قدرى عندك يا ابن الزبير ان تجعلني سببا لتركك ميدان القتال ؟

– من قال لك انني تركته ؟ لقد لجا الخبيث بعد انهزامه الى دار الامارة بالكوفة فأحكمت عليه الحصار ولا سبيل امامه الا ان يموت او يستسلم • افلا يحق لى ريثما يتم ذلك ان اجىء فاستروح انفاس الاحبة ؟

وهاجت هذه الكلمة شجون سكينة وأثارت غيرتها وهمت ان تسأله من الاحبة الذين يعنيهم لولا انها اشفقت ان يكون فى اعترافها بالغيرة من ضرائرها ما ينقص من مقامها فاعرضت عن هذا الصدد وقالت :

– ما هكذا يصنع من يعشق معالى الامور •

قال لها مداعبا :

– كيف يصنع اذن ؟

– لا يلتفت الى قريب او حبيب ولا يستنيم لراحة او دعة حتى يجهز على عدوه ويفرغ منه •

وحلاله ان يمضى فى دعابته فقال لها :

– ان اردت الحق يا ابنة الحسين فانى لا اعتبر المختار بن ابى عبيد ذلك العدو الذى احرص كل الحرص على قطع دابره •

– ماذا تقول ؟

– ان له يدا عندى لا انساها له ابدا •

– ماذا تعنى ؟

– اعنى ما كان من تشيعه لآل بيتك ومطالبته بدم ابيك •

– لا تحاول ان تخدعنى • ما انت الا آلة فى يد أخيك ابى خبيب فلو أمرك بقتلى لفعلت •

– ويحك يا سكين • اما تكفين ابدا عن تنديدك بأخى عبد الله بن الزبير وبغضك اياه ؟

– لا استطيع ان انسى ابدا انه هو الذى دفع ابى الى الخروج وحرضه عليه وهو يعلم ما هو صائر اليه ليخلو له الجو فى مكة •

– سبحان الله • اتحملين اخى تبعة ابيك ؟ الم يكن على ابيك ان ينظر الى نفسه وهل كان لعبد الله سلطان عليه؟ لقد نصحه الكثيرون ألا يخرج الى أهل العراق ولا يعتمد عليهم فما انتصح لاحد • ولقد صمم هو على ذلك وما شجعه عبد الله الا لانه يابى الضيم مثله نوافقه على رأيه حينما خالفه الآخرون.. افآسفة انت يا سكين على ان لقى ابوك

تلك الميتة المجيدة الرائعة وتأثرت سكينة لذكرى ابيها الشهيد فتلألأ الدمع فى عينيها ولكنها تجلدت وقالت : كلا لست آسفة لامر قد جرت به المقادير ولكنك حاولت ان تخدعني فى أمر هذا المنافق المختار بن أبي عبيد ·

فطفق يذكر لها انه وهو يقاتل المختار أحس حقا برقة تعطفه عليه من اجل انتصاره للحسين ابيها وسعيه للقضاء على قتلته ثم قال لها :

ــ او ما تشعرين انت يا سكين بشيء من العطف عليه ؟

ولم تكد تسمع هذا منه حتى نضبت من وجهها معاني الرقة والرثاء وحل محلها الجد والصرامة وصاحت :

لا والله ولا خردلة · ان دم الحسين لا ينبغي ان يطالب به رجل منافق مثله اتخذ من قضية الحسين سببا لبلوغ ما يصبو اليه من اخذ الحكم لنفسه ثم اضاف الى نفاقه الكفر بالله وادعاء الوحي ، فقد والله اضعف قضية الحسين· ولقد كان ناصبيا من قبل يكره اهل البيت ثم تصنع حبهم من اجل مآربه الخسيسة ·

ــ صدقت والله يا سكين · لاقاتلنه منذ اليوم قتال من لا يرحمه ولا يرفق به من اجلك ؟

ــ من اجلي ؟

ــ نعم · وجذبها الى صدره ليعانقها فانفلتت عنه وهي تقول : فما بقاؤك ؟ انطلق فعد اليه ·

ــ دعيني اقضي هذا اليوم عندك يا حبيبة القلب ·

ــ لا والله · لا مكان لك عندي حتى تفرغ من عدو الله وتقتله ·

ــ اشتهي ان اتزود منك قبل ان انطلق اليه فلا اعود اليك الا برأسه فاجابته قائلة في صرامة : هيهات · لا شيء لك عندي حتى تعود بعد ان تقتله·

ــ اي حبيبتي ان دلالك حبيب الى نفسي ولكنك اسرفت فيه حتى ضاق به صدري فبالله الا ما اقتصدت ·

فثارت ثائرتها عندئذ وقالت : ان كنت تظن هذا دلالا مني فقد اخطات · ماذا دهاك يا ابن الزبير حتى عدت لا تفرق بين الجد والدلال ؟

فنظر اليها مليا ثم قال :

ــ اذن اذهب الى ضرتك عائشة بنت طلحة ·

فصاحت مغضبه

ــ اذهب اليها فانها بك أشبه ·

ــ هي خير منك ·

ــ لا غرو ان تكون اجمل مني في عينك لانها اشبه بك · ماذا تنتظر ؟

انطلق اليها الساعة فانها تنتظرك ·

فأخذ مصعب يتودد اليها ويترضاها قائلا : كلا والله ما هي بافضل منك · قد تكون اجمل فيما يرى الناس ولكنها ليست بأملح منك يا سكينة يا احسن خلق الله ·

صدقيني يا سكين ٠٠ هذه الجمة وحدها عندي بأنف عائشة !

وتهلل وجه سكينة عند ذكر الجمة التى اشتهرت بها فاخذت بسمة صغيرة تنداح حول شفتيها مما شجع مصعبا على الاسترسال فى الحديث فطفق يقص عليها كيف ارادت عائشة ذات يوم ان تقلدها فى جمتها فلم تفلح ، فاخذت تسبها وتقول : وددت لو تقص جمة سكينة وأعتق جميع امائى !

فلم تستطع سكينة ان تغالب ضحكها فاستضحكت حتى بدت ثناياها الغر ٠ فتشجع مصعب ومد يده الى شعر رأسها فاخذ يجليها فى خصلاته فى رقة وحنان ٠ فلما رآها استنامت له تشجع مرة اخرى فاسترق منها قبلة ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى استردت سكينة نفسها فدفعته عنها وهى تقول :

ـ اياك ان تظن انك خدعتنى ٠ارجع لى حيث كنت فافرغ من عدو الله ثم عد الى ٠ او اذهب الساعة الى عائشة ثم لا تعد الى ابدا ٠

وخرج مصعب غاضبا من دارها وتردد قليلا فى الطريق ايذهب الى عائشة بنت طلحة ام الى احدى زوجتيه الاخريين ؟ الغضب والشوق يدفعانه الى دارعائشة٠ ولكن هاجسا فى ضميره ينذره ألا يفعل لئلا يلقى منها مثل ما لقى من سكينة٠ غير انه لم يستطع مغالبة شوقه الى عائشة ولا رغبته فى اغاظة تلك التى آثرها بالنزول عندها فردته كسيرا ٠

ولم يكد يدخل دار عائشة حتى استقبلته مرحبة باسمة ووجدها قد ازينت كانما كانت فى انتظاره ووجد كل شىء فى الدار مهيأ لاستقباله فعجب من ذلك وتوجس خيفة ولكن ما لقيه من حسن استقبالها قد اعاد الطمانينة الى نفسه ٠ فاندفع يعانقها ويقبلها وهى تستسلم له وتبتسم ٠٠ فلما قضيا حق اللقاء الاول دعته الى مجلسها فسألته هل فرغ من قتال عدوه المختار بن ابى عبيد ٠

فلما أخبرها انه لجأ بعد هزيمته الى دار الامارة حيث تحصن بها وحيثضرب هو عليه الحصار قالت له : كيف تركته قبل ان تفرغ من امره ؟

ـ اردت ان اتزود منك ومن حسنك يا عائش ٠

ـ هلا تزودت من ذات الجمة ؟

وتردد قليلا فى جوابها فقد احس من لحن قولها انها ربما علمت بما كان من نزوله عند سكينة وانها تعاقبه على ذلك فقال لها :

ـ اليس من حقى ان اوثر من اشاء على من اشاء ؟

قالت : بلى ان ذلك من حقك ولكن من من نسائك آثرت يا مصعب ؟

ـ قد علمت اننى آثرتك انت يا عائشة ٠

ـ كذبت ٠٠ ما جئتنى الا لما طردتك هى من بيتها ٠

ـ انما عرجت عليها مسلما ولم اقصد ان اقيم الا عندك ٠

ـ ويلك اتحسبنى لا تأتينى اخبارك؟

ـ من اخبرك ؟

ـ لا شأن لك ٠

فلبث هنيهة فى حيرة لا يدرى ماذا يقول ثم تمتم قائلا ٠٠

ـ والله ما احسبكما الا تواطأتما علي!

ـ على أى شيء تواطأنا ؟

ـ على ألا تقبلانى حتى اورغ من المختار بن ابى عبيد ٠

ـ ويحك يامغرور كيف نتواطأ وكلتانا لا تقبل الاخرى ؟ ولكنك اخلفت ظن كل منا ٠

ـ كيف يا منية النفس ؟

ـ كنا نظن انك تعشق معالى الامور، فاذا انت زئر نساء لا تطمح نفسك الى ابعد من شهواتك ٠

فتململ مصعب ضجرا وقال :

ـ ويلى منكما ٠٠ انت ايضا تذكرين معالى الامور !

فصاحت به مغضبة : ويلك ماذا تظننى ؟ تذكر يا مصعب اننى ابنة طلحة بن عبيد الله ٠

فقال لها معتذرا : ويحك انى ماذكرت شيئا عن ابيك ٠

ـ لست ابنة طلحة بن عبيد الله ان قبلتك عندى وقد طردتك ذات الجمة من بيتها

وادرك مصعب بعد لأى انها لن تقبله ابدا فخرج من عندها كالشريد وقد

تضاعف همه وغضبه فانطلق الى بيت زينب ابنة ريان بن انيف فتلقته بالبشاشة وأكرمته وواسته ٠

ـ الحمد لله الذى ارضاك عنا يا مصعب ٠

ـ يا ابنة الخال ما يعدل قلبى بك بديلا ٠ انت والله نعم الزوج الودود ٠

ويتشقق الحديث بينهما فتقول له : يا ابن العمة انك لن تجد مثلى حبا لك وعطفا عليك ٠ ما من واحدة من نسائك الا تزوجتك لغرض فى نفسها ما خلاى ٠ سكينة تزوجتك لتثار لابيها من اعدائه الذين قتلوه ، وعائشة بنت طلحة اجمل نساءعصرها انما تزوجتك لتباهى النساء بجمالك وفضلك ولو وجدت اجمل منك وافضل لما رضيت بك . اما التى تحبك لذاتك يا مصعب فهى انا ولا احد غيرى والله يا مصعب لو قد شوه الله وجهك او قطع فى الحرب اطرافك ما تغير حبى لك ٠

وكان مصعب قد عزم أن يقضى بقية الليل عند زينب والا يظهر لاصحابه الا فى صباح اليوم التالى ، غير انه اشتاق آخر الليل الى لقاء صديقه الاحنف بن قيس فهم ان يرسل فى طلبه ولكنه خشى أن يزعجه ذلك فقرر ان يذهب اليه بنفسه ٠ فلما رأته زينب يريد الخروج وقع فى نفسها انه ربما يريد الذهاب الى احدى زوجاته فلم تقل له شيئا بل ساعدته على ارتداء ملابسه ٠ وأحس هو بما يدور فى خلدها فأكد لها انه ذاهب الى احنف بن قيس فقالت له حينئذ

هلا زرته فى الصباح فانه لابد الآن نائم ؟

فأجابها بانه لايستطيع الصبر عنه وانه يعرف من عادة الاحنف انه ينام اول الليل ويتهجد آخره ·

وخرج متوشحا سيفه حتى أتى بيت الاحنف فطرق بابه فوجده قائما يتهجد كما قدر فرحب به الاحنف ترحيبا حارا ودعاه الى الجلوس وأخذ يسأله عن أحوال الكوفة واخبار المختار بن ابى عبيـــد ، فحدثه مصعب عن كل ذلك باسهاب فلما انتهى من ذلك طفق يقص عليه ما كان من سكينة وعائشة معه ·

فتبسم الاحنف ضاحكا وقال : ويلك يا ابن الزبير ما اراك جئتنى فى آخـر الليل الا لتقص على اخبارك مع نسائك ·

ـ اجل يا ابا بحر فانى منهن فى حيرة وكبد · وانت خير من يرشدنى فى هذا السبيل ·

وسكت الاحنف قليلا ثم اخـــذ فى الحديث فاذا هو يشرح له من اســرار المرأة عجبا ويكشف له دخيلة كل واحدة منهن · فاما ســكينة فانها تعلم ان غريمتها اجمل منها وانها لا تســتطيع منافستها فى قلبك ولا تصـــدق ابدا انك تؤثرها عليها ، فلما قدمت عليهـا ظنت انك بدأت بها لتختم بعائشة بعد ان تكون قد ازلت عنك غبار الســفر وتكون هى قد تهيأت لك بما يصلحها من الزينة · فرأت ان تتخذ من قضية ابيها الحسين وحرصها على أن تثأر له من اعدائه وقتلته سببا تدارى به حقيقة ما بنفسها ·

واما عائشة : فلو توجهت اليها باديء ذى بدء لما ردتك ولكنها حـــزرت انك ذهبت الى ضرتها فاستنكفت ان تقبلك من حيث ردتك غريمتها فتكون اهـون عندك منها ·

قال مصعب : لكن كيف حزرت ذلك وقد حرصت على الا يعلم بقدومى احد ؟

قال الاحنف : ان ذلك عليها ليسير فقد كنت تحمل فى وجهك وبين عينيك دلائـــل اتهامك · وان المرأة تـــدرك بغريزتها فى هذه الشئون ما لا يدرك الرجل ·

ـ لكنها زعمت لى ان احدا اخبرهـا بذلك وهذا ما حيرنى ·

ـ انما زعمت ذلك لتســتدرجك الى الاقرار بالحقيقة وقد فعلت ·

قال مصعب : ان يكن ما تقول حقـا فقد خدعتنى الخبيثة وغلبتنى ·

قال الاحنف : ويلمك بطلا يامصعب، لو لم تغلبك رقتك هذه للنساء · اذن لسقت الناس جميعا بعصاك ·

ـ هيهات يا ابا بحر · ذاك اخى عبد الله امير المؤمنين ·

ـ كلا يا مصعب · اخوك يعوزه كثير مما عندك · ليس له محياك هذا الذى يشبه وجه ملك كريم · وليس له كرمك الفياض الذى لا يزيده غناك ولا ينقصه فقرك ولا تميز فيه بين عدو وصديق ولا بين غنى وفقير · انت يا مصعب لا عيب فيك الا انك زئر نساء ·

ثم اخـذ الاحنف يلومه على تركـــه الكوفه وفيها عدوه لم يفرغ منه وقدومه

البصرة لغير شيء الا ان يلقى نساءه ومن وراء ذلك كله العدو الاكبر عبد الملك بن مروان بالشام . قال مصعب : دع عنك عبد الملك فما بقيت على العراق لن يتصدى لي بأي مكروه .

ـ لا يغرنك يا مصعب سكوته عنك حتى اليوم فانما يشغله عنك الآن امر ابن‌عمه ومنافسه عمرو بن الاشدق ولئن فرغ منه وسيفرغ منه وشيكا ليأتين اليك ولينازلنك .

ـ ما اخاله راغبا في قتالي يا ابا بحر .

ـ لمكان الصداقة القديمةالتي بينكما؟

ـ نعم

ـ ويحك يا ابن الزبير . انك لا تعرف عبد الملك .

وانتهى الحديث بينهما بان اشار عليه الاحنف ان يرجع الى الكوفة في الحال ويستصحب معه احدى زوجاته حتى لا تنازعه نفسه الى ترك الكوفة قبل ان يقضي على عدوه المختار بن ابي عبيد .

وعمل مصعب بمشورة صديقه الاحنف . فرجع الى الكوفة مستصحبا معه زوجتيه زينب وامة الحميد وقد قصد بذلك ان يؤدب سكينة وعائشة فيما لقيتاه ذلك اللقاء غير الجميل .

وشدد الحصار على المختار بن ابي عبيد فلم يدع شيئا يتسرب اليه من قريب أو من بعيد ، وامر رجاله فتعقبوا فلول اصحابه في كل مكان . ولئن دار الامارة التي تحصن فيها المختارواصحابه كانت منيعة الجانب اذ تقع في مرتفع من الارض ، تحوطها الاسوار العالية من كل ناحية وعليها الحصون والاكوات التي يصعب الدنو منها او اقتحامها فلم يكن لمصعب بد من الانتظار حتى ينفد مافيها من المؤن والذخائر فيخرج من فيها مستسلمين .

وقد اقتضى ذلك منه اربعة اشهر ابدى في خلالها مصعب من الصبر والشجاعة آيات . حتى لقد غامر ذات ليلة فأراد أن يتسلق الاسوار في جماعة من رجاله ولكن رجال المختار فطنوا لهم فامطروهم بالسهام والقوا عليهم الحجارة فقتل منهم من قتل واصيب من اصيب وكان نصيب مصعب من ذلك شجة في رأسه من حجر القي عليه .

ولامه وجوه اصحابه على ما كان من تهوره وشددوا عليه في ألا يعاود مثل هذا السبيل . وقالوا له اننا في السعة وهم في الضيق فأي شيء يحملنا على نفاد الصبر والضيق بالمطاولة ؟

ونزل مصعب على رأيهم ولكن على مضض فقد ضاق صدره من طول الحصار والوقوف دون الاسوار لا يستطيع ان ينال ممن خلفها شيئا . وكلما تذكر سكينة وعائشة هاجت شجونه واشتد حنينه ولجت به الرغبة في أن ينتهي من امر المختار بأي سبيل وفي اسرع وقت .

لقد قصد ان يؤدبهما حين استصحب معه زوجتيه الاخريين ليستغني بهما عنهما ولكنه لم يلبث حين تمادى به الحال ان شعر انه انما كان يؤدب نفسه بابتعاده عنهما كل هذا الامد الطويل .

ولقد هم غير مرة ان ينطلق الى البصرة من شدة شوقه اليهما لولا خشيته ان يلقى منهما مثل ما لقى فى المرة الاولى وخوفه كذلك من عتاب صديقه الاحنف ابن قيس ٠

وضاق الحال بالمختار لما انقضـــت اربعة أشهر على حصاره ونفدت المـؤن التى عنده فاقدم على مغامرة جريئةاذهلت اصحابه واصحاب مصـعب جميعا ذلك انه خرج وحده من الحصن متســللا فى الليـل حتى اقبل على اصحـاب مصعب المحاصرين لدار الامارة فاعلن لهم نفسه وقال لهم : قودونى الى اميركم لأتحدث اليه ٠ فهم بعضهم بقتله لولا ان صـاح فيهم : ويلكم انى جئت وحدى مستامنا فلا تقتلونى حتى تروا رأىاميركم ان كان له عندكم قدر ومكانه ؟

فلما جىء به الى مصـــعب احسن مصعب لقاءه وامر رجاله ان يدعـــوهما وحدهما فاشفقوا ان يكون جاء لاغتيال صاحبهم فجردوه من سيفه ولكن مصعبا نهرهم وقال لهم :

ردوا سيفه اليه ودعــونى وحـدى معه ٠

فلما اختليا قال المختار :

ـ ان اصحابك لا يعـرفون مروءتك يا مصعب ولا يقدرونك حق قدرك ٠

قال مصعب :

بلى ولكنهم حرصاء على فلا لوم عليهم٠ فقل لى ماذا تريد ؟

ـ جئت اعرض عليك احد امرينالاول ان تتركنى واصحابى فنمضى جهة الشام لنقاتل اعداءكم آل مروان ٠

ـ كلا يا ابن ابى عبيد ما يكون لى ان احاصرك اربعة اشهر حتى اذا نفـــدت المؤنة من عندك اطلق سراحـك لتمضى حيث تشاء ٠

ـ اعاهدك لاقاتلن آل مروانفاشغلنهم عنك ٠

ـ ليس بينى وبين آل مروان شىء حتى اليوم ٠ ولئن قاتلتهم فلن استعين عليهم بعدوى ؟

ـ اذن فانى اعرض عليك الامر الثانى

ـ ما هو ؟

ـ ان تبارزنى بالسيف فاما قتلتنى واما قتلتك فقهقه مصعب ضاحكا ٠

ـ ما يضحكك ؟

ـ انك قدرت فى نفسك اننى شجاع وان اريحيتى تمنعنى من رفض طلبـك هذا خشية ان أجبن ٠ ولكن فاتك اننى لا ابارز رجلا قد يئس من الحياة فـــلا يبالى أيقتل ام يقتل

ـ اذن فقد جبنت عن لقائى ٠

ـ انك تعلم اننى لست كذلك وانك تعلم ايضا ان احدا لا يمكن ان ينسب الى الجبن ٠

ولو دعوتنى الى المبارزة من قبـــل لاجبتك ٠

ـ اذن فاقتلنى الساعة ٠

ولم يكد المختار يتفوه بهذه الكلمة حتى وثب مصعب في سرعة البرق فانتزع سيف المختار من يده . فامتقع وجه المختار وقال له : ما حملك على هذا يا مصعب ؟

فصفق مصعب وهو يقول : كنت أظنك أكرم من هذا . لقد اردت ان تغدر بي يا لكع ؟

واقبل رجال مصعب لما سمعوا تصفيقه فقال لهم : خذوا هذا الغدار فاوصلوه الى مأمنه .

فطفق المختار يحلف بالله ما نوى شيئا مما ظنه به .

فقال مصعب : وهل لك يمين يا كافر؟ خذوه فاوصلوه الى مأمنه .

قالوا : دعنا نقتله ايها الامير .

ـ لا والله لا اغدر كما تفعل الاعاجم .

ـ انه قد اراد ان يغدر بك

ـ ذاك شانه هو لاشاني . اغربوا به من وجهي .

* *

وما راع الناس في اليوم التالي الا ان خرج المختار مستبسلا في نفر من اصحابه فقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير حتى قتلوا .

وجيء بجثة المختار الى مصعب فامر بقطع راسه وكفه . اما الرأس فبعث به الى اخيه عبد الله بن الزبير . وأما الكف فامر بصلبها على باب مسجد الكوفة .

ولم يستطب مصعب ان يصبر حتى يرى ما يكون من اصحاب المختار الفارين منهم والمستخفين اذ وكل ذلك الى اصحابه وانطلق هو على الفور الى البصرة ليلقى حبيبتيه .

ولم يتردد في هذه المرة فقد صمم على أن ينزل اولا بدار عائشة بنت طلحة فارسل اليها رسولا يخبرها بقدومه .

واستشارت عائشة مولاتها فيما تفعل بمصعب فاشارت عليها بان تحسن لقاءه في هذه المرة وتهنئه بالفتح حتى لا يتحول الى دار سكينة بنت الحسين فقالت عائشة : أجل والله لأبالغن في الحفاوة به ولأغيظن ذات الجمة .

ولم يكد مصعب يدخل الدار حتى استقبلته عائشة بزينتها وجواريها وهي تتهلل بشرا وتقول : مرحبا بك يا سيد شباب العرب .

ثم قادته الى مخدعها فاخذت تقبله وتمسح التراب عن وجهه قال لها : امهليني ياعائشة حتى اغتسل وأتطهر فاني أشفق عليك من رائحة الحديد .

قالت : لهو والله عندي اطيب من ريح المسك .

وقضى مصعب يومين عندها لم تدع له فرصة خلالهما ليقابل احدا من اصحابه فقد كانت تريه من زينتها فتونا ومن رقتها ودلالها فنونا حتى انها لبست له ثلاثين حلة كلما خلعت واحدة لبست الاخرى .

فلما كان اليوم الثالث اراد ان يخرج

الى اصحابه فقالت له : كلا والله لاتخرج اليوم من الدار ابدا • ولكن ادع من تشاء من اصحابك فليحضروا مجلسك هنا فانى دعوت عزة الميلاء لتغنى لنا وتطربنا •

ودعت هى طائفة مختارة من نسوة قريش فلما حضرن خلعت على كل واحدة منهن خلعة تامة من الوشى والخزو اجلستهن فى مجلس قد نسقت فيه الرياحين والازهار وصفت على موائده اطباق الفواكه وعبقت فيه مجامر العود والند•

وكذلك فعلت فى مجلس الرجال الذى يحاذيه والذى تفصل بينه وبين مجلس النساء الستور والحجب • وقد دعا مصعب جماعة من اصدقائه واصفيائه فجلسوا معه فى أنس وصفاء• وتذاكروا معه مختلف شئون الدولة وشؤون الناس والساقى يدور عليهم باكواب الاشربة من ورد ورمان وتفاح ثم مد الخوان بالشواء ، والوان الاطعمة فاكلوا هنيئا مريئا •

فلما فرغوا من ذلك سمعوا من جانب النساء رنات المزاهر والعيدان وصوت عزة الميلاء يتغنى فى شعر امرىء القيس حتى اذ وصلت الى قوله :

وثغر اغر شتيت النبات
لذيذ المقبل والمبتسم

وما ذقته غير ظن به
وبالظن يقضى عليك الحكم

استخف مصعبا الطرب فوثب الى حيث دنا من جانب الستور المسبلة فصاح : يا هذه انا قد ذقناه فوجدناه كما وصفت •

ثم التفت الى اصحابه فقال لهم : ماذا ترون يا قوم لو دعوت لكم عزة الميلاء ففنتكم هنا بين أيديكم ؟

فاستحسن ذلك قوم وتحرج آخرون فلم يبال بهم مصعب ودخل الى عائشة فقال لها : اما انت فلا سبيل لنا اليك مع من عندك من النسوة وأما عزة فتأذنين لها ان تدخل الينا فتغنينا •

قالت عائشة : حبا وكرامة يامصعب

ولم تلبث عزة ان دخلت الى القوم ومعها فرقتها وقد ارتدت حلة فاخرة من الوشى والحرير كستها اياها عائشة فوقفت فى صدر المجلس واخذت تداعب عودها وتصاحبها فرقتها بالمزهر والدف حتى اذا استوى لهن اللحن ترنم فمها بصوت يسيل عذوبة ورقة وهى تقول:

انما مصعب شهاب من الله
تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك رحمة ليس فيه
جبروت منه ولا كبرياء

فطرب القوم طربا شديدا وصاحوا جميعا : احسنت يا عزة •• بوركت يا عزة •

وكان هدف عائشة من هذا كله أن توغر صدر غريمتها سكينة وتدفعها الى مغاضبة مصعب اذا ذهب اليها • ولكن سكينة لم تشا أن تمكنها من بلوغ هدفها فقد استقبلت مصعبا خير استقبال وأرته من ضروب الرعاية ما لم ير منها قبل ذلك قط •

حتى لقد عجب هو نفسه من ذلك•

ولقد اقبل اليها حين اقبل وهو يزور في نفسه كلاما يعتذر به اليها اذا حاسبته ايثاره عائشة بالنزول عندها في هذه المرة . فاذا هى تتطلق له دون ان تشير الى ما فعلته عائشةمن قريب أو من بعيد كان شيئا من ذلك لم يكن .

وقضى ثلاثة أيام عندها لم يشعر بمرورها من فرط ما كانت تحوطه به من جميل الرعاية ورقة الحديث. وفنون التحبب والتعطف . وقد اقتصرت فى هذه المدة على ثلاث حلل، فحلة في الصباح وحلة بعد الظهر وحلة عند النوم . ولكنها كانت تفتن فى تصفيف شعرها افتنانا يضفى عليها فتنة تتجدد في عينيه كل ساعة من ساعات النهار .

وكانت بارعة الحديث تتصرف في فنونه ، تصرف الخبير دون ان ينفد محصولها من شعر مختار تنشده ، وقصة تحكيها ، ونادرة ترويها وفصاحة ناصعة ، وبيان عذب لا يمل سامعه أبدا .

فلما كان اليوم الرابع قالت له : يا مصعب انى قد قضيت مالك من حق على . فاقض اليوم ما لنفسك من حق عليك .

ــ ماذا تعنين يا سكينة ؟

ــ انك قد فرغت من عدوك المختار بن أبى عبيد . فامض الآن لقتال عبدالملك بن مروان . فانه هو الهدف .

فوعدها خيرا وقال لها « سيتم ذلك باذن الله فى حينه » ولم يكن فى قرارة نفسه يعنى ما يقول فقد كان لا يتصور أبدا كيف يحارب عبد الملك بن مروان صديقه القديم الحميم .

قالت : اذا أخرت ذلك فسيقوى عليك . انك اليوم منتصر ورجالك منتصرون ، وحكمك نافذ على الجميع فامض بهم اليوم صوب الشام لقتال عبد الملك قبل ان تتراخى قبضتك عليهم اذا تركتهم ويعودوا للخلاف عليك والتفرق فانهم أهل العراق .

وكانت قد استدعت الاحنف بن قيس الى دارها فلما حضر أيدها فى رأيها وحث مصعبا عليه . وزاد على ذلك ان أوصاه بان يكتب الى أخيه عبد الله ليمده بجيش من عنده يلتقى به فى الطريق .

ولكن مصعبا لم يقتنع بهذا الرأى . وأصر على أن يقدم على أخيه اولا بمكة ليستشيره فى الامر وكان غرضه فى الحقيقة من ذلك أن يلتمس اى مخرج من مواجهة عبد الملك بن مروان بالحرب.

قال الأحنف : ان كنت تعتزم السفر الى أخيك فعجل به .

ثم اقترح عليه أن يستقر بالكوفة ويأخذ زوجتيه سكينة وعائشة اليها حتى يستطيع التفرغ لما هو بسبيله .

قال مصعب : ما أخالهما ترضيان بذلك .

قالت سكينة : بل ارضى يا مصعب. والله لو دعوتنى لصاحبتك الى الشام فى قتال عبد الملك لفعلت .

(للقصة بقية)

أعلام القصة فى الأدب الإنجليزى الحديث

② ألدوس هكسلي .. ساحر التصوف

بحث فى جزئين — بقلم : دكتور طه محمود طه

الجزء الاول : ١ ـ حياته ٢ ـ اليوميات ٣ ـ كتب الرحلات والسفر والهروب ٤ ـ « المتسائل الحائر »

***

١ ـ حياته :

يعتبر الدوس ليونارد هكسلى من الكتاب الصامتين الذين قلما يتحدثون عن انفسهم ولهذا يجد الباحث صعوبة فى الحصول على مادة تعينه على التعرف على الجوانب العديدة لحياته الشخصية ولهكسلى من سعة الاطلاع والقدرة على تشكيل افكاره والحركة المستمرة ما يجعل الباحث يجد فى كتبه كل ما يبحث عنه • وقد تعرض لانتاجه الأدبى كثير من النقاد وكتبت عنه الصحف والمجلات لاسيما بعد نشره قصته « عالم جديد شجاع » عام ١٩٣٢ وتنبأ فيها بما سيحدث فى المستقبل عندما ينجح العلم الحديث فى « تفريخ » الجنس البشرى • ولكنه نشر فى عام ١٩٥٦ كتابه « زيارة ثانية للعالم الجديد الشجاع » وفيه استعراض لما قد تم فعلا من تنبؤاته السابقة وقارن بين كتابه وكتاب جورج أورويل « ١٨٩٤ » • وفى معظم الدراسات التى ظهرت حتى الآن لحياته ومؤلفاته ، لازالت صورة الدوس هكسلى كساخر تطغى على صورته كمتصوف • ولم تظهر دراسة وافية شاملة تتبع تطوره الفكرى وتشرح أسباب اهتمامه بمستقبل البشرية وتحوله الى التصوف . وفى هذا البحث سنحاول ان نثبت وجه الشبه الكبير بين هكسلى وأبطال قصصه كلها ، وستكون مفكرات أبطاله ويومياتهم فى قصصه بالاضافة الى مقتطفات من كتب رحلاته مصدر المادة التى ستعيننا على تفهم سيرته • ونأمل ان نعطى لشخصيته صورا متتابعة ومن زوايا مختلفة ثم ندعها تتكلم بلسانها وتعبر عن كل جانب من جوانبها •

وفى هذه الدراسة لا بد من أن نوفق بين البواعث والدوافع النفسية والتكوين الجسدى والمزاج الشخصى من جهة والانتاج الادبى من جهة اخرى • فلن يفوتنا أن نرسم له صورة جسمانية من واقع قصصه ومقالاته ورسائله وكتب رحلاته ، وكان هكسلى دائما يشعر بالهزال والتوعك وفقدان الشهية وكثيرا ما قاسى من ضعف بصره ومن الامساك المزمن واضطرابات المعدة وامراض الكبد والصفراء وتوفى على اثر اصابته بسرطان المعدة • وللمزاج الشخصى والتكوين الجسدى اثرهما فى الدوافع النفسية وبالتالى فى العمل الادبى ويقول هكسلى : « **كل فلسفة فى الحياة تبدأ باحساس أو شعور عميق أو مزاج شخصى وتنتهى برأى** » •

ولابد للاديب من تغيير وجهة نظره على مر السنين وفى هذا يقول : « **لقد حاولت أن اجبر نفسى على أن اكان تجسيدا لمبدأ أو أن اصبح « نظاما » يسير على قدمين ... ولكن الانسان لايصبح ثابتا الا اذا تحجر ... ولهذا اوثر ان أظل حرا وحيا وفى خطر على ان اصبح كالمومياء وفى أمان** » .

ولا يستطيع الأديب ان يتخلص من مزاجه الشخصى أو تكوينه الجسدى الا بشق الأنفس ، وهناك صراع دائم بين شخصية هكسلى الأديب وهكسلى كما هو . ويقول « يونج » « كل انسان خلاق يعد انسانا له شخصيتان أو خليطا من المواهب المتناقضة . فهو انسان لهحياتهالخاصة وفى الوقت نفسه « عملية » خلق غير ذاتية » ويقول هكسلى : « ان كل فنان يسرد قصته انما يسردها علينا بطريقته الخاصة .

وهذه الطريقة تحوى قصة أخرى متداخلة مع القصة الأولى ، قصة عن الفنان نفسه ، قصة عن انسان موهوب وكيف يقتضى تجاربه من العالم حوله . والقصة الأولى تسرد نفسها عن عمد والقصة الثانية تسرد نفسها دون وعى من الفنان ، فهو لايستطع أن يتجنبها لأنها تعبير عن ذاته الخاصة ، تعبير عن مزاجه وتكوينه العاطفى الذى ولد به وعن شخصيته التى صقلها هو وكذلك الدوافع الكامنة التى تكونت من تفاعل مزاجه الشخصى وشخصيته التى صقلها والظروف المحيطة به . »

واذا ضعف الجسد واشتد الطموح والذكاء فالطريق هو طريق الانطواء والعزلة لاطريق المغامرات والعنف ، او طريق التأمل والتعايش السلمى والتصوف لا طريق التهكم والسخرية أو الشهوات والغرائز . فالمنكر أو الأديب أولا وآخرا كائن حى . وصفة الازدواج فى التفكير ظاهرة كل الظهور فى اعمال هكسلى فى الفترة الاولى فمنذ البدء شعر بقوة الشهوة الى حد كبير واستمر لفترة طويلة اسيرا لشيطانه يحاول ما استطاع ان يظفر به وينتصر عليه .

وما يهمنا فى هذا البحث هو التحول العظيم فى حياته من السخرية والاحباط الى التكامل فى الشخصية والجدية فى الكتابة والنقد البناء والشعور بالمسئولية عن طريق الفلسفة الهندية السلمية والتصوف . ففى الفترة الاولى (١٩١٦ ـ ١٩٢٧)من حياته الأدبية الطويلة لم ينج من قلمه اللاذع أى شىء ولكنه سرعان ما وجد ان هذا الطريق طريق مسدود لايقود الى الخير أو الخلاص أو اكتمال الشخصية .

وبدأت فترة الصراع النفسى العصيب تميز كتبه فى الفترة الثانية (١٩٢٨ ـ ١٩٣٤) حتى نصل الى الفترة الثالثة والاخيرة (١٩٣٥ ـ ١٩٦٤) ونرى فيها التكامل والتصوف واضحين .

وولد هكسلى فى عائلة تبرز فيها اسماء لامعة فى علم الأدب والعلوم ونرى اثر ثقافته المتنوعة فى كتبه بشكل واضح ، فهو شقيق سيرجوليان هكسلى العالم البيولوجى المعروف وكان والده الكاتب والمحرر ليونارد هكسلى اكبر ابناء توماس هنرى هكسلى ، ووالدته جوليا آرنولد ابنة توماس آرنولد اعظم ناظر مدرسة ومعلم فى القرن الماضى وهو شقيق الشاعر والناقد الفكتورى مايثو آرنولد . وكانت

عمته ، التى تولت تربيته بعد وفاة والدته ، هى مسز همفرى وارد القصصية الفكتورية ومنذ نعومة اظفاره نشأ هكسلى فى جو علمى أدبى وكان مقدرا له أن يصبح اما اديبا أو عالما ·

ولقد كان هكسلى كاتبا مخصبا دائما ونشر اكثر من خمسين كتابا فى الشعر والقصص والرحلات والنقد والتصوف وكان له شهرة دولية ولم يبلغ الثلاثين من عمره وترجمت معظم كتبه الى كثير من اللغات · وقام برحلات عديدة فى اوروبا وامريكا والهند وزار مصر مرتين · وفى هذه الرحلات احتك بثقافات وعادات وحضارات مختلفة واصبح له سيطرة على مادته المتشعبة الغزيرة · وقد زج بنفسه فى كل عمل ذهنى علمى أدبى فلسفى دينى . وحين قدم على شاشة التليفزيون فى محطة الاذاعة البريطانية وصفه مقدم البرنامج بأنه الكاتب الذى له عقل كدائرة المعارف البريطانية· ويقول هكسلى ان هوايته فى السفر قراءة دائرة المعارف على ظهر الباخرة ، ويقول لنا اخوه سير جوليان انه دائما يطلب وضع اجزاء دائرة المعارف فى صندوقين ويحملهما معه أينما ذهب ·

وولد هكسلى فى ٢٦ يوليو عام ١٨٩٤ وتلقى تعليمه الاولى فى مدرسة ابتدائية وبعدها فى « ايتون » التى ذهب اليها اثر حصوله على منحة فى عام ١٩٠٨ · وكان أمله ان يصبح طبيبا ، ولما كان على وشك التخصص فى علم الأحياء أصيب بمرض فى عينيه وبعد بضعة شهور فقد بصره تماما · وبدأ فى تعلم قراءة الكتب والنوتة الموسيقية بطريقة « بريل » وبدأ فى استعمال الآلة الكاتبة · ولما كان عمره ثمانية عشر عاما انتهى من كتابه قصة على الآلة الكاتبة ولما استرد بصره قليلا كان مخطوطها قد ضاع ·

وبعد عامين شفيت احدى عينيه قليلا وعندما استطاع القراءة بمساعدة عدسة مكبرة ذهب الى جامعة اكسفورد حيث درس الأدب واللغة عندما أصبحت دراسة العلوم امرا مستحيلا نظرا لضعف بصره · وتخرج فى عام ١٩١٥ وقضي فترة الحرب العالمية الأولى فى اعمال متعددة كقطع الاشجار والعمل فى مكتب حكومى والتدريس · وفى عام ١٩١٩ تزوج ماريانين وكانت بلجيكية الاصل حضرت لانجلترا اثناء الحرب كلاجئة · ثم عمل عضوا فى هيئة تحرير مجلة « اثينا يوم » تحت رئاسة جون ميلدتون مورى · وفى هذه الفترة كتب جزءا كبيرا من الأدب الصحفى لكثير من المجلات ·

وعندما تمكن من اقتصاد بعض المال نزح الى ايطاليا مع زوجته وابنه حيث قضى معظم وقته فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ · وفى ايطاليا كرس وقته للكتابة · وفيما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٦ قضى وزوجته وقتا طويلا فى الهند وعند عودتهما اتصلا بفريدا ر د·هـ· لورنس · ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة د·هـ· لورنس عام ١٩٣٠ كان هكسلى وزوجته مع لورنس فى ايطاليا وفرنسا ·

وفى عام ١٩٣٠ اشترى منزلا صغيرا فى جنوب فرنسا واصبح ملاذا لهم طالما كانوا خارج انجلترا · وفى عام ١٩٣٤ ذهب الى امريكا الوسطى والولايات المتحدة وبعد ثلاث سنوات عاد الى امريكا · وهناك علم بطريقة تعيد الابصار للعين ابتكرها الدكتور « بيتس » ، وبعد فترة تدريب على يدى خبراء فى هذه الطريقة بدأ التحسن

الواضح فى قوة الابصار وبدأ الامل يحيا فى نفسه (انظر كتابه « فن الابصار ») وفى كاليفورنيا ساعد فى التحضير لكتاب عن حياة مدام كورى ولفيلم سينمائى عن قصة لجين اوستن :

ولنقرأ ماكتبه هكسلى فى عام ١٩٥٠ فى معرض حديثه عن اهم تجربة مر بها فى حياته : « ان اهم حدث فى حياتى هو ، بدون نزاع ، بداية ضعف بصرى • وكان لهذه التجربة أثرها فى عزلى أيام شبابى • واضطرنى ضعف بصرى ان اعيش معتمدا الى حد كبير على افكارى الذاتية محصورا فى نطاق تجاربى الشخصية • وفى الشهور الماضية وعن طريق توجيه القوى الواعية فى الانسان تمكن الخبراء من علاج هـــذه العاهة • وقد اثبتت لى هذه الطريقة أنه يمكن للانسان من ان يسيطر على ظروفه بدلا من ان يصبح عبدا لها • »

« ومشكلة الحرية بالمعنى السيكولوجى ، لا بالمعنى السياسى ، هى مشكلة فنية • فلا يكفى ان يرغب الانسان فى ان يكون سيدا • فالالمام الصحيح بالوسائل التى تمكنه من السيطرة على ما يريد لها ضرورتها القصوى •

وفى مجال انسانى واحد محدد يوحى بالعجز زودنا الدكتور « بيتس » بهذه المعلومات • وقد تطورت طرق واساليب عديدة فى مجالات اخرى للسيطرة على ظروف قاسية ، ويمكن لأى شخص ان يستفيد منها اذا أراد • وكل الأساليب ثانوية على كل حال وتدور حول فن واحد رئيسى • وهذا الفن الرئيسى الذى يعلمنا الحصـــول على الخلاص من العجز الانسانى الذى يدفعنا الى الاثرة وحب النفس كثيرا ما كتب عنـــه ووصفه المتصوفون فى كل العصور • وانى اجد نفسى الآن معينا بمشـــكلة الخلاص الفردى السيكولوجى • »

من هذه اللمحة القصيرة عن حياة الدوس هكسلى نرى أن أهم تجربة مر بهـــا فى حياته هى فقده لبصره لمدة عام ونصف عام وضعف بصره المستمر • وقد ساعدته هذه التجربة على التأمل والعزلة وامعان الفكر فكان يمضى الأيام الكثيرة وحيـــدا فى حجرة مظلمة • وتظهر نتائج الاستبطان بوضوح فى كتبه التى لاتخلو من نغمة حزينة وتحسر وحقد على ما كان يطلق عليهم « قطيع الذئاب » • وقد دفعه ظلام الدنيا من حوله الى امعان التفكير فيما حوله والانعكاف على ذاته متفحصا • ويقول « لقد كنت اشعر دائما بالم واجهاد ، الاجهاد الذهنى والجسمانى اللذين يجلبهما ألم العين ومع ذلك كنت احمد الله على اننى أرى بهذه الصورة • » وان كان ضعف بصره قد خلف فى نفسه جرحا عميقا الا انه تغلب على هذا العجز • « فالايمان الصادق ، » كما يقول « يجعل الانسان يحرك الجبال ، أما الايمان السلبى فيمنعه من رفع عود من القش • » ويظهر فى قصائده الاولى دقة الوصف الحسى الذى يعتمد على الأصوات واللمس والشم دون حاسة البصر •

ويرمز هكسلى الى هذه التجربة فى جميع قصصه بلا استثناء ، فأبطاله يقاسون من عاهات مماثلة واعمارهم تتزايد على مر السنين لكى تقابل سن هكسلى أثناء كتابه القصة ، وجميعهم من خريجى جامعة اكسفورد وكلهم طوال القامة مثله (يعتبر هكسلى

أطول كاتب في القرن العشرين) ومن النوع الانطوائي الخجول ولم يلتحق واحد منهم بالخدمة العسكرية •

ففي أول مجموعة قصص قصيرة له لا يلمع بطل القصة الاولى في الرياضة ولم يكن بطلا بل كان مسالما ورفض التطوع في الجيش •

وبطل القصة الثانية « جاى » كان أحدبا بسيقان هزيلة وفقد زميله « جورج » احدى ساقيه • وفي قصته (تلك الاوراق الذابلة) كان شيليفر مصابا بجرح عميق في ركبته جعله غير لائق للخدمة العسكرية وفي شعره يعتمد على حواسه ما عدا حاسة البصر • وفي (تقابل الألحان) كان بطل القصة فيليب كوارلز أعرجا يحب العزلة والتأمل • حتى في (عالم جديد شجاع) نلاحظ ان (برنارد ماركس) يقاسي من شعور بالنقص والخجل لأن نسبة الكحول في مجرى دمه أثناء عمليـة (التفريخ) زادت عن النسبة المقررة • ونصل الى « ضرير في غزه » ويظهر لنا هكسلي بنفسه في شخصية « انتوني بينيز » وهو يتحدث مع طبيب :

ـ « هل تقاسي كثيرا من الامساك ؟ »

ـ « لا » اجابانتوني وهو يبتسم ••• « ليس كثيرا • »

ـ « تعني ليس بشدة » قال الطبيب • « هل عندك اكزيما ؟ »

ـ « من حين لآخر • »

ـ « وقشور في مؤخرة الرأس • » وهز الدكتور ميلر رأسه وكأنه يجيـب على سؤاله • « ويصيبك الصداع ، اليس كذلك ؟ »

وكان على انتوني ان يعترف بهذا •

ـ « بالطبع تصلب في الرقبة واصابات باللومباجو • اعرف ذلك • اعرف ذلك • وبعد بضع سنوات ستصاب بعرق النسا أو تصلب الشرايين • » سـكت الطبيب لبرهة ونظر متفحصا في وجهه • « تمام ، هذا الوجه الشـاحب • » وهز رأسه • « واحساسك بالسخرية والشك • انت سـلبي حقا • كـلما تفكر فيه سلبي • » وضحك انتوني ، ولكنه ضحك لكي يخفي شعوره بعدم الارتياح ــ « لاتظن اني القي اللوم عليك باي حال من الاحوال • » ومد الطبيب يده وربت بها على كتف انتوني بعطف • « فكلنا ما نحن عليه • وعندما نرغب في تغيير انفسنا الى ما يجب علينا ان نكون ، فليس الامر سهلا • لا ، ان الامر ليس سهلا ياانتوني بينيز • وكيف تستطيع التفكيرالابطريقة سلبية وعندك تسمم مزمن في الامعاء • لقد ظل معك منذ ولادتك ، على ما اعتقد • لقد ورثته • وفي نفس الوقت هذا الانحناء • تلقي بنفسك هكذا على حصانك ، ان هذا لفظيع • تضغط هـكذا على عمودك الفقري ••• يكاد الانسان يسمع صوت الفقرات وهي تسحق بعضها البعض • وعندما يكون العمود الفقري على هذه الحالة ، ماذا يحدث لباقي الآله ؟ ان التفكير في هذا الامر مخيف » •

وفي قصته « لا بد للزمن من وقفة » فقد « سباستيان » احدى ذراعيه • ولا يقتصر التشابه عند هذا الحد بل يتعداه الى امراض اخرى تصاب بها ابطال قصصه

كالمرارة والامساك وتقوس الظهر واضطرابات المعدة وطول النظر أو قصره ولا تخلو قصة من قصصه من الاشارة الى هذه الامراض وما ينتج عنها من أمراض نفسية وهذا هو منهاج هكسلي في دراساته فهو دائما يشير الى العلاقة الوثيقة بين الجسم والعقل: بين المرض ونظره الانسان الى الكون من حوله .

وكنتيجة لضعف البصر وعدم القدرة على الاختلاط بالآخرين كان هكسلي يقاسي من خجل شديد واصبح يعيش في عالمه الذهني الخاص به ويقول « **نحن دائما نخضع لما نعمل فيه ولأن اخضع للتأمل الذهني خيرا لي من الخضوع للعواطف ، ولأن استعمل روحي في المعرفة أفضل من استعمالها في الاحساس .** » وكان احساسه بضرورة اظهار عواطفه للناس كتعريض جسده عاريا لهم . ويظهر عدم ميله للتعرية النفسية والعاطفية في قصصه الاولى مثل « أنتيك هاي » و (كروم يلو) . وفي خطاب لأحد محرري المجلات الادبية في امريكا كتب يقول : « اني لا أجد غضاضة في التحدث بسخرية عندما اكتب عن اشخاص آخرين وخاصة الشخوص الخيالية في قصصي . اما فيما يختص بي فاني لااحتمل الا التكتم . »

ويقول هكسلي ان السبب في اعراضه عن الحفلات والسهرات والاجتماعات هو انه لايلمع فيها ولا يتألق ، ولكن صديقه « اوزبرت سيتويل » يخالفه هذا الرأي : « **كان في ذلك الوقت يبلغ العام الثالث والعشرين من عمره ولو أنه كان احيانا يؤثر الصمت لفترات طويلة الا انه كان يبهر محدثيه اذا ما تكلم ، ولفترات طويلة ، وكان ضليعا في النظريات العلمية الحديثة والسياسة والفن والأدب وعلم النفس ، وكان أهلا لأن يعالج الافكار ويلعب بها ... وكم كنت اتمتع بصحبته ، ولكنه سرعان يؤثر الصمت ويشرد في نوبة من التأمل العميق .** »

وهكذا يرسم هكسلي شخوصه في قصصه : شخوص تؤثر العزلة والصمت والتأمل والقراءة واللعب بالافكار والكلمات وتسجيلها وفحصها ، شخوص لاتنفعل ولا تؤثر فيها العواطف الانسانية الدافئة كالحب والشفقة والعطف ولكنهم كهكسلي ذهنيون يعيشون في عالمهم الخاص بهم .

٢ ـ اليوميات :

ولنتساءل : اذا كان الأديب خجولا منطويا ولا يريد الافصاح عن دخيلة نفسه فان افضل وسيلة للتعبير عن ذاته هي « الجورنال » أو اليوميات أو الاعترافات . ونلحظ شيئا هاما في جميع قصص هكسلي ، وهو ان كل شخوصه الرئيسية سواء في القصص القصيرة أو في القصص الطويلة تحتفظ بيوميات . وربما لانكون مبالغين اذا قلنا ان اروع ماكتبه هي تلك الأجزاء في قصصه التي يعبر فيها البطل عن احساساته العميقة وآرائه وفلسفته في الحياة وشعوره الصادر من تجاربه الذاتية واحتكاكه بالآخرين . كما يناقش فيها البطل ، ومعظم ابطاله من الادباء ، مشاكل نقديه ويستعرض اساليب مختلفة في تكنيك كتابة القصة .

ولدينا في قصصه تلك الفصول الرائعة في « ضرير في غزه » وهي مقتطفات

طويلة من يوميات انتونى بيفيز ، ومفكرة فيليب كوالز فى « تقابل الألحان » ويوميات شيليفر فى « تلك الاوراق الذابلة » التى تكون فى مجموعها ثلث القصة ، وكذلك ما اسماه سباستيان فى « لابد للزمن من وقفه » بملاحظاته عابرة • وبالاضافة الى هذه اليوميات فهناك عدد كبير من المذكرات و « الأفكار » فى قصصه القصيرة •

وفى هذه اليوميات يكتب ابطال هكسلى عن احساساتهم بعمق وفهم وادراك ، ولا نجد فى اسلوبها تلك السخرية التى تتصف بها قصصه لأنها تعبير صادق عن نفسه وعن فلسفته فى الحياة • وكان هكسلى يسجل عادة هذه الملاحظات فى يومياته ولكنه لم يسجلها بانتظام ومن المؤكد انه كان يستعين بما يسجله فيها عند كتـــابة قصصه ومقالاته • ولابد ان ننظر الىهذه الاجزاء التى تحتوى على يومياته نظرةخاصة ويجب معالجتها بطريقة مستقلة • وما يسجله هكسلى عادة فى هذه اليوميات هو مايعن له من افكار عابرة أو اهتماماته الوقتية بشىء ما • ومعظم ما فيها من مادة يدور حول موضوع واحد بالرغم من التباين والاختلاف فيها فهى تدور حول موضوع وحدة الكون ومحاولة التأمل فى النفس بقصــد اكتشـاف جوهرها • ويميزها طريقة السـؤال والجواب وخاصة فى « ضرير فى غزه » وفى « لابد للزمن من وقفة » وكان هكســلى يستجوب نفسه أو يحقق معها •

وفى قصتيه « كروم يلو » و « آنتيك هاى » لايستعمل هكسلى طريقة اليوميات ولكنه يقطع السرد القصصى ويقص علينا قصة أخرى قصيرة يضمنها النص الأصلى • ونجد قصة « القزم » فى (كروم يلو) ويظهر فيها بوضوح شعور هكســلى بالخجل والعذلة وخوفه من « قطيع الذئاب » والعمالقة أو (الخراف النـــاطحة) • ومن السخرية الظاهرة اسم القزم نفسه فهو يدعى « هرقل » ولكنه ، لأنه قزم ، محروم من ممارسة نشاط العمالقة • وفى « آنتيك هاى » يحل انسان مشوه محل القزم ونجـد مسرحية قصيرة من فصل واحد فى القصة • والانسان المشوه يريد ان يحب ، يريد ان يمارس نشاط اقرانه ومعاصريه • ويمد المشوه يده الى اعلى ويتسلق كرسيا محاولا الوصول الى مثله الأعلى ولكنه يسقط فى بالوعة مياه قذرة قبل ان تصل اطراف اصابعه الى ما يبتغى • وشعور كل من القزم والمشوه يمثل لنا شعور هكسلى فى ايام شبابه عندما كان يقاسى من الاحباط وضعف البصر والخجل •

ولكن هكسلى سرعان ما يتحول من التحسر على نفسه والتقوقع الى الهجوم • والهجوم فى علم النفس وسيلة من وسائل الدفاع عند الاحباط • فالقزم له عقل جبار ويستطيع ان يتفوق به على العمالقة • ويبدأ هكسلى فى اتخاذ موقف ايجابى من العمالقة فيتهكم ويسخر منه ويبدأ أبطال قصصه الذين يدونون مذكراتهم فى التكشف لنا ويصبحون عقلاء فى عالم غاص بالمجانين ، عمالقة ذهنيون فى عالم يعج بالأقزام الجهلة ، رواقيون فى عالم الشهوات واللذات •

واهم هذه اليوميات يوميات انتونى فى « ضرير فى غزة » وأول ما نقرأ فيها :

« كلمات سبع تلخص لنا كل ترجمة ذاتيه • « انى أرى الافضل واستصوبه ،

ولكنى اتبع الأردأ • » ومثل أترابى فى الانسانية ، اعرف ما يجب على ان أفعله ولكنى استمر فى عمل ما يجب على ان اتجنبه » •

وآخر ما كتب فيها هو تسجيله لتجربة صوفية مر بهـا وانتهى على اثرها ذلك الشعور الكئيب بعجز الانسان عن اكمال شخصيته وانقاذها من براثن الازدواج •

وبعد « ضرير فى غزة » نجد ان تأملات سباستيان فى « لابد للزمن من وقفة » يميزها الطابع الصوفى والغموض والخاتمة ، كما يقول هكسلى ، هى مقتطفـات من يوميات بطل القصة يصحبها تعليق عنها • والحقيقة هى ان هذه التأملات نشرت قبل ظهور القصة كمقالات متفرقة فى اعداد مختلفة من مجلة (فلسـفة الفيدا والعالم الغربى) وهى مجلة صوفية يغلب عليها الطابع الهندى وتصدرها (جمعية الفيدا) فى جنوب كاليفورنيا وكان هكسلى احد اعضاء هيئة تحريرها •

وابرز ما فى هذه اليوميات ، رغم نجاح هكسلى فى الحبكة القصصية وفى دراسة المشكلة الفلسفية والنقدية والاجتماعية ، فشـله فى حل مشـكلته الخاصه ، تلك المشكلة التى ألقت ظلالا من الكآبة على قسمات وجوه أبطاله وكشفت عن أفكاره الذاتية التى ضمنها مذكرات ابطاله والتى تبدو أقرب ما يكون الى ما يسمى بأدب الاعترافات • والغريب ان معظمها لايحمل اسـماء او تواريخ او وقائع ولا تتضمن الا سلسلة من الملاحظات العابرة والتأملات فضلا عن بعض الحكم وابيات من الشعر ، غالبـا من شكسبير ، وتعليق مستفيض عليها • ونلاحظ ان المذكرات مكتوبة بطريقة لا أثر فيها للترابط أو التنسيق أو الترتيب الزمنى ، فقد جاءت له فى شكل شذرات متنـافرة تبدو ــ لأول وهلة ــ كأنه ليس هناك خيط واحد يربطها أو يؤلف بينها • ومعظم الجمل مبتورة توحى بأن كاتبها لايريد ان يظهر الحقيقة كلها ، أو ربما لانها تعبر عن تجربة صوفية لايمكن الافصاح عنها تماما ، ففيها يكثر التلميح والاشارة والرمز • واذا كان اسلوب قصصه سهلا ميسورا فلابد لنا من وقفة عند بعض عبارات مذكرات ابطاله فهى تخضع للعديد من التفسيرات والتأويلات شأنها فى ذلك شأن كتابات المتصوفين • ففى (تلك الاوراق الذابلة) يقول شيليفر فى مذكراته عن خطاب ارسله لسيدة : (لقد كانت رسالة متوجهة الى الله وليس الى سيدة ، خطاب شرح واعتذار موجه للعالم •) وفى (ضرير فى غزة) يكتب انتونى •

« هذه اليوميات خطوة اولى • معرفة النفس خطوة ضرورية مبدأية لتغيير النفس• ان ما يقلقنى هو اللامبالاة • فأنا لا اعبأ بالناس • أو بالاحرى • لا اريدهم • فاننى اتجنب بحرص كل المناسبات التى تجعلنى اهتم بهم • جزء ضرورى من العلاج ان تقبل كل المناسبات المزعجة ما استطعت ، ان تتخلى عن طريقك لتخلقها • »

وتزخر اليوميات بالعديد من زوايا شخصيته وباللمسات والاشارات التى يمكن ان ترشدنا الى جوانب مجهولة او تقودنا الى ممر ننفذ منه الى فهم حقيقته التى استطاع ان يصل اليها بعد جهد شاق • ولا يقتصر اهتمامنا بقصصه لاحتوائها على هـــذه الاشتات من شخصيته بل يتعداها الى كتب رحلاته ، فكتابه « بيلاط المازح » له عنوان آخر هو « مدونة رحلة » ويصف كتابه « على الطريق » بانه « مذكرات ومقالات سائح »

وكتابه (فيما وراء خليج المكسيك) على أنه (يوميات رحالة) • وسنعالج كتب رحلاته على أنها وسيلة للهروب من الواقع أو محاولة للسعى المتواصل وراء هدف •

٣ ـ السفر والهروب

« واذا كانت الحال هكذا ، فما السبيل ؟ يجب على كل شخص عاقل ان يحاول بقدر ما استطاع ان يهرب ••• ولكن الى اين ؟ الى الفكر المجرد والحياة الذاتية ، أو (وهذا هو القرار الذى وصل اليه فيلسوفنا فى اواخر حياته) الى التأمل بحب صادق فى الذات العلية • »

مباحثات ومتنوعات ١٩٥٠

هذا هو ما كتبه الدوس هكسلى فى عام ١٩٥٠ فى معرض دراسته عن الفيلسوف الفرنسى (مين دى بيران) ١٧٦٦ ـ ١٨٢٤ الذى اعتنق فى بدء حياته الفلسفية المذهب الحسى ثم نبذه الى المذهب العقلى وأخيرا ترك المذهبين واتجه للتصوف ، ويخيل الينا ان هكسلى كان يكتب عن نفسه او يلخص لنا تطوره الروحى • فقد طوف هكسلى بأرجاء عديدة من العالم كما بحثداخل نفسه ذاتها وعاد من طوافه فى العالمين شخصا مختلفا تماما عن الرحالة الخجول الذى قابلناه فى أول كتاب رحلات له وفى هذه الفترة **اتخذ هكسلى لنفسه أقنعة عديدة وانتحل شخصيات** كثيرة متلونة **متقلبة يمكن حصرها على التوالى فى شخصية** ((المتسائل الحائر)) ثم (**عابد ملذات الحيـاة**) **ثم طالب الخلاص) وأخيرا شخصية** (**المتصوف** •)

ولدينا فى كتب رحلاته تسجيل متصل لما اعترى شخصيته من تغير وتطور ، فلقد كان السفر عنده بمثابة سعى متواصل للوصول الى شىء لايدرى كنهه ، فعاش فى اوروبا وخاصة فى فرنسا وايطاليا فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ وقام فى هـذه الفترة بزيارات لهولاندا وبلجيكا وضمن حصيلة تجاربه فى كتـــابه (على الطريق) ١٢٥ ، وزار الهند مع زوجته فيما بين عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ونجد مدونة هذه الرحلة فى كتابه « ببلاط المازح » ١٩٢٦ •

وفى عام ١٩٣٤ سافر الى امريكا الوسطى والولايات المتحدة ونشر كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ • ثم قام برحلة الى البرازيل فى عام ١٩٥٨ وهو « يعمل الآن فى قصة شبيهة بقصته « عالم جديد شجاع » وفيها يبين كيف يحاول راجا هندى مع رئيس وزراء من الغرب ان يبنى مجتمعا انسانيا على جزيرة وهمية بين سـيلان وسومطره • » وكان هذا الكتاب هو آخر قصة له واطلق عليها « الطبيعة » وظهر عام ١٩٦٢ •

والرحلة بالنسبة لهكسلى رمز للشخص القلق الضجر ، وليس السفر رذيلة جسدية كما يدعى بل رذيلة ذهنية ويعلل كثرة ســفره وترحاله بقوله « **نحن نقرأ** ونسافر كثيرا لا لنوسع مداركنا ونغذى عقولنا ، ولكن لكى ننساها بسهولة • فنحن **نحب القراءة والسفر لانهما من أجمل ما يعوضنا عن التفكير** • » ونتســاءل : عن

التفكير فى أى شىء ؟ عن التفكير فى الضجر والعزلة والكآبة • فكتابه « على الطريق » سجل لرحالة وباحث فى وقت واحد • ويظهر فى هذا الكتاب ميله الى طلب العلم والمعرفة والحقيقة • ولكنه لم يجد ما كان يبحث عنه فى اوروبا فاتجه الى الشرق بروحانياته ، اتجه الى الهند وبورما والملايو ثم الى اليابان وامريكا فى كتابه « بيلاط المازح » • وفى الشرق لم يجد الا اجابة سطحية عن سؤال بيلاط « ماهى الحقيقة » ، لأن الحقيقة التى وصل اليها لم تكن كافية • فالروحانيات سائدة فى الشرق ويقول هكسلى « لو كنت مليونيرا هنديا لتركت ثروتى لتمويل بعثة لنشر الالحاد • » والفلسفة الهندية التى تقول ان هذا العالم وهم وأن مهمة الانسان فى الحياة هى الافلات من عجلة تناسخ الارواح والتجسيد ليصل الى النيرفانا أو الفناء ، وان الروح هى كل شىء وان اسمى القيم هى القيم الروحية لم تستول على تفكيره فى ذلك الوقت• اما بالنسبة لمادية الغرب والانحلال الخلقى والاجتماعى فيه ، فهذه الفلسفة هى الاخرى لم ترق له • وهكذا يرجع من طوافه بالشرق اكثر تعاسة ويلخص انطباعاته فيما يلى :

اولا ـ لقد اكتسبت اعتقادين هامين جديدين : لابد للعالم من ان يحتوى على عديد من الأنواع ، وان القيم الروحية المتفق عليها صحيحة ويجب التمسك بها •

ثانيا ـ اذا كان السفر يكسبنا اعتقادا بالتنوع فهو يكسبنا اعتقادا قويا مماثلا بوحدة البشرية • فهناك تنوع لانهاية له فى الأديان وفى القوانين الخلقية ، ولكل منها الحق فى ان يمضى فى طريقه • ولكن الاساس فى التنوع واحد •

ثالثا ـ ان الناس ، مهما اختلفت معتقداتهم أو عاداتهم أو طرق حياتهم ، لديهم احساس بالقيم • والقيم بشكل عام واحدة فى كل مكان وفى كل انواع المجتمعات لأن شعورنا بها بديهى •

وفى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » تبدأ افكاره فى التبلور والنضوج وتتخذ لنفسها طريقا خاصا يختلف اختلافا كبيرا عما الفناه من الساخر الضجر •

ومعظم آرائه فى قصته « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ مستوحاة من تجاربه فى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك • »

والسفر أو الطواف قد يعنى الهروب أو الفرار • اليس الأدب والتخيل والشعر نوعا من الهروب ؟ ، هروب من المتغير الى الازلى ، من الزمان الى اللازمان ، من المكان الى اللامكان ، من عالم الواقع الى عالم المثل ، من التعدد الى الوحدة ، من الفوضى الى النظام ومن المحدود الىاللا محدود • والسؤال الذى يلح علينا دائما هو : مم نهرب والى اين المفر ؟ وهنا يقدم لنا هكسلى فى اعماله مجتمعة صورة دقيقة للتطور الذى طرأ على افكاره • ففىبادىء الامر قد يجد الضجر الذى يقاسى من الاحباط حريته وجميل ان يكون الانسان حرا طليقا • ولكن هكسلى يقول « ولكنى اعترف اننى احيانا أتحسر لاننى لم اقيد نفسى بالسلاسل ولكن الانسان لايستطيع ان يكون نقيضين فى وقت واحد • » ولهذا يقول بريان لأنتونى (هكسلى) فى « ضرير فى غزة) : « اذا اردت ان تكون سجينا • فهذا هو شرط من شروط الحرية ـ الحرية الحقيقية • »

ويعبر هكسلى عن الهروب بطرق مختلفة فى قصائده الاولى ، اما كالسمكة فى اعماق البحار فى عالم مظلم غريب ، أو كراهب فى مكان ناء أو الهروب الى داخل النفس عن طريق الاستيطان والانطواء او الى أعلى عن طريق التسامى • ولكن واحسرتاه فالنفس راغبة ولكن الجسد ضعيف •

فالسفر والهروب صنوان ، السفر هروب من المكان والفرار عن طريق الفكر هروب من الزمان والهروب فى كلتا الحالتين هروب من النفس ذاتها واينما يسافر الانسان فانه يستصحب نفسه معه واذا تمكن من نسيانها لفترات قصيرة فهو يصحو ليجدها • ويعبر هكسلى عن الهروب من المكان فى كتب رحلاته ، وعن الهروب من الزما فى مذكرات ويوميات ابطاله فى قصصه • وتعطيه مذكرات السائح الشعور بالحركة والتنقل والعمل وتعينه يوميات أبطاله على نسيان التفكير فيما حوله وعلى التعبير عما يجيش فى صدره من انفعالات وما يدور فى عقله من أفكار وهى بمثابة صمام الامن لنفسه الحزينة الثائرة •وهنا نسأل : هل كان هكسلى يكتب عن نفسه عندما قال لورنس :

« لقد كان احساس لورنس بالعزلة هو الذى دفعه للتجول حول الارض • وكانت رحلاته هروبا وتنقيبا فى آن واحد :

« كان يبحث عن مجتمع يستطيع ان ينتمى اليه ، عن عالم لايكون الزمان ولا تكون فيه المعرفة الواعية قد أفسدت الحياة ، تنقيب وفى الوقت ذاته ، هروب من الشقاء والشرور فى المجتمع الذى ولد فيه ، ذلك المجتمع الذى كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم احساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه • ولكن بحثه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته • وفى حالة من اليأس القى بنفسه فى أعماق اللغز المحيط به ، الى الليل الاسود لتلك الغريبة التى تعتبر التجربة الجنسية جوهرها ورمزها •ولقد أدى انعزال لورنس للنفس الى طلبه العزلة جسديا عن البشرية • ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل فى أفكاره » •

يبدو وكانها حالة واحدة مع فارق بسيط • فلقد القى لورنس بنفسه فى ظلام التجربة الجنسية ليصل الى غايته والقى هكسلى بنفسه فى احضان التجربة الصوفية التى جوهرها الشعور بوحدة الكون • كان لورنس يبحث عن آلهة الظلام الى ما دون المستوى الانسانى ، الى الغريزة ، وكان هكسلى يبحث عن آلهة النور الى ما فوق المستوى الانسانى ، الى الروح عن طريق الحدس • فطريق الاول ارتداد الى الحياة الغرزية ، وطريق الثانى تسامى الى الاكتمال الروحى • وقد اشار هكسلى الى هذه الرحلة الشاقة مبكرا فى كتابه « دراسات قيمة » عام ١٩٢٧ :

« ان مثلنا الأعلى يقع على مماس دائرة • ويحاول الانسان جاهدا ان يصل اليه ولكن قوة الجذب فى العالم الذى نعيش فيه تحول دون ذلك • ومن المستحيل على الانسان ان يتحرك فى تجاه هذا المماس ليصل الى غايته المنشودة • والمحصلة الناتجة من رغبته الدافعة المماسية والقوى التى تؤثر عليه ترسم لنا الطريق الحقيقى لحياته الزمنية • »

ويتضح التشبيه اذا فرضنا ان الكرة الارضية تسير في خط مستقيم في الفضاء اذا تركت حرة الارادة • ولكنها توجد بجوار الشمس ولهذا تتخذ لنفسها مدارا بيضاويا • فاذا ما فقدت الشمس فجأة قوة جاذبيتها فستنطلق الارض في الفضاء في خط مستقيم مماس للمنحنى الذي كانت تسير فيه وهي تحت تأثير جاذبية الشمس • وليست الارض جسما عاقلا والا لاستطعنا ان نقول انها تحاول ان تسير في خط مستقيم ، وطريقها الحالي هو المحصلة الناتجة من رغبتها المماسية وقوة جذب الشمس لها • ويقصد هكسلي أن الانسان يريد دائما ان يتسامى وان تشف روحه ولكنها مقيدة بحبل سرى الى الجسد الذي يجذبها اليه فالنفس راغبة ووثابة ولكن الجسد ضعيف • فالهروب اذن بمعناه الروحي هروب من الجسد وهو غرزي في الانسان وفي الترحال والسفر استطاع هكسلي ان يجد نفسه ويتنساها • ونقرأ في قصته « تلك الاوراق الذابلة » من مذكرات شيليفر :

« الهروب من المكان •• ليس هروبا بمعنى الكلمة والهروب من الزمان ليس كافيا • والهروب الى الخيال المحض لا يمنع الواقع من الاستمرار ، فما هو الا تجاهل للواقع • واخيرا فهناك هؤلاء الناس ، وهم اشجع من الهاربين ، الذين يلقون بأنفسهم في خضم الحياة الواقعية المعاصرة حولهم ، وعزاؤهم أنهم يجدون وسط قذارتها وغبائها وبشاعتها ، دلائل على وجود العطف والاحسان والشفقة وما شابه ذلك » •

وهكذا وبعد تفكير عميق وسعى متواصل استطاع هكسلي ان يعود الى الواقع الذي كان يهرب منه ، الى الواقع ذاته وتمكن من الهروب من المتاهة النفسية التى يمكن ان تضل النفس فيها طريقها • لقد تحقق من ان « المطلوب حقيقة ، ليس هروبا جسديا او انطوائية بعيدة عن الواقع ، بل القدرة على القيام بنشاط ضروري بروح طيبة دون ارتباط ، بروح تتجلى فيها فناء الذات » • واصبح الاكتمال والاستنارة لايأتيان الا عن طريق ترويض النفس ذاتها وهذه تجربة لابد لكل انسان من ممارستها بنفسه • « فالاستنارة » كما يقول « لا تأتى الا للذين تعلموا كيفية تقبل الواقع والعمل على تغيير شكله » والكاتب الذى يكتب مثل هذا الكلام فى نهاية رحلة شاقة قد وجد نفسه وعرفها •

٤ ـ المتسائل الحائر :

وقد احطنا حتى الآن بأطراف من حياة هكسلي وتطوره الذهنى والروحى وسنبدأ باستعراض اعماله مجتمعة فى ضوء هذه المعلومات عنه • واذا نظرنا الى حياة هكسلي كما تعكسها كتبه لوجدنا ان من اهم اسباب الاحباط فى حياته المبكرة عدم استطاعته الوصول الى ما يصبو اليه • فقد كانت مثله العليا واهدافه على مستوى عال ولم يصل اليها لأنه كان دائما يسخر منها ويتهكم عليها • ولكنها كانت هناك دائما تؤرقه وتلح عليه • وادى هذا الاحباط الى نوع من اليأس دفعه الى تدنيس كل ما هو مقدس والسخرية من كل ما هو متعارف عليه • فهاجم التقاليد والقيم والعلم والدين والعادات واستطاع فى الفترة الاولى من حياته ان يملأ هذا الفراغ الروحى بأشياء

شتى • ويمكن حصر هذا الصراع النفسى فى صراع بين المثل العليا والقيم من جهة والحقائق العلمية من جهة اخرى ، وصراع آخر بين الجسد والروح ، بين القلب والعقل • وظلت المعركة لفترة طويلة لان « المتسائل الحائر » كان يقاسى مما يطلق عليه هكسلى « فقر دم فى الارادة » وكانت اسباب هذا الاحباط كثيرة منها الفلسفات المتعارضة سواء فى العلم أو فى الاخلاق أو فى الدين ، ثانيا ، نزعته الانطوائية ، ثالثا ، الصدام بين النزعة الانطوائية وبين النزعات الفردية الانبساطية الاخرى فى مجتمعه ، رابعا ، ضعف بصره وامكانياته الجسمانية واخيرا نظرته الثنائية لما حوله لنفسه • وباختصار يمكن القول بأنه كان هناك صراع بين ما كان يدركه بعقله الواعى وبين ما كان يحس به بعمق فى قرارة نفسه •

وكانت نظرته الاولى للعالم من حوله نظرة متشعبة متعددة لأنه كان يشعر بالتعدد والازدواج فقد نشأ فى عائلة برز افرادها فى الحقلين الادبى والعلمى ويقول :

« فعندما ننشأ منذ الطفولة ونشب على أن نفكر بطريقة مادية في مجموعة من الظواهر وبطريقة مثالية أو حتى صوفية في البعض الآخر ، نجد انفسنا ، وبطريقة طبيعية ، نختار اتجاها ذهنيا معينا فى بعض الاحيان واتجاها آخر مخالفا ان لم يكن عكس الأول احيانا اخرى • فالتذبذب يكاد يفرض علينا فرضا • ولهذا نجد انفسنا نحيا حياتنا الذهنية بدون استقرار » • وكانت مشكلة الازدواج هذه من اهم المشاكل التى اعترضت حياته فى بادىء الامر • ويظهر الازدواج فى اول قصة قصيرة له وكانت طريقته فى النظر الى الاشياء والتجارب من زوايا مختلفة هى التى اعطته ذلك السلاح الرهيب الذى يستطيع به ان يتهكم ويسخر من العالم حوله • فقد كانت طريقة (المتسائل الحائر) هى تحيير العامة • « ضع مثلا علم وظائف الاعضاء بجوار التصوف (لقد كانت لحظات التجلى عند مدام « جيون » تأتى اليها بشكل واضح وبكثرة فى الشهر الرابع من الحمل) ، ضع مثلا علم الاصوات بجوار موسيقى باخ (دعونى اشير الى طريقتى فى قصتى (تقابل الألحان) عندما اشرت الى وصف الموسيقى من الناحية العلمية والجمالية) ، ضع الكيمياء بجوار الروح (فغددنا الصماء تفرز مزاجنا وطموحنا وفلسفتنا فى الحياة) وهذه القائمة التى تحوى المتناقضات يمكن اطالتها الى مالا نهاية • »

ولقد كان (المتسائل الحائر) مغرما بدراسة الظواهر المختلفة المتقاربة فى وقت واحد ، ولكن اذا نظرنا الى الحقيقة بهذه فستبدو شاذة للغاية وهذا هو ما أراده المتسائل الحائر للحقيقة ان تبدو • ونقرأ فى « تقابل الالحان » ١٩٢٨ من مذكرات فيليب كوارلز :

« تأمل موسيقى بيتهوفن • التغيرات فى الامزجة والانتقالات المفاجئة ••• (وقار يتبعه مزاح ••• وكوميديا تشير فجأة الى المآسى فى حركة « الاسكروز ») وأكثر ما يثير الاهتمام هو التغير فى اللحن ، وليس هذا من نغم الى نغم ، بل من مزاج الى مزاج • فتقدم لنا فكرة ، ثم تتطور وتغير شكلها وتشوه حتى تصبح مختلفة عن الفكرة الاولى ولو أنها لاتزال كما هى الى حد ما ••• ضع هذا فى قصة • اكيف ؟

الانتقالات الفجائية سهلة للغاية . كل ما تتطلبه هو عدد كاف من الشخوص بحبكات متوازية تقابل الواحدة الأخرى . فبينما يقتل « جونز » زوجته نرى « سميث » يدفع بعربة الاطفال فى الحديقة ، حاول ان تتعاقب الأفكار . هذا يثير الاهتمام ، ولكن الألحان والتغيرات أصعب . فالقصاص يلحن عن طريق ازدواج المواقف والشخوص وخلطها . فهو يعطينا صور شخوص عديدة تقع فى الغرام ، أو تموت ، أو تصل ، بطرق مختلفة - شخوص متشابهة تحل نفس المشكلة . أو بالعكس ، شخوص متشابهة تجابه مواقف مختلفة . وبهذه الطريقة يمكنك أن تلحن عن طريق الأوجه المختلفة لفكرتك ، وتكتب عن التغيرات لاى عدد من الامزجة . وطريقة أخرى : يستطيع القصاص أن ينظر الى الاشياء بعين الازل وينتقى ببساطة حوادث قصته فى أطوارها المختلفة - العاطفية ، العلمية ، الاقتصادية ، الدينية ، الميتافيزيقية ، الخ وينتقل من واحدة لأخرى - من الناحية الجمالية للأشياء مثلا الى الناحية الفيزيوكيميائية . من الناحية الدينية الى الناحية الفسيولوجية أو المالية . ولكن ربما كان فى هذا نوعا من السيطرة الاستبدادية لقدرة الكاتب . »

وقد فرض هكسلى على أعماله فى تلك الفترة ما اسماه « الفوضى المنظمة » أو « البعثرة المنهجية » وبهذا كان يذكى نار الانفصال والازدواج والحيرة فى نفسه . فاذا ما تحللت الشخوص والحوادث هكذا الى عناصرها الذرية والأولية فانها تخبوا من الوجود كشخوص آدمية متكاملة وتصبح سلسلة من الحالات المتنافرة . ويقول هكسلى : « ان مؤلفك العظيم يتسلط عليه شيطان لا يستطيع الفنان السيطرة عليه . واذا أراد الشيطان أن يظهر فسيظهر مهما كان احتجاج عقلك الواعى الارستقراطى الذى يسكن معه ... انى أكتب ما أعرف أنه عبث . »

ويظهر عدم ايمانه بهذه الطريقة التى أطلق عليها « المجهرية » فى قصته « تلك الاوراق الذابلة » عندما يستعرض شيليغر يده من زوايا مختلفة وينتهى به الأمر الى أن يقول « فربما كل شىء يتوقف فى النهاية على العقل ، على الروح . أما الباقى فبمجرد وهم أو خيال ، صور خادعة » . وظل هكسلى ، بالرغم من احتجاج عقله الواعى ، يعيش فى حالة من « المعايشة العدائية » . واعتقد أن أحسن ما يلخص لنا هذا الازدواج فى شخصيته فقرة من احدى رسائل د. هـ. لورنس يقول فيها : « ان لكل انسان أكثر من ذات واحدة وان « الدوس » الذى يكتب هذه القصص ما هو الا « الدوس » واحد صغير بين آخرين ، أطيب منه ، لا يكتبون القصص » وربما كان الازدواج فى شخصية هكسلى محاولة من جانب الأديب للتعرف على ذاته الأصلية ، محاولة للتوفيق بين دكتور جيكل ومستر هايد ، محاولة للوصول الى التكامل . وقد حاول هكسلى كثيرا أن يتغلب على هذا الصراع النفسى بعزل نفسه عن مجتمعه ولكنه فشل وحاول مرة ثانية أن ينغمس فى حياة معاصريه ويلقى بنفسه فى ملذات الواقع ولكن نزعته الانطوائية تغلبت على هذا الشعور . واخيرا اتجه الى التهكم والسخرية فالهجوم فى علم النفس نتيجة للاحباط وأعلى مراتب هذا الهجوم الانتحار وهو هجوم موجه الى الذات نفسها . ولكن هكسلى لم يصل الى هذه المرحلة التى وصلت اليها فرجينيا وولف ، مثلا لأنه يقول : « انك لا تستطيع أن تكون شيطانا الا اذا كنت

فى قرارة نفسك تؤمن بالله » • ولنسأل : أمن الضرورى أن يمر كل كاتب أو أديب بهذه المرحلة الشاقة من التذبذب ، الا تأتى الحياة الفاضلة المتكاملة الا بعد هذا الصراع العصيب بين الأنا واللاأنا ويقول دفيد داتشيس : انها نفس المشكلة القديمة التى واجهت الشاعر « ميلتون » فى الفردوس المفقود » فالحياة قبل الخطيئة الأولى فى جنه عدن لا تلائم الا نوعا سلبيا من الفضـــيلة ، وكان « ميلتون » لا يهتم حقيقة بهذه الحياة • فبعد الخطيئة فقط ، وفى الصراع الذى بعد السقوط لمحاولة تضييق الفجوة بين الواقع والأمثل توجد حياة الفضيلة الحقه ولو أنها غير سهلة • ولهذا فالخطيئة كانت شيئا حسنا • »

والاحباط سيكولوجيا يعنى « حالة تعاق فيها الدوافع المتجهة نحو هدف أو تمنع قبل اتمامها أو اشباعها •»وأول احباط صـــادف هكسلى فى حياته كان عندما ترك دراسة الطب ليدرس الأدب • ويظهر هذا الاحباط مع كل أبطال قصصه • فيموت « ديك » بطل قصته القصـــيرة الأولى قبل أن يحقق حلما راوده وهو الخروج بنظام فلسفى جامع شامل ، و « دينيس » فى « كروم يلو » ١٩٢١ لايحقق شـــيئا ويفكر مرتين فى الانتحار كما يقتل القزم نفسه ، « وجمبريل » فى « آنتيك هاى » ١٩٢٣ يعتزل مهنة التدريس ويشغل نفسه لفترة باختراع سراويل لها مقعد من المطاط لتساعد من هم نحيلى الجسم مثله فى الجلوس على المقاعد الخشبية الصلبة وأخيرا يفشل فى مشروعاته ويرحل عن انجلترا • وأبوه كذلك لم يوفق فى تصميمه الجديد لمدينة لندن ويظل التصميم دون تنفيذ على مكتبه ، أما محاولات الفنان « ليبيات » فى الرسم وكتابة الشـــعر فقد أخفقت جميعها وتراه آخر مرة يفكر فى الانتحار • ولم يتحقق زواج مسز « فينيتش » من « تونى » وتوفى قبل الحدث السعيد ، كما يموت الانسان المشوه فى مستشفى للمجانين قبل أن تصـــل أطراف أصابعه للنجوم • وفى « تلك الاوراق الذابلة » ١٩٢٥ أطلق هكسلى على الفصل الثالث « غراميات لاتتلاقى » ولهذا لا يتزوج لورد « هوفندون » من « آيرين » ، وتموت خطيبة « كاروان » البلهاء قبل الزفاف • وفى « تقابل الالحان »١٩٢٨ يقتل « ايفيرارد ويبلى » وهو الشخص النشيط الوحيد فى القصـــة وكانت زوجة « فيليب كوارلز » قد وقعت فى غرامه ، ويظل زوجها طوال القصة يتذبذب بين حياته الذهنية وحياة اللذة والواقع التى ينادى بها « رامبيون » ويمثل د•هـ• لورنس •

وفى علم النفس أن الاحباط يظهر فى صورة هوة فاصلة بين الارادة والوعى من ناحية وبين القدرة على توفير مطالبها من ناحية أخرى • وكان هكسلى يعانى فى الفترة الاولى من ناحية حياته صراعا عصيبا نتيجة لقيام هذه الهوة التى جعلت تزداد عمقا واتساعا • ففى قصائده الاولى يظهر هذا الصراع فى بدء حياته فى صورة جدال بين الأنا والهى • ولم تكن فلسفته فى الفترة الاولى الا فلسفة للتبرير كما يقول • وعندما تقدم به السن وازدادت تجاربه أدرك انه من الضرورى ترويض الارادة والتحرر من الرغبات لا عن طريق مقاومتها والتهكم عليها كما فى حكاية « العنب الحصرم » بل عن طريق الابقاء عليها كمصادر للطاقة التى تدفعنا الى مداومة البحث عن طرق أخرى للوصول الى الأهداف دون التنازل عنها وطريقة « العنب الحصرم » جزء مما يطلق عليه

فى علم النفس الميكانيزمات الدفاعية العدائية والسلبية ـ الهجوم والتهكم أو الانعزالية والعنب الحصرم » ٠ ويؤثر أبطال قصصه الأولى العزلة والسخرية على الهجوم ٠ ففى « كورم يلو » لا يستطيع « دينيس » أن ينافس « أيفور » أ « جامبولد » ، وفى « أنتيك هاى » ظل « جمبريل » ضعيفا أمام « رامبيون » و « ميركابتان » وفى « تقابل الالحان » لم يستطع « فيليب كوارلز » أن يقلد رامبيون أو ايفرارد أو سباندريل ٠ ولكن هكسلى لم يكن سعيدا حتى فى عزلته وانطوائه ويقول : « يشعر الانطوائى بوجود العالم الخارجى رغم انه يعلم عنه شيئا ٠ واذا كان لا يعرف شيئا عن أقرانه وعن النظام الاجتماعى ، فهو رغم هذا يشعر بوجودهم باستمرار ، ويشعر بقلق لانه يعتبرهم دخلاء معادين ٠ ولهذا ينتابه شعور بالنقص ، بالعزلة ، ويشعر انه ولد بوجه مختلف » ٠ وكثيرا ما نجد أبطال قصصه الاولى مشغولين بهذا الوجه المختلف ، فيردد « دينيس » نفس السؤال ، ويضع « جمبريل » لحية مستعارة على وجهه ليغير من شكله أما انتونى فى « ضرير فى غزه » فكان زملاؤه يطلقون عليه « بيفيس صاحب وجه الطفل » ٠

وهكذا يظهر الاحباط والازدواج فى حياته المبكرة وقد ابرزنا بعض الظروف العائلية التى أحاطت بنشأته ، وهى ظروف تساعد على الازدواج فى التفكير ويتجلى فيها الصراع بين العلم والدين ، وبين العقل والقلب ، وبين الأنا والهى ٠ ولا شك أن هذا الصراع قد خلف عنده شعورا عميقا بخيبة الأمل واعده أخيرا خير اعداد لقبول فكرة التحرر والخلاص والدعوة لحياة الروح والتصوف فى كثير من الحماس فى كتبه الأخيرة ٠ فقد صادفت هذه الاضطرابات العاطفية والتشاؤم والسأم والضجر بالحياة وبالنفس تربة نفسية ذات استعداد خاص وكانت النتيجة ذلك التحول العظيم من الفلسفة الساخرة التشاؤمية الى الفلسفة الصوفية التفاؤلية ٠ وفترة الاحباط كانت شرا لا بد منه لتنقية النفس وتصفيتها وتطورها وكما يقول الشاعر و٠ هـ٠ أودن فى قصيدته « عصر القلق » :

ان عقولنا تصر على

اضطراب نظامها كعقاب لها ٠

فان كان الاحباط والانطوائية قد ابعدا هكسلى عن الحياة والعالم فى بادىء الأمر الا أنها ، بطريق غير مباشر ، قد عملا على اعادته الى العالم الرحب العريض ، الى الآفاق الواسعة ، الى الطريق الذى أبعداه عنه وتمكن قبل فوات الأوان من أن يعود الى توثيق الصلة بينه وبين الوجود عامة ٠ ونرجو أن نناقش فى الجزء التالى من هذه الدراسة أثر د٠ هـ٠ لورنس فى فلسفة هكسلى فى الفترة ما بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٤ ثم تصوفه فى الفترة الأخيرة ٠

حبات من الزمرد

بقلم: محمود البدوى

فندق « الباب الذهبى » فى «كاولون» دلنى عليه صديقى تشن ـ وتشن شاب صينى مهذب التقيت به عرضا فى القطار القادم من « لوو » وانا راجع من الصين الشعبية ولما علم اننى مصرى وحيد فى بلاد الصين تطوع ان يكون دليلى بشهامة عديمة النظير ٠

وقد اختار لى هذا الفندق لقربه من المطار ولأنه يقع فى شارع جانبى بعيد عن ضجيج المواصلات فى المدينة الصاخبة ٠

وقضيت اربعة ايام فى الفندق وانا اشعر براحة المسافر الذى يعيش فى الفردوس ٠

وفى اليوم الخامس هبط علينا نفر من جنود الطيران الامريكيين ٠٠٠ وكانوا قادمين من مانيلا ٠٠ فحولوا الفندق بصخبهم الى جحيم ٠٠ فاضطررت ان اجمع حاجاتى لأرحل ٠ وفيما انا اخرج قمصانى من درج « الشوفنير » عثرت على حبات من الزمرد الخالص وكانت متوسطة الحجم ٠٠

ومن أندر انواعه على الاطلاق ٠٠

وبهرنى جمالها ودقة صنعها ٠٠

وأول شىء خطر على بالى فى الحال أن اسلمها لادارة الفندق لتتصرف فيها كما يحلو لها ولكن عدلت عن هذه الفكرة بعد ان تبينت من الفتيات العاملات فى هذا الجناح ان غرفتى كانت مؤجرة لشاب يدعى « كارتر » يعمل ملحقا ثقافيا فى قنصلية اجنبية وقضى فى الغرفة عامين كاملين وتركها لانه نقل من هونج كونج ولم يشغلها بعده انسان سواى ٠

وابقيت الحبات معى ٠٠ وانا ادير الامر على كل الوجوه لاجد طريقة للاستدلال على صاحبتها ٠٠ ثم دار فى خلدى أخيرا على اقرب الاحتمالات الى الرجحان ان الحبات تخص سيدة قضت ليلة غرام مع هذا النزيل ثم نسيتها وذهبت ٠٠ ومنعها الخجل أو خشية الفضيحة ان تعود فتسأل عنها ٠

***

وانتقلت الى فندق « الميرامار » وهو قريب من البوغاز ٠٠ وحبات الزمرد معى وكنت أضعها فى جيبى حيثما ذهبت خشية أن تسرق لو تركت فى حجرتى بالفندق ٠

***

وذات ليلة وأنا اتعشى فى مطعم « البحار السبعة » بشارع «كوين رود» فى هونج كونج جذبنى بهدوئه وقلة

رواده .. رأيت سيدة اجنبية تتناول العشاء على مائدة مفردة . وكانت تزين جيدها بعقد من الزمرد شبيه تماما في حجم حباته ولونه وبريقه بالحبات التي وجدتها ..

وكان المكان هادئا وتنبعث من زاوية فيه موسيقى صينية خفيفة .. مما جعلني اعلق نظري بالسيدة وكانت أجمل من في المطعم .. وكان جمالها ووداعتها وكونها وحيدة .. يشجعني على محادثتها .. ولكن السبيل الى التعارف كان شاقا وعلى الأخص انه لم تتح لى اية فرصة لبلوغ قصدى ... فبارحت المطعم دون ان ابادلها كلمة واحدة ..

وحدث ان التقيت بهذه السيدة مرة اخرى ضحى يوم من أيام الثلاثاء في بهو الفندق ..

وكانت تتناول مفتاحها من لوحة المفاتيح فعرفت انها تقيم معى في نفس الفندق ونفس الجناح ..

ومنحتنى الظروف فرصة ذهبية لالتقى بها مرة ثالثة .. في مكان انسب للتعارف .. اذ جلسنا معا جنبا الى جنب على الدكة الخشبية في السفينة التي تعبر البوغاز ... وكانت تقرأ جريدة « جنوب الصين » فطيرها الهواء من يدها ... فجريت واعدتها لها فشكرتنى بعذوبة وكانت ذاهبة مثلى الى هونج كونج ..

واخذنا نتحدث بالانجليزية عن جمال المدينة .. وجمال هذه البواخر السريعة التي تنقل الجمهور عبر البوغاز من « كولون » الى « هونج كونج » في رحلة ممتعة تحت اجمل مناظر البر والبحر على الاطلاق .

وقالت لى انها ذاهبة الى بنك الصين .. لتصرف بعض الشيكات السياحية .. فعبرت لها عن سرورى لمرافقتها في هذه الجولة اذ لا غرض لى في الواقع من الذهاب الى هونج كونج اكثر من التجول .

ولم تمكث في البنك اكثر من سبع دقائق .. ثم خرجنا نضرب في شوارع المدينة ..

وكانت تريد أن تبتاع بعض الاشياء من محلات « لين كراوفورد » فدخلنا المحل وتسوقت اشياء كثيرة اشتركنا في حملها معا.. وحدثتنى بانها امريكية كزوجها ..

وسالتنى في رقة :

هل سمعت عن انديانا ؟

فقلت لها :

ــ انها الولاية التى انجبت ابراهام لنكولن .. اعظم رجل في تاريخ امريكا .. بل طرازا نادرا في الرجال ..

ــ هل تعتقد هذا ؟

ــ انها الحقيقة ..

ــ ولكن زوجى لم يتمثل بابراهام انه يصطاد السمك الآن في ابردين ..؟!

ــ هواية ممتعة ..

ــ أو تعتقد هذا ..؟ انها تستغرق حواسه .. تصرفه عن كل كل شيء آخر .. تصور انه لم يشاهد شيئا في هونج كونج بعد .. ولنا هنا قرابة اسبوعين .

واذا كان هذا هو غرضه من السفر

.. فلماذا تحملنا المشقة وقطعنا آلاف الاميال كان يستطيع الصيد فى انديانا .. !

ــ ولكنك على نقيضه .. تتنزهين ولم تضيعى ساعة واحدة دون مشاهدة شىء جديد ..

ــ اجل .. وماذا كنت افعل غير ذلك ..؟

ورأيت فى عينيها الخضراوين بسمة جميلة .. وكانت حبات الزمرد على صدرها .. والحبات الشبيهة بها فى جيبى .. وكنت اود ان أخرج ما فى جيبى لاقارن بين العقدين .. واسرد لها القصة كلها • ولكن استحييت •

ومشينا حتى رصيف البواخر .. ثم ودعتها وعدت قافلا الى المدينة ..

وكنت متشوقا الى ملاقاة زوجها .. فرأيته فى الصباح الباكر .. واقفا بجانبها امام المكتب المعد للاستقبال .. وكان يملى برقية .. وبيده السنارة وعلى كتفه الجراب .. وكان بملابس الصيد الكاملة الصندل والشورت والجاكتة ذات الجيوب المنتفخة •

وكان غير حليق الذقن وترك شعره ينمو على عارضيه بغزارة .. وقدرت سنه فى حدود الأربعين .. وبدا لى متناهيا فى الطيبة .. وهى تقدمه لى برقة .. وصافحنى « شارل » بحرارة وحدثته «جوان» بانى رافقتها الى البنك الصينى .. وسهلت لهذا الأمر فى البنك كما صاحبتها وهى تتسوق بعض حاجاتها .. وحملت لها الأشياء .. حتى الميناء وانحنى لى الرجل بود الفلاح الطيب القلب .. وصافحنا وذهب الى صيده • وشيعت «جوان » زوجها وهى ضاحكة .. وأخذت تحدثنى عن عمله • وانه يملك مزرعة وحظيرة للأبقار .. وانهما فى بحبوحة من العيش ومنذ أربع سنوات وهما يسيحان فى مطلع كل شتاء • الى كل بلاد العالم •

وتركتها بعد ساعة وأنا أفكر فى عرض هذه الحبات على جواهرى فى المدينة لاعرف قيمتها •

ومشيت أتفرس فى واجهات الحوانيت .. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة صباحا والارصفة تموج بالرائحين والغادين .. وحركة المرور على أشدها والجو صحو والشمس طالعة .. ولم تكن هناك أكثر من لفحة برد خفيفة •

واخيرا أخترت متجرا صغيرا فى شارع « دى فو » • واجتزت أكثر من باب لاصل الى داخل المحل .. حيث وقف رجل ربعة يتفحصنى بعينين نفاذتين ..

وحدثته بالانجليزية عن رغبتى وأنا أضع حباب الزمرد أمامه على الطاولة .. فنظر اليها مليا بدون اكتراث وهو يوجه الى نظرة جامدة .. ثم أخرج المجهر وجعل يتفحصها حبة حبة وقال فى انجليزية سليمة ..

ــ انها زمرد خالص ...

ــ وكم حبة تنقصها لتكون عقدا •

ــ خمس حبات فقط ..

ــ وبكم الخمسة •

وحرك اصابعه على آلة فيها بلى .. ثم قال بهدوء :

ـ بمائة دولار ..

ـ دولار هونج كونجى ..؟

ـ نعم ..

ـ أليس هذا كثيرا ..؟

ـ هذا هو سعر السوق ..

ـ لقد انفرط العقد من زوجتى وهى خارجة من السينما .. وضاعت منها الحبات الناقصة .. ارجو ان تقدر هذه الظروف .

ـ اسال عن السعر فى الخارج ... وستعرف كم أكرمتك ..

ـ لا فائدة .. !

ـ آسف هذا آخر سعر ..

ـ واذا بعت لك هذه الحبات فبكم تشتريها ..؟

ـ أشتريها بألفين من الدولارات .

ـ فقط ..

ـ فقط .. ؟

ـ سأشاور زوجتى .. وأعود ..

ـ كما تشاء ..

وخرجت وحدى ومشيت فى شارع ضيق .. وسمعت اقداما خفية تعقبنى .. ثم رأيت شابا يدخل من باب جانبى .. ولم اعره انتباها وخرجت الى الطريق الرئيسى والحبات فى جيبى ..

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد الظهر .. فتغديت وجبة سمك ... وخرجت اتمشى فى المدينة ولمحت على واجهة دار من دور السينما فيلما يعرض لسلفانا بانبائينى .. وكان الفيلم مثيرا فأحببت أن أراه كاملا قبل ان يعمل فيه مقص الرقيب فى أى بلد آخر .

وقطعت تذكرة فى البلكون وكانت السينما قد اشتغلت ويبدو أن العرض مستمر .. وادخلنى العامل واجلسنى فى صف من الصفوف الخلفية ..

فجلست فى الظلام وأنا أحس بالسكون العميق فلا نامة ولا حركة من مخلوق حى ... وبدا لى أن الرواد مشغولون بحلاوة « سيلفانا » ، ومتابعة الفيلم عن أى شىء آخر ..

ولكن تبين لى بعد ان أخذت عيناى على الظلام أننى الجالس الوحيد فى كراسى « البلكون » كلها ... ثم ظهر شبح وحيد .. فى الصف الثالث .. وكان متطرفا الى أقصى اليمين ..

وكانت السينما طويلة طولا لا حد له .. وقليلة الاتساع فى العرض ... فبدت لى فى هذا الظلام الرهيب كالنفق الموحش .. ولولا أن سيلفانا كانت تضحك وتتجرد من ملابسها قطعة قطعة لخرجت مفزوعا من فرط الرعب..

ولكن « سيلفانا » لم تمنعنى من التوتر والاحساس بالخوف.. اذ شعرت بأننى المخلوق الوحيد الذى يتنفس فى المقصورة .. والآخر الجالس هناك شبح .. وليس انسانا وكان وجوده وصمته يزيدنى رعبا ..

وبحركة عفوية اخرجت سيجارة من جيبى وأشعلتها.. وقبل ان التذ بمذاقها رأيت شبحا يقف على رأسى ويقول بصوت فيه غلظة :

ـ التدخين ممنوع ..

ـ آسف لقد كنت ناسيا ... هل استطيع ان أدخنها فى الخارج ..؟

ـ تفضل ..

واضاء لى بنـور البطارية الطريق فى الظلام ‥ ووقفت فى البهو الخارجى ‥ ادخن وافكر فى مبارحة السينما ‥‥ وقد وجدتها فرصة لاهرب ·

واتخذت طريقى الى الخارج فعلا ‥ وشعرت وأنا أهبط السـلالم باقدام تتحرك ورائى ‥

وفى الشارع رأيت وجه الشاب الذى كان يلاحقنى ‥ فى متجر الجواهر ‥ وخارجه ‥ وجعلتنى هـذه المطاردة أحافظ على الحبات بـكل حواسى وأنا أتحرك فى الطريق ·

وفى صباح يوم التقيت « بجوان » ‥ فى احد شوارع « كولون » الجانبية بعيدا عن الميناء ‥‥ وكانت تقف على باب حانوت ولما لمحتنى أسرعت نحوى وقالت بسرعة :

ـ ارجو أن تصحبنى فى جولة قصيرة ‥ اريد ‥ ان اشترى اشيئا ‥ وهم يرفعون السـعر اضعافا مضـاعفة اذا كانت السيدة وحدها ‥

ـ أنا طوع أمرك ‥

ونظرت الى صدرها ‥ فوجدته عاريا ‥ ليس فيه عقد الزمرد ‥

فسألتها بدافع من الفضول .

ـ أراك تركت العقد اليوم الفندق ‥

ـ لا ‥ لقد سرق منى ‥

ـ سرق ‥؟!

ـ أجل ولا أدرى هل نشل منى وأنا أصعد كوبرى البواخر ‥ ام فى الشارع أم فى السينما ‥ ان النشـالين فى هونج كونج ‥ ليس لهم ضريب فى العالم كله ‥

ـ أدركت هذا منذ الاسبوع الاول ولهذا أحـافظ على جيـوبى ‥‥ وهل ستشترين غيره ‥؟

ـ أجـل ‥ الآن ‥‥ والا ظن بى زوجى الظنون ‥ فانه لا يصدق ابدا أنه نشل ‥

واحمر وجههـا ‥ اكثر واكثر ‥ واشفقت عليهـا ‥ وتحسست بيدى مكان حبات الزمرد التى فى جيبى ·

وقلت لها وبى رغبة قوية لان اعطيها هذه الحبات بعد ان استكمل لها الحبـات الخمس الناقصة ·

ـ أعرف متجرا فى هونج كونج ‥ دعك من متاجر « كولون» ‥ وسنذهب اليه غدا فى أى وقت تشائين ‥ ونبتاع لك العقد من هناك ‥ فهـذا أضمن وادعى الى الاطمئنان ·

ـ أو تعرف صاحب المتجر ‥ ؟

ـ أجل ذهبت اليه مرة ·

ـ واسعاره معقولة ؟

ـ الى حد كبير ·

ـ حسن ‥ وكم اشكرك ‥ لانك ستنقذنى من موقف محرج للغاية ·

واشتريت بعض الحاجات ورافقتها الى الفندق ·

وعبرت البـوغاز الى هونج كونج واشتريت الحبات التى تنقص العقد ‥ بحـوالى مائة دولار ‥ ونثر الجواهرى الفصوص كلها ثم كون منها عقدا جميلا

.. فوضعته فى جيبى وفى عزمى ان اعطيه « لجوان » فى الصباح .. كهدية مفاجئة لها .. بدل العقد الذى سرق منها .

واسترحت فى مشرب الى الساعة الخامسة مساء .. ثم احسست بالرغبة فى ان اذهب الى « ابردين » .. فركبت سيارة الى هناك .

ووقفت على الرصيف .. ومئات الزوارق تتهادى فى عرض الماء ..وآلاف منها راسية فى صفوف منتظمة على الساحل .. وعلى البيوت المواجهة يلمع الغسيل الابيض فى ظلام الليل .

وكان العشى قد دخل واضيئت المصابيح الصغيرة فى الزوارق .. والسفن . وبدت الميناء كلها كحبات من النجوم تناثرت على أرض من الزئبق .

ورأيت النساء الصينيات .. يتعلقن .. بالسائحين ليحملوهم على النزول الى زوارقهن .. كل شابة تقبل على نفر منهم وتشير الى زورقها .. وبعد نزول الجميع فى الزوارق .. بصرت بزورق منفرد .. يقف وحده بعيدا وشابة صينية فى مؤخرته .. جلست وحدها .. وكانت لاتغرى أحدا بالركوب فى زورقها .. بأية اشارة أو حركة .. وكان على وجهها تعبير من الصمت والاسى دفعانى لان اتقدم نحو زورقها .

وهبطت فى الزورق دون حتى أن اسألها ان كانت على استعداد لان تبحر بى .

وظلت في مكانها نصف دقيقة وهى لا تحرك ساكنا بعد ان توسطت الزورق .. ثم جذبت الحبل الذى يربط الزورق .. وامسكت بالمجداف .. وبعد أن خرجنا من صف الزوارق .. واصبحنا وحدنا فى عرض الماء .. نظرت اليها والى طول قامتها ورشاقة حركاتها .. وكانت ملساء العود .. طويلة على عكس الصينيات .. وتضع على شعرها الاسود منديلا .. وتلبس جونلة وصديرا ازرق .. وفى قدميها حذاء خفيف يساعدها على الحركة والتنقل من مكان الى مكان .

وعندما بعدنا عن مكان الزوارق والرصيف .. والذهبية التى يتناول فيها السائحون السمك المصطاد حديثا .. وكل ما فى المكان من حركة وصخب

بدا الخليج ساكن الموج وبيوت الفقراء على الساحل فقيرة شاحبة .

وقلت للفتاة :

ـ استريحى .. واتركى المجداف .. فانى أحب ان يتهادى الزورق على سننه .

فتركت المجداف .. وجلست عند الدفة وهى تنظر الى بعيد .. وتأملت وجهها وشعرها وقوامها كله .. فى جسلتها المنثنية .. كانت جميلة تقاطيع الوجه .. وفى عينيها الضمة التى تزيدهما فتنة وفى اسنانها صف من اللؤلؤ .. يلتمع فى ليل لم يطلع فيه قمر .

وكان العشى قد دخل واضيئت اليها من جانب .. ظهر حاجباها الغزيران وخط الهدب .. وشحمة الاذن الصغيرة وقد غطتها سوالف الشعر الاسود .

وسمعتها وأنا اتأملها واتأمل الليل والنجوم تحادث شخصا بالصينية .. فارتجفت اذ كنا فى قلب المساء .. ولم اشاهد شخصا غيرها فى الزورق .

ثم تبينت فتاة صغيرة فى القاع .. خارجة تفرك عينيها وكانت نائمة ثم استيقظت .

وسألتها :

ـ اهذه بنتك ؟

ـ أجل .

ـ واين ابوها ؟

ـ مات منذ ست سنوات .

ـ هنا .

ـ أجل .. هنا فى « ابردين » .. مات ودفن فى الماء .

وخيم الوجوم علينا لحظات .

ثم سألتها :

ـ وانت .. هل تشتغلين بالصيد ؟

ـ اننى اكتفى بنقل السياح .. الى الذهبية !

ـ وتربحين من عملك هذا ؟

ـ بعضهم يعطى كثيرا .. وبعضهم يعطى قليلا .. وانى راضية .

ـ وانت .. هل تعمل هنا فى هونج كونج ؟

ـ انى سائح .

ـ ما هو اسمك ؟

ـ ابراهيم .

ـ وحيد .

ـ نعم .

ـ وليس معك زوجتك .

ـ لم أتزوج بعد .

ـ وهل شاهدت كل الاماكن الجميلة فى هونج كونج « وكولون » ؟

ـ بعضها ..واحب ان اشاهد الباقى .. ولكن ينقصنى الرفيق من المدينة..

ـ ألا تعرف أحدا ؟

ـ أبدا .. هلا رافقتنى ؟

ـ وهـــذه .. أتركها لمن .. اننى لا استطيع ان اترك الماء ساعة واحدة !

ـ يحزننى ذلك .

ونظرت الى ما حولى .. وقلت لها .. وانا اود ان ابعد بالزورق وابعد الى قلب المحيط .

وسألتها :

ـ ما اسمك .

ـ مسز وان .

ـ هل تسمحين لى بأن اجدف ؟

ـ أتعرف ؟

ـ اننى فلاح .. وقريتى على النيل .

وامسكت بالمجداف .

واتجهت بالزورق الى الشمال وهى تواجهنى بنظراتها فى ثبات .. وكانت فتاتها جالسة فى المقدمة صامتة .. ولا أدرى اتعرف الصغيرة الانجليزية أم لا .. لان امها كانت تحادثها بالصينية التى لم اكن افهم منها حرفا .

وبعد ان قطعت مرحلة طـــويلة فى التجديف . القيت بالمجداف ..وجلست بجانبها .. وسألتنى فى عذوبة :

ـ اتعبت ؟

ـ ابدا .. ولكن اود ان اتأمل هـــذا الجمال .

وقلت مستطردا .. وانا شـــاعر بنشوة .

– رأيت فى هذه الرحلة اجمل فتاتين فى العالم اجمع .. واحدة فى «يوهان» والثانية فى « ابردين » .

– فى « ابردين » .. من هى ؟

– انت !

ونكست رأسها واحمر وجهها .

واضفت مستطردا .

– واذا سألتنى .. ايهما الاكثرجمالا والاكثر فتنـــة .. اقول لك التى فى « ابردين » .

فرفعت رأســها وقالت ضــاحكة بعذوبة :

– انا لم اسأل .

– ولكننى اجبت .. على الســؤال على أى حال .

واقتربت منى وقالت برقة .. وهى تميل على بوجهها .

– هل تقول هذا الكلام .. لـــكل فتاة ؟

– لا .. ما قلته لسواك قط .

ومسحت على ذراعى .

– ولكنى ما سمعته قبلك من انسان والتصقت بى .

فقلت هامسا :

– الفتاة تنظر الينا .

– انها عمياء .

وكانى لسعنى سوط .. فابعدتها عنى فى رفق ونكست رأسى وأنا احس بدوامة الحياة .

ولم تستطع .. ان تدرك ما طرأ على مشاعرى من تحول على الفور فصمتت .

ورفعت رأسى .. ورأيت حبـــات الزمرد متناثرة هناك فى هذا المكان.. على الارض .. وفى الماء .. وفى كل رقعة فى العالم ولكن يغطيهــا تراب الفقر .. فلا تراها عين .

وبرق فى ذهنى خاطر بوحى الساعة .. فاقتربت من الفتاة الصغيرة ومسحت على شعرها .. واخرجت حبات الزمرد من جيبى ووضعتها فى حجرها .

وكانت امها تنظر الى فى ذهول .. والزورق يتهادى .. ولا احد يحركه.. وحبات الزمرد . مازالت تبرق فى حجر الفتاة واصابعها الصـــغيرة تلمسها فى حنـــــان .. وكنت احس ان عينيهـــا المنطفئتين قد بدا يلوح فيهما شعاع من النور .

مشية الى التلال

تأليف : جوين بوزلى

ترجمة : احمد شكرى طوب صقال

جوين بوزلى فى الثانية والثلاثين من عمره . مولود فى بريكونشير بالمملكة المتحدة . متزوج وله ولدان صغيران . يعمل بادارة التنمية فى احدى شركات الهندسة . قبلت الاذاعة البريطانية قصة له سنة ١٩٦٢ وهذه أولى ماينشر من قصصه. يكتب الآن قصة طويلة .

***

اختاروا واديا بينه وبين الطريق الرئيسى الكبير ما لا يزيد على مسيرة يوم . اختاروه من اجل انعزاله ومن اجل تلال الصوان التى الى جانبه تحميه .

وما ان تمت أعمال المسح والتخطيط حتى جيء بآلات ضخمة للثقب والتقوير والازاحة ، تعمل فى ظاهر الارض وباطنها العميق . ثم قام العمال ومعهم المثاقب والمتفجرات ينسفون احجار الصوان الصلدة ويقطعونها ، فزخرت رقعة الوادى بالناس والآلات ، وسمعت اصداء الأعمال التى يزاولونها .

وفى صبيحة يوم من ايام الربيع الزاهية ، بعد عامين ، انتهى العمل . وانسحبت من الوادى ، الى غير عودة ، آخر تلك الآلات ، وخلفت وراءها فى اعماق الصوان مدينة ذات اسم عجيب ـ مدينة البقاء . فلما اكتمل لها اكتفاؤها الذاتى ـ بعد ان زودوها بشتى الأجهزة النووية ، ومولدات الهواء ومنقياته ، ووحدات زرع النبات وانمائه فى المحاليل الكيميائية بدل أن تنمو فى الأرض، وبالمستشفيات اخذت تنتظر ساكنيها .

وهؤلاء جاءوها جماعات معتنى باعدادهم ، أخذوا من سائر انحاء القارة الواسعة ، جاءها رجال العلوم والمهندسون والأطباء والفنيون والمدرسون والطلبة ، وجاءتها أسر باكملها تعيش فيها . ولم يبق الآن أمام سكان مدينة البقاء الا أن يجتمعوا ليتشاوروا ، ففعلوا وبدأوا تنظيم حياتها الجديدة .

ومرت الأسابيع الطويلة، يوما يوما ، فصارت شهورا كثيرة . وعاش الناس متمتعين بأسباب الراحة داخل مخبئهم الهائل ، فأخذوا يألفون تلك الروائح الدائمة المنبعثة من المطاط ومن عجائن البلاستك ومن الخرسانة حديثة الخلط . واعتادوا كذلك الهواء المنقى الذى لا تتحرك به ريح . واعتادت عيونهم غياب رحابة السماء الواسعة.

أما الذين لم يستطيعوا ذلك ، القلة الذين خارت قوتهم ووقعوا فريسة لمرض الفزع من الاماكن المغلقة، فينحون الى عنابر خاصة معدة لذلك، فان لم ينجح فى علاجهم الاطباء النفسانيون نوموهم بالعقاقير فقضوا بقية حياتهم فى سبات بعيدين عن الهموم .

ان كل شيء ، حتى الجنون ، يشمله نظام دقيق ، ينال ما يتطلبه من عناية وزاد .

وجاء الوقت فأصبح السبب الذى من أجله انشئت مدينة البقاء حقيقة واقعة .

لقد انفجرت المدينة وانقلبت راسا على عقب : انطلقت الحرب هوجاء فعمت اطراف الكرة تهدم المدائن المتشامخة وتحيلها وقودا ثم رمادا ، وتقضى على سكانها بالنار واللهيب ووهج الاشعاعات واهويتها الحارقة . لم تنج من الارض ناحية . لقد أخذت الحياة تنكمش وتنكمش حتى لم يبق عليها حى . وشهود هذا الفناء هم وحدهم ، سكان مدينة البقاء. كانوا يتجمعون حول المذاييع يتسمعون ، وقد ملأهم الرعب والاسى والهلع . فلما ذوت الى الابد آخر رسائل اليأس التى وصلتهم ، صار عمل مدينةالبقاء امرا جديا .

وتعاقبت الاعوام بطيئة على القوم المختبئين تحت طباق الصوان ــ أعوام يملؤها الخوف من السموم المحلقة فوق مدينتهم لا تفتر . لقد أسن الناس وماتوا واحرقت جثثهم ، وولد الاطفال وشبوا رجالا ونساء .

واخيرا جاء اليوم الذى رصدوا فيه اجهزة القياس التى تسبر أطرافها الحساسة العالم الخارجى ، فقراوا بها أرقاما تبعث الامل، ثلثمائة رونتجن فى الساعة .

اذن يستطيع الآن رجل يرتدى حلة الوقاية ان يظل ساعة كاملة على السطح دون ان يصيبه مكروه. انه ليوم عظيم ولما ذاع الخبر شاعت فى المدينة شتى المشاعر . ودعا الحاكم أعضاء المجلس الى اجتماع خاص ، فقرروا ان يقوم بالرحلة رجل أوجبوا ان يكون من رجال العلوم ، ذو طاقة جرعية منخفضة ، وان يكون من المواطنين الاصليين العارفين بأحوال السطح . فاختاروا رجلا اسمه هارى ستوفلر ، دخل المدينة شابا فى العشرين ، وسيتركها الآن فترة قصيرة فقط ، رجلا فى الستين .

ألبسوه الحلة الواقية السميكة ، واختبروا آلاتها الدقيقة الكثيرة وضبطوها .

ولما اتموا ادخاله فى الحلة ولفوها بالاشرطة واقفلوها عليه، تناول الحاكم مجهارا يدويا ، وتكلم .

ــ اتسمعنى ، يا هارى ؟

ــ صوتك عال وواضح ، يا سيادة الحاكم .

ــ على ما يرام . اتصالنا بك سينقطع الآن . وحينما تصل الى آخر محابس ضغط الهواء ، صل القابس بخط الدائرة المغلقة الذى عند المحبس . ولكنا سنتمكن من تتبع تقدمك على الخريطة ــ واشار الى الخريطة الالكترونية التى تبين مخارج

المدينة ـ تذكر جيدا أن تصل التيار وأن تخبرنا قبل خروجك الى السطح ثم اذا بدت لك ادنى علائم الخطر ، فعد حالا . هل هذا واضح ؟

ـ غاية الوضوح .

ـ اذن اصعد ، يا هاري ، وسعد حظك .

وتحركت الحلة الضخمة فشيعوها حتى باب مصعد الخروج الرئيسي.

وعند قمة عمود الادارة الاول خرج من المصعد ومشى فى دهليز ضعيف الاضاءة نحو اول محابس ضغط الهواء لقد اصبح الاتصال بالآخرين عن طريق الراديو مستحيلا الآن ، اذ تفصله عنهم امتار من الخرسانة السميكة المشبعة بالرصاص ، فاطمأنت نفسه الى السكوت السائد ، وشكر للظروف التى هيأت له البقاء وحده مع أفكاره.

وجال بباله أن وقتا طويلا قد انقضى ـ نعم انه وقت طويل . وذكر الايام الاوائل التى امضاها فى المخبأ : ليس فينا من كان يتخيل اننا سنقيم دهرا طويلا هناك . كنا اول الامر نعد الاقامة فيه نوعا من التأمين ، التأمين ضد الفناء . كان امرا مثيرا فى مبدئه ، ثم ذهبت جدته ، وبدأنا ندرك قيمة ما خلفناه وراءنا فوق الارض. لا انكر ان كل شيء كان موفورا لدينا ، كل شيء نحتاجه لنعيش ، كل شيء عدا السماء التى تعلونا ، وعدا الاحساس بالمطر والهواء على وجوهنا اذكر كل ذلك ولا انساه . اذكر وقت الغبش : الفترة بين النهار والليل ، حينما تتجمع كل عطور الحياة وتتركز فى الهواء الساكن : الوقت الذى تظلم فيه السماء قليلا قليلا وتبدأ نجومها تتلألأ ثم يظهر القمر ، تارة على شكل قلامة رقيقة من الضياء وتارة أخرى فى شكل كرة عظيمة صفراء، ترتفع فوق الجبال . وما اكثر اسفى على الاطفال انهم لم يروا الاشياء التى عرفناها ، الاشياء التى كدنا ننساها . ان لديهم الكتب والافلام المصفرة وافلام السينما طبعا . ولكنها ليست كمثل الأصل . هى نوع من التجربة تنتقل اليهم قديمة بالية . غير أن الامل يتجدد الآن. بعد كل تلك السنوات الطوال يعود الأمل

انه ليعجب حينما يجد نفسه خارج آخر محابس ضغط الهواء ، لم يبق بينه وبين العالم الخارجي سوى بضعة أمتار من الصلب والخرسانة . وعلى حين فجأة خامره نفور غريب مما يفعل نما حينا ولكنه سرعان أن زال ، فتحرك ثابت العزم نحو الفجوة الممعدنة التى ركب فيها القفل المرقم فكشفه وأدار القرص .

« صفر سبعة ـ ثلاثة خمسة ـ صفر اثنان ـ اثنان واحد ». كان صوته مرتفعا وهو ينطق تلك الرموز ويدير بأصابعه القرص . ومرت فترة سكون طويلة . ثم تحركت الابواب فوجد نفسه فى الفضاء يتطلع الى ضوء النهار .

وحينما تدفق الضوء قويا داخل المحبس ،غض من عينيه وارتفعت يداه فى قفازيهما ، من تلقائهما ، تحجبان عنهما الضياء . لكنه ابتسم ومشى نحو المدخل .

ومن خلال لوح الكوارتز السميك الذى يحرف منظر الاشياء . والمثبت فى

قناعه رأى الحشائش الخضر تتألق زاهية الخضرة ، ورأى أزهارا شتى ، تناثرت الوانها هنا وهناك ، فوقف وظل ساكنا ماخوذا — على حين فجأة — بصفاء الالوان واشراقها وباحساسه بالفضاء اللا نهائى .

فصاح يقول « هو الصيف . هو الصيف والشمس مشرقة » .

وحرك جفنيه يدفع عن عينيه الدموع التى ملأتهما . وكان سلك المذياع موضوعا فى فجوة بالحائط ، ففك اللفة ووصل السلك بحلته . وما كان يفعل حتى ملأ صوت الحاكم خوذته .

— هالو ، هارى . هنا المراقبة . اتسمعنا ؟

— نعم يا سيادة الحاكم، اسمعكم .

— ما هى الاخبار ، يا هارى؟ رأيت شيئا حتى الآن ؟ اى أثر للحياة ؟

فبلع هارى ريقه بشدة محاولا أن يجعل صوته متزنا مطواعا لارادته.

— ياسيادة الحاكم ،لو انك تستطيع أن ترى ما ارى . كل شيءكما تركناه تماما : الحشائش تخرج من الأرض خضراءتلمع فى ضوء الشمس . — ثم انى استطيع أن ارى الازهار من كل لون : حمر ، وبيض ،وصفر ، وارجوانيات . والسماء بالغة الزرقة والتلال شاهقة شاهقة .

— هذه اخبار عظيمة ، يا هارى ، اخبار عظيمة . هل تجد حولك أثرا لحياة الحيوان ؟

وكان يأتيه من خلف صوت الحاكم خليط من الاصوات تعليقا على رسالته وفجاة نفد صبره : سولت له نفسه التخلى عما هو فيه والخروج الى الفضاء الواسع تحت الشمس، ولكنه اجاب :

— لا شيء حتى الآن . انى لم اطل النظر ، ولم ابرح المدخل بعد .

— اذن افتح عينيك ، وتذكر أن امامك ساعة واحدة فقط . لا تذهب بعيدا ، واتصل بنا على الدوام . فهمت ؟

— فهمت أنا الآن امشى الى الخلاء. سأكلمكم بعد بضع دقائق.

ثم قطع الاتصال وتحرك متحفظا يدخل فى الفضاء . وكانت قدماه المغلفتان فى حذائين سميكين ، منعزلتين عن الحشائش ، فأشعره ذلك ، فجأة، بانه مدلس عليه ، وداخله يأس. لقد اراد أن يحس ملمس المرج الذى يسير فوقه ، اراد ان يحس اشعة الشمس على وجهه ، وحركة الهواء على جلده . ولكنه لم يستطع ان يلمس شيئا ، ولم يستطع ان يسمع شيئا . لم يسمع غير ازيز خافت آت من انبوب الهواء، وغير طنين وحدة التكيف الفاتر . كان عقلا داخل حلة سميكة لا تحس شيئا ،وشاهدا يرى كل شيء ، ولكنه منقطع عن كل ما يحيط به ، منعزل عنه انعزالا تاما . وفوق ذلك كان لوح الكوارتز فى قناعه يريه كل شيء منحرفا .

ووصل الى لفيف من الاشجار القصار ، كانت جذوعها الرفيعة نابتة بين بقايا متشابكة من فروع الشجر وجذوع ميتة مسقطة . وتأمل فيما

حوله فوجد ان المكان يزخر بتلك الاشجار الميتة وان كثيرا منها لا يزال قائما عاليا مصعدا فى السماء . وكان معظم الاشجار الحية صغيرا لا يزيد عمره على عشرة اعوام . ولكن كانت هناك ايضا مجموعات قليلة العدد من أشجار تامة النماء ، فمشى اليها كأنما يمشى الى أصدقاء له قدامى.

وبدأ جسمه ينضح بالعرق ، فوقف يضبط جهاز التكييف . لقد كلت ساقاه بعبء حلته ، واسرعت دقات قلبه قليلا . ولما بلغ الاشجار وقف عندها ثم جلس تحت ظلها فى حذر.

المخبأ الآن يبعد عن مجلسه بضع مئات من الامتار ، فعجب كيف ابعد هذه المسافة الطويلة فى وقت قصير . وكان سلك الراديو وانبوب الهواء يمتدان خلفه حتى يختفيان عند فم المخبأ المعتم . جال فى خاطره انهما يشبهان الحبل السرى ، فابتسم لهذا الطيف . ثم أمال راسه وتطلع الى اوراق الشجر فوقه يطلب اثرا لحركة طير أو حشرة . ولكنه لم يجد شيئا من ذلك. كانت أشعة الشمس الذهبية وحدها ، هى التى تهتز كلما هبت نسمة خفيفة فحركت أوراق الاشجار.

فصاح يقول « لابد هنا من شىء حى ، لابد من شىء ».

ثم حنى راسه وقارب بين جفنيه يدقق النظر فى الحشائش التى بين قدميه ، يبحث عن أدنى أثر لنمل أو فراش أو صفار الخنافس ، فلم يجد شيئا هذه المرة أيضا . لا شىء الا اضطراب الحشائش اينما تحركت قدماه .

واستطاع ، حيث كان جالسا ، ان يرى التلال المشرفة على المدينة المدفونة

وذكر أنه تسلق تلك التلال يوم دخلها ، اذ اراد ان يرى اكثر ما يمكنه ان يرى ، واذ اراد ان يصعد فى لتلال حتى يبلغ قممها لاهثا ، لينظر حوله ويرى السهول الرحيبة الخضراء المتدة نحو العمران والمدنية ، قبل أن ينتهى الى دخول الدهاليز الخرسانية التى تنتظره هناك فى الاعماق .وذكر انه ، وهو فوق قمة احد التلال ، استطاع ان يرى، فى اقصى الغرب ، رءوس ناطحات السحاب النائية .

قال فى نفسه يجب ان اتسلق تلك الجبال . يجب ان اصعد اليها هناك لأبحث عن ناطحات السحاب . لقد أثارته هذه الفكرة فنهض على قدميه ومال بثقله الى جذع الشجرة معتمدا عليها . ثم نظر الى ساعته فان اينا عاليا ، وقال:

« لم يبق سوى خمس عشرة دقيقة خمس عشرة دقيقة حقيرة » .

كانت قمم الجبال تبعد مالا يقل عن مسيرة ساعة ، فدق على الشجرة فى بأس وغضب . لقد شعر فجأة برغبة ملحة فى تسلق تلك التلال ليعرف هل لا تزال تلك المبانى النائية قائمة هناك، وهل بقى شىء من الدنيا القديمة ورن فى أذنيه الانذار بأن الساعة بقى منها عشر دقائق . قال فى نفسه عشر دقائق ثم اعود مرة اخرى تحت الخرسانة . سأنظر نظرة اخيرة ثم أهبط الى الابد ، لاننى لن أرى كل هذا مرة ثانية . لقد تناولت اليوم أكبر جرعة ، ولابد أن تنقضى عشرون

سنة دون أن يصبح خروجى مرة اخرى سليم العاقبة . وسأكون ميتا قبل ذلك . لقد صمم فى سرعة وهدوء ولا معدل عن عزمه . وادار الراديو واخذ ينتظر ، ثم تكلم بصوت واضح مرتفع « هالو ، المراقبة . هنا ستوفلر ».

وعلى الفور جاء صوت الحاكم جادا ملحا .

ـ استحلفك بالجحيم ما هى هذه اللعبة ، يا رجل ؟ لقد ظللنا ننتظرك. هل أنت على ما يرام ؟

ـ على احسن حال ، يا سيادة الحاكم . آسف على تأخيرى . لدى شىء أقوله لك .

ثم سكت وبلع ريقه بقوة .

ـ لن أعود يا سيادة الحاكم ، سأبقى هنا فوق .

ـ هل جننت ، يا ستوفلر ؟ بقيت لك حوالى عشر دقائق . ابدأ الآن عودتك . هذا أمر .

ـ أنا آسف ، يا سيادة الحاكم . لقد فكرت فى هذا بعض الوقت . وعقدت العزم . سأمكث هنا فوق .

ـ ستوفلر ، اذا لم ...

فقاطعه ستوفلر

ـ اسمع ما أقوله ، يا سيادة الحاكم لقد دفنت معكم تحت ذلك التل اللعين اربعين عاما . وما حفظ عقلى من البوار فى ذلك المدى الطويل الا الامل فى اننى سوف أمشى على وجه الارض يوما من الايام .

امشى والشمس فوقى تغمرنى ، والهواء الرطب يلامس وجهى . لقد ادركت الآن كيف هى الحال هنا فوق . الارض ليست الصحراء البراح التى توقعناها الامر على عكس ما حسبنا . كل شىء جميل ، بل واجمل مما اذكر . فان انا تركت هذا ، يا سيادة الحاكم ، تركته الى الابد . وانت تعرف ذلك . لقد تناولت اليوم جرعة من وحدات الاشعاع تحرمنى الخروج حتى يحين اجلى. انه ثمن باهظ ، يا سيادة الحاكم باهظ جدا .

وسكت . وفى أثناء سكوته استطاع أن يسمع تنفس الحاكم خافتا فى المذياع .

ـ لست ادرى مقدار الزمن الذى سأعيشه ، ولكنى رسمت لنفسى أن اتسلق التلال لأرى هل بقى من العالم شىء على الاطلاق . وسأجتهد فى الاتصال بكم حينما اعود .

وتكلم الحاكم وكانت نغمة صوته وادعة مقنعة .

ـ هارى ، فكر ثانية ، يا هارى. من اجلى . سمعت ؟ من أجل صديق لك قديم . أعرف ان كلامك يحوى كثيرا من الحقيقة ، غير ان المعيشة فوق هناك ، ليست كل شىء . لقد عشنا عيشة طيبة هنا ايضا . ستكون حياتك هنا اطول اذا عدت الينا الآن . فكر مرة ثانية ، يا رجل. أرجو ان تفكر مرة ثانية .

ـ كلامك لن يجدى ، يا سيادة الحاكم . انى ذاهب الآن . اريد ان ارى كل ما يسعنى أن ارى.

ـ انت وما شئت اذن ، يا هارى. اجتهد فى الاتصال بنا . ونحن فى الانتظار .

ـ وداعا، يا سيادة الحاكم ، وشكرا
ووصل صوت الحاكم الى اذنيه همسا .

ـ وداعا ، يا هارى ، وداعا. وسعد حظك.

وانتزع هارى وصلة المذياع . وبعد لحظة من التردد اخذ يعالج اقفال الحلة الى ان اصبح حرا طليقا ، تغمره أشعة الشمس . واصبحت الحلة المنبوذة ملقاة عند قدميه كانها جلد قديم خلق. واحس نسيم الصيف دافئا يلامس وجهه كما لو كان جديدا عليه هذا الاحساس . فاغمض عينيه وصار يتنفس أنفاسا عميقة مستطيلة وجاءته روائح الصيف قوية فى خياشيمه ، مع أصوات الحياة عالية واضحة فى اذنيه . وفتح عينيه وتطلع الى التلال المخضرة ، ثم بدأ ذلك المتسلق الوعر الطويل .



الدفء وليالي الشتاء

بقلم

د. نجيب الكيلاني

شتاء الريف بارد صامت . ولنباح الكلاب نغمة ممطوطة حزينة تشبه الى حد كبير انين المتألمين ، وحفيف اوراق الاشجار الكبيرة التى تسور مبنى المستشفى يتناهى الى اذنى مكتظا بالاسرار والرموز الخفية التى تثير فى روحى الانتفاضات الغامضة ، وانا كامراة فى السابعة والعشرين تعيش فى غربة ، ووحشة ــ لها اشواق وامنيات كثيرة .. واحلام شتى مؤرقة تقف حائلا بينى وبين النوم ، لااستطيع ان ابعد عن ذهنى صورة طبيب اول المستشفى الدكتور «رءوف» .. انه رجل وديع لطيف ، وسيم التقاطيع ، فى نظراته الى حياء وخجل ، وسلوكه نحو الرجال والنساء على حد سواء لاتشوبه شائبة ، أما طبيب ثانى المستشفى الدكتور «جلال» فلم اكن افكر فيه كثيرا ، لانى كنت اخافه ، كان جسورا ، شرسا بعض الشىء ، عادى المظهر ، على النقيض من رءوف الذى يتسم بالتردد والتفكير الطويل قبل ان يقدم على اى عمل ، او يتلفظ بأى لفظ .. ولكى اكون صريحة يجب ان اقرر ان قلبى قد اختار رءوف ، اختاره قلبى لأسباب أعرف بعضها واجهل أغلبها .. ولعل سلوك رءوف نحوى جعلنى أتمادى فى حبى له اذ شعرت انه يبادلنى حبا بحب ، ولم يزحزحنى عن موقفى ملاحقة «جلال» لى صراحة ، وعرضه على الزواج .. الحق ان جلال كان يعرف مايريد ، ويندفع اليه بقوة دون تردد أو لف ودوران .. وهكذا كانت أفكارى تدور فى راسى وانا مستلقية على سريرى فى حجرتى الخاصة ــ حجرة الست

الحكيمة ـ يلفنى الصمت البارد والظلام ..

ودق باب المسكن ، وهتفت فى ضيق :

ـ من ؟.

وجاءنى صوت التومرجى النوبتجى:

ـ طفل تعبان ياست سوسن .

انه لشىء مزعج ان انتزع نفسى من بين الفراش الدافىء ، واحرم جفنى وجسدى المرهق من لحظات النوم والراحة التى انتظرها دائما بعد يوم ملىء بالعمل المتصل ، لكن لاجدوى من الضيق والتافف ، فالمستشفى هنا هى المكان الوحيد الذى يخفف آلام المعذبين ، وهتفت :

ـ ساتى حالا ..

فى حجرة الاستقبال وجدت طفلا صغيرا جميلا ، كان يتنفس بصوت عال ، ويجد صعوبة كبرى فى استنشاق الهواء الى رئتيه ،وفى عينيه الصغيرتين البريئتين لمحت احتقانا ظاهرا وضراعة واستغاثة ، وتلفت حولى فرايت دموع أمه وابيه ،وليس غريبا أن ارى الدموع واسمع انات المتعبين ، انه مشهد اراه دائما ، حتى اصبح لا يؤلمنى كثيرا .. لكن الأطفال ـ بالذات ـ لهم فى قلبى منزلة خاصة .. لكم احب الأطفال ، واحلم باليوم الذى أهدهد فيه طفلى الحبيب .. وعندما اتذكر الأطفال ، تثب الى ذهنى على الفور صورة الدكتور رءوف ، ويخالط مشاعرى نوع من الخجل العذب .. والتفت الى التومرجى قائلة :

ـ اذهب واستدع الدكتور رءوف.

كنت التمس المعاذير للدكتور رءوف حينما اراه مترددا لا يحسم امرا من الأمور ، واعتبر تردده لونا من الحرص والتعقل والحكمة ، لكنى هذه المرة تضايقت منه .. لقد وقع الكشف الطبى على الطفل ثم اخذ يعبث بالقلم والورق ، ويروح ويجىء ، واخيرا قال:

ـ يحول الى المستشفى المركزى.. انها أزمة ربوية مستعصية ..

الطفل يتالم ، والدموع على خدود والديه ، والاب يتضرع :

ـ فى عرضك يادكتور .. اى حاجة تريحه .. الولد سيموت بين ايدينا .

وانتحيت جانبا بالدكتور وقلت :

ـ لماذا لانسعفه ؟؟

ـ امكانياتنا محدودة ..

ـ لكن قد يكون فيها الكفاية لمثل هذه الحالة ..

فصمت برهة ، ثم قال :

ـ لااستطيع .. هؤلاء الفلاحون متعبون لاقصى درجة . اذا لم يستجب الطفل لعلاجنا فسوف يرموننا بالجهل .. وتكون الكارثة الكبرى لو مات .. سيقولون قتله الطبيب .. لا اريد ان اتحمل مسئوليته ..

ـ لكن .. فقاطعنى قائلا :

ـ لا استطيع ..

لم ارتح لكلماته ، وبلغ بى الضيق مداه وانا اراه يهرب من المسئولية ، وينهزم امام نوازع الخوف والتردد ،



ولم اقتنع بمنطقه لطالما شعرت ان التردد مثل لذعات البرد التى تنهش جسدى ، وقلت : ان بيننا وبين المستشفى المركزى اكثر من عشرين كيلو مترا ، وعربة الاسعاف معطلة ، ومعنى ذلك ان يذهب اهل الطفل للبحث عن عربة لنقله ، وسيكلفهم ذلك مالا ووقتا ، وقد يلفظ الطفل انفاسه الأخيرة قبل ان يصل المدينة ..

قال فى حزم :

– لن أتحمل مثل هذه المسئولية ..

– بل أنت المسئول عن موته اذا مات ..

– لا فائدة ..

– ووثبت الى ذهنى فكرة ، فقلت متلعثمة :

– أستدعى الدكتور جلال بعد أذنك.

– لا مانع ..

وجاء الدكتور جلال وهو يغالب النوم ويتثاءب ، وقرر أنه لا داعى لتحويل المريض ، وأن الاسعافات الموجودة تكفى ، فقال الدكتور رءوف فى حدة :

ـ تحت مسئوليتك ؟؟

قال جلال فى استهتار :

ـ تحت مسئوليتى ·· سنفعل له هنا ما يمكن أن يقوموا به فى المستشفى المركزى ··

ـ لكن مثل هذه الحالة تحتاج لاخصائى ··

ـ والكتاب يقول عالجه بكذا وكذا·· ليست هناك مشكلة، ما دمنا قد اهتدينا الى التشخيص السليم واتفقنا عليه ··

مجرد دقائق قليلة مرت على تعاطى العلاج ، وبعدها لمعت الاشراقة على وجه الطفل الجميل ، وانبعثت أنفاسه هادئة رتيبة ، ورفع الأب يديه وعينيه الى السماء داعيا لنا بالستر والمثوبة من الله ، أما الام فقد اختطفت يد «جلال» وقبلته قبل أن يتنبه الى ذلك .. وابتسم جلال وقال فى هدوء :

ـ ولا تحويل ولا حاجة ··

وحانت منى التفاتة الى الدكتور رءوف ، فوجدت جبينه يتفصد عرقا برغم برودة الجو ، ولم يستطع أن يخفى الارتباك والقلق البادين على وجهه : ولم يكن من الصعب تفسير ما ظهر عليه · ان نجاح الآخرين وتوفيقهم قد يجلب التعاسة والضيق لمن لم يحالفهم الحظ· وانصرف جلال بهدوء دون مباهاة أو غرور ، وكان ما فعله ليس شيئا من عنده ، انه مجرد علم تعلمه وطبقه ·· وكنت أتساءل بينى وبين نفسى لماذا لم يفعل رءوف ما فعله جلال وهو يعرفه؟؟

وجلس رءوف خلف مكتبه وجلست وحدى قبالته ·· وكان لا بد أن أبدد جو الوجوم الذى يبسط رواقه على الحجرة ، وأن أجامله حتى لا يستبد به الكدر فقلت :

ـ ليس الحرص عيبا يا دكتور ··

فكان جوابه الغريب :

ـ جلال متهور·· لو مات هذا الطفل لوقعنا فى ورطة كبرى ··

ومع تقبلى لكلماته بروح الشك الا أننى قلت :

ـ انه مغامر ··

ـ المغامرة خسران ·· قد تهيىء النجاح الجزئى فى بعض الأحايين لكنها حتما تؤدى الى كارثة فى وقت من الأوقات ·· وعند ذاك لا يمكن اصلاح ما تحطم ··

وتوقف عن الكلام لحظات ثم استطرد:

ـ تعلمت الحرص منذ صغرى ·· لقد تربيت فى بيت محافظ ·· بيت كريم ·· وأنا صغير تأخذنى الدادة الى المدرسة ولا تترك يدى حتى أبلغ بابها ·· واذا ما كبرت تحذرنى أمى بعدم السير فى الشارع والاعتصام دائما بالرصيف ·· الرصيف فيه السلامة·· وعلمتنى الشك فى الناس ·· فيهم ذئاب كثيرون ··· ان تخير الأصدقاء مهمة صعبة ·· ففيهم الشرير والخير ، وفيهم المخلص والخائن ·· وكثيرا ما كانت ـ رحمها الله ـ تحذرنى من الفتيات الخليعات ·· ولعل سر نجاحى فى التعليم ، وعدم وقوعى فى الخطأ راجعان الى نصائحها الغالية·· من النادر أن أخطىء ··· الست معى يا سوسن ؟؟

وكان لا بد أن ينسى هذا الموضوع ،

حبي تنجو من التوتر والضيق، فاقتربت منه وهمست :

ـ أيهمك رأيى لهذه الدرجة ؟؟

كانت ابتسامتي المخلصة تنعكس على وجهه المحتقن المندي بالعرق ، وشعرت بسخونة يده وانا ألمسها ، لكنه سرعان ما سحبها بعيدا وهو يتهته :

ـ يجب أن أنصرف .. العيون فى كل مكان ..

ـ أتخاف ؟؟

ـ ماذا يقول الناس اذا رآنا أحدهم متجاورين ؟

ولست أدرى كيف وجدتنى اندفع قائلة :

ـ ولماذا لا تتقدم لخطبتى حتى نقطع ألسنة الناس ؟

فصرخ فى دهشة :

ـ كيف ؟ ماذا تقولين ؟

ـ ألا تحبنى ؟

ـ لا أنكر ذلك ..

ـ فما المانع ؟

ـ انها مسألة هامة تحتاج الى تفكير طويل .. ان الزواج أصعب مشكلة فى الحياة .. وبناء بيت الزوجية لا يتم هكذا فى يوم وليلة ..

وشردت بنظراتى فى حزن وأخذت أقول :

ـ يوم وليلة ؟ نحن هكذا منذ عامين .. لم نتقدم خطوة واحدة .. أنت تعلم مدى حبى واخلاصى لك .. لو لم أكن أحبك لما انتظرت هذه المدة الطويلة . لقد اخترتك دون الجميع ..

أنا أدرك حساسية الآخرين ، وغيرته منهم . ولم أعجب حينما سمعته يقول :

ـ هل طلبك أحد ؟

ـ تعنى أراد الزواج منى ؟

ـ أجل ..

فقلت وأنا أهز رأسى :

ـ كثيرون ..

فازداد احتقان وجهه وتمتم :

ـ أعلم أن جلال وغد حقير ..

فلمست يده فى حنان وقلت :

ـ ليس فى قلبى مكان لغيرك يا أعز حبيب ..

ـ اننى أصدقك وأؤمن بك ..

وسرت فى جسدى نشوة شجية ، انتفضت لها كل عضلة ، ونظرت اليه فى ود عميق ، وتمنيت فى تلك اللحظات أن يخرج عن تردده ، وأن يعبر التعبير الكامل الصادق عن حقيقة مشاعره نحوى ، وودت لو أنى أغمضت عينى وفتحتهما لأجد نفسى بين ذراعيه القويتين يضمنى الى صدره فى حنان ، ليمسح عن قلبى حرمان السنين ، والصبر الطويل ، لكنى أفقت من أحلامى على وجهه الصارم ، وقرأت فى عينيه الخوف والتردد من جديد ، وطفت فى رأسى عبارته التى قالها منذ لحظات « انها مسألة هامة تحتاج الى تفكير .. تفكير طويل » ، ولهذا قلت :

يا حبيبى الدنيا تجرى وتتطور ...

والزمن يمر ، ونحن لم نتقدم خطوة··

ــ ألا تثقين فى ؟

ــ كل الثقة ·· لكن حبى لك قد أصابنى بلهفة حارقة الى الغد الجميل الذى سنعيش فيه معا ··

ــ ان التسرع يا سوسن عاقبته ندم ··

وتناهى الى أسماعنا وقع أقدام ··

القصة مكررة ومعادة مثل كل ليلة..

حالة مغص ··

ووقع الدكتور رءوف الكشف الطبى وتمتم :

ــ ان المريض يشكو من ألم حول السرة ·· قد يكون مجرد مغص معوى ·· لكن لا تنسى يا سوسن احتمال التهاب الزائدة الدودية ··

ــ انه لا يكون فى هذا المكان يادكتور

ــ فعلا ·· لكنه يبدأ فى الغالب عند السرة ، ثم يمتد الى مكانه الطبيعى جهة اليمين ·

ــ والحل ··

ــ يحول الى المستشفى المركزى تحت الملاحظة ·· أنا لا أتحمل مسئوليته ·· أنت تعرفين رأيى فى مثل هذه الامور·· الحيطة أوجب ··

وحاولت أن أتكلم ، لكنه قال :

ــ ولا داعى لاستدعاء الدكتور جلال ·· وحذرا أن تعطى المريض اى مسكن والا ضاعت معالم المرض ··

وانصرف الدكتور رءوف الى مسكنه بعد أن وقع خطاب التحويل ، وبعد أن تأكد لى أنه قد آوى الى فراشه حين أطفأ النور ، همست فى أذن التومرجى كى يستدعى جلال ، وهبط جلال الدرج وهو يسب ويلعن ، لكن رنة المرح لم تغب عن السامعين لحديثه ، كان يقول:

ــ ليلتكم أنس ·· أعرف أننى لن أنام ·· يا عالم يا هوه ·· هذه ليست نوبتجيتى ·· انها للدكتور رءوف ·· لعنة الله على ·· على الـ ·· آه ··· الأمر لله ··

كان جلال يرتجف هذه المرة من البرد ، وأسنانه تصطك ، لكنه يحاول أن يصفر ليخرج لحنا مميزا نشازا ، ويحك كفيه ليولد بعض الدفء الطارىء ، وقال وهو ينحنى على المريض :

ــ أنت قليل الذوق·· ألا تختار وقتا آخر تمرض فيه !؟

وارتسمت البسمة على الشفاة ، وألقى بعض الاستفسارات على المريض ، وما أن بلغ ما يريد حتى تمتم فى هدوء :

ــ مغص معوى لا أكثر ··· حقنة اتروبين فى العضل يا ست سوسن ··
فرد المريض قائلا :

ــ الأعور يادكتور .. المصران الأعور؟

ــ « تقصد الزائدة الدودية ؟..لا.. كن مطمئنا ··· ستشعر بالراحة بعد قليل ··

ــ لكنى خائف ··

ــ ثق فى كلامى ·· وستمر على غدا لاعادة الكشف ··

ــ ولو كان الزائدة ··

ـ ان انتظارك هنا تحت الملاحظة لن يستغرق اكثر من خمس ساعات ٠٠٠ الساعة الواحدة صباحا الآن ٠٠٠ ولن تؤثر هذه المدة ٠٠

وعاد الهدوء من جديد ٠٠ وهم جلال بالعودة الى مسكنه ، وتمتم وهو يضع قدمه على أول الدرج :

ـ آه ٠٠ ليل العازب طويل ٠٠

فقلت له على الفور :

ـ طويل ٠٠ وبارد أيضا ٠٠

ـ سامحك الله يا ست سوسن ٠٠ ثم استطرد وهو يحاول أن يقلد صوت أحد الشحاذين في القرية ، وقال وهو يصعد الدرج :

ـ هنيا لك يا فاعل الخير ٠٠

كان السلم الذى يصعده جلال يرتفع في منطقة مكشوفة دون سقف ، وأشعة القمر المغلف بالسحب تتساقط في وهن محاولة أن تحدد معالم جسده الطويل وشعره المنتفش ، ومعطفه الأبيض الذى يشرق برغم العتمة ، ومحرك ماكينة الكهرباء في الجهة الشرقية من المستشفى ـ يهدر في نبرات متقطعة رتيبة مسرعة ، وكأنه صوت قطار يشق جوف الليل ٠٠ وعاد جلال يترنم مقلدا صوت الشحاذ :

ـ يا بو الغلابة يا ليل ٠٠

وضحكت ٠٠ ضحكت من كل قلبى ٠٠ انها لحظة لا أدرى كنهها على وجه الدقة ، ولم أدر كيف توجهت بالحديث لجلال قائلة :

ـ ألا تريد كوبا من الشاى الساخن في هذا الجو الشديد البرودة ؟

ووجدته يطرب كطفل صغير ، ويثب دفعة واحدة من فوق السلم ويقبل نحوى قائلا :

ـ هذه أول مرة أشعر فيها أنك كريمة فعلا ٠٠

ثم استطرد وهو يدخل حجرة المكتب :

ـ حياتنا هنا مملة ٠٠ نوم ٠٠ وأكل ٠٠ ومرضى ٠٠ وحرمان ولا شيء غير ذلك ٠٠ آه لو ٠٠

فقلت :

ـ حذار أن تخرف ٠٠

فقال وهو يمسك بيدى في حنان وتوسل :

ـ لن يملأ حياتنا هنا سوى الحب ٠٠ الحب الكبير ٠٠

انتزعت يدى في عنف ، وثرت في وجهه ، ولمته على هذا التصرف الشائن ، واعتبرتها جرحا لكبريائى ، ومع ذلك فقد جلسنا نحتسى أقداح الشاى ونتكلم ٠٠ ونتكلم ٠٠ حتى الرابعة صباحا ، واتفقنا أخيرا على الزواج ٠٠ وذاع الخبر في اليوم التالى ، وكانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها الدكتور رءوف لا يتردد أو يضعف أو يعتصم بالتفكير الطويل هذه المرة التى طلب فيها نقله فورا الى مستشفى آخر ، ومن ثم رحل في اليوم التالى ولم يعد ٠

وبقيت مع جلال ننعم بالحب والحياة والسعادة ، وبالدفء في ليالى الشتاء الفاتنة في ريفنا الجميل ٠

انى راحلة

بين الفانتازيا الفاجعة والاسطورة الرومانسية

بقلم : غالى شكرى

تقف « انى راحلة » فى صف واحد مع « بين الاطـــلال » و « فديتك ياليلى » كمرحلة جديدة فى أدب يوسف السباعى ٠ وهى المرحلة التى تحدد اكثر فاكثر طبيعة الموقف الفنى لهذا الكاتب ، على ضوء تكوينه الاجتماعى والثقافى والنفسى من جانب ، وعلى ضوء التكوين الحضارى للخطة التاريخية فى حياة مصر من جانب آخر ٠

ففى هذه المرحلة نشهد غياب التعميمات والمطلقات ، ورحيل الجو الفانتازى ٠٠ ونستقبل فى نفس الوقت ميلاد السمات الجديدة لهذه المرحلة التى اضع لها عنوانا فرعيا هو « الاسطورة الرومانسية » ٠ ذلك أن العنوان الرئيسى لادب المأســاة عند يوسف السباعى ما يزال فى هذه المرحلة الجديدة مشبعا بالروح الرومانسية ، أو أنه ما يزال يعتمد على الرؤية الرومانسية للمأساة ٠

والعنوان الفرعى أقصـــد به التفـــرقة بين الادب الرومانسى الاوروبى وبين الرومانسية التى عرفها الادب المصرى الحديث منذ هيكل الى يوسف السباعى مرورا بترجمات المنفلوطى ٠ فالرومانسية الاوروبية فى مختلف مراحلهـا واتجاهاتها تتسم بالتدفق والانفتاح على العالم ، أى أنها لاتحيط نفسها بسياج حديدية لا تنفذ منها رياح الواقع الخارجى بل هى تطل من نوافذها العديدة ، على كثير من المشكلات التى تضج بها الحياة بموجاتها المتنوعة فبالرغم من أن الشكل العاطفى لمأساة الحب هو الصـــورة الرئيسية التى تواجهنا فى آداب الغرب الرومانسى ــ شـــعرا ونثرا ــ الا أن هذا الشكل لا يغلق كافة الابواب على « الغرام الفاجع » ، وانما يفتح لنفسه بعض المسارب التى تتسلل منها أشعة الكون المضطرب فنلحظ أن ثمة تفاعلا حيا عميقا بين الداخل والخارج فى اطار الشكل الرومانسى ومضمونه التراجيدى ٠ لهذا الســـبب لم تكن المأساة الرومانسية فى القرن الماضى بأوروبا ، مأساة منغلقة على ذاتهـــا ، بل كانت صياغه حضارية متقدمة لازمة التناقض بين القيم القديمة والعلاقات الاجتمـــاعية الجديدة ٠ وقد كان التقدم الحضارى للرومانسية الاوروبية وليد التقـــدم العلمى الوافد مع الانظمة الاجتماعية الجديدة ، بالاضافة الى خصوبة الحضارة الاوروبيـــة

حينذاك وهى تجتاز أسوار عصر النهضة الى عصر التنوير الى عصر الثورات ، الخصوبة التى تجلت فى تعدد الجداول وتنوع الاخاديد وكثرة الروافد التى تختلف جميعها باختلاف المستويات الفكرية والفنية والادبية ولكنها تنبع فى البداية من تراث حضارى موحد عريق يمتد الى الاغريق العظام ، ويصب عند النهاية فى تراث حضارى مشترك هو حضارة العصر الحديث . كان القرن الماضى فى أوروبا يضم الاتجاهات الواقعية والطبيعية والرومانسية خلال مجرى زمنى واحد ، ومن ثم كان لابد من الصراع بين هذه التيارات المختلفة ، ولما كانت الطبقة المتوسطة الثورية فى حينها تخلق النظام الليبرالى الحر فى المجالات الاقتصادية والسياسية ، فقد أتيحت لاتجاهات الفكر والفن أن تتصارع فى مناخ حر . كذلك كان التقدم العلمى والتراث العريق هما الجناحان اللذان حلقت بهما الآداب والافكار والفنون فى مختلف الاتجاهات على مستوى عال من النضج ، فاثمرت تلك المرحلة الفذة من تاريخ البشرية مادعوته منذ قليل بالتدفق والانفتاح . أى أن هذه الصفة لم تكن حكرا للرومانسية وحدها ، بل كانت احدى صفات العصر والحضارة ، ومن ثم اتسمت بها جميع التيارات والمذاهب . غير أن اتصاف الرومانسية الاوروبية بالتدفق والانفتاح يتخذ لنفسه معنى خاصا لاتشاركه فيه الواقعية مثلا . فالاتجاه الواقعى بحكم تسميته لا يحتاج الى قولنا أنه يتفتح على جوانب الواقع المختلفة .. أما الرومانسية المقصورة عادة على موضوع واحد وقضية واحدة ، فانه من الصعب أن نطلب اليها أن تكون على شاكلة الاتجاه الواقعى فى ملامسة الواقع الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى ، والاحتكاك به على نحو يثير الى جانب القضية الرئيسية بعض المشكلات الاخرى . ومع هذا فقد بلغت الرومانسية الاوروبية للاسباب الموضوعية التى ذكرتها مستوى من النضج جعلها ـ وجعلنا معها ـ تتدفق وتنفتح على مجموعة من المعانى البعيدة عن الموت والحب والظلال الرومانسية الاخرى . أجل، فقد كان الرومانسيون الثوريون فى المانيا (وكشيلروجوته) وفى فرنسا (كهوجو) وفى انجلترا (كشيلى) هم دعاة الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هم رواد « الرفض » للواقع المعتم .. كل ذلك بجانب « الخامة » الاساسية للتراجيديا الرومانسية : الحب ، و « الرؤية » المثالية الفردية للمأساة فى شكلها العاطفى .

أما نحن فى مصر فقد كان تاريخنا مع الرومانسية مختلفا ، فهى أولا ليست وليدة شرعية لحضارتنا ، وانما هى ابنتنا بالتبنى .. هذا لايعنى أن رومانسيتنا افتقرت الى « الاصالة » ، وانما أقصد شيئا آخر . أقصد أن « زينب » وترجمات المنفلوطى « بتصرف » وترجمات مجلة « الجامعة » فى أوائل القرن وترجمات جيل الرواد لبعض الشعراء الانجليز ، هى كل تراثنا من الرومانسية . ومعنى ذلك أن الرومانسية ليست « امتدادا » حتميا أو طبيعيا لتراثنا الفكرى والأدبى والفنى ، وانما هى « تلبية » لمناخنا الحضارى المتأزم بين القيم القديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة . لهذا كانت الرومانسية فى أدبنا الحديث مستوردة وأصيلة فى آن واحد . هى مستوردة بلا شك بواسطة الترجمة المباشرة عن الانجليزية والفرنسية ، والترجمة غير المباشرة التى عرفناها عن طريق المنفلوطى والتأثر التقريرى المباشر عن طريق هيكل

الذى كتب « زينب » أثناء وجوده بفرنسا واطلاعه على روائع الرومانسية . ولكن رومانسيتنا مع ذلك أصيلة ، لأنها صادفت هوى فى نفوسنا ، ولانها كانت استجابة عفوية تلقائية لمرحلتنا الحضارية ، فقد كان من الممكن ألا تعيش بيننا لو أنها كانت غريبة - فى روحها - عن وجداننا . ولكنها عاشت وأثمرت على يدى كبار أدبائنا فى ذلك الحين ، ثمرات لاريب فى أهميتها التاريخية ولكن هذا المزيج المعقد من الاستعداد والاصالة أعطى للرومانسية المصرية نكهتها الخاصة التى تتميز بها عن الرومانسية الاوروبية . فقد ولدت رومانسيتنا - ترجمة وتأليفا - فى ظل مرحلة حضارية شديدة التخلف ، وفى ظل مجتمع عديم الجذور الديموقراطية ، وفى ظل لقاء غير ودى على الاطلاق مع أوروبا ، وفى ظل احدى فترات الانبعاث القومى الناتج من ثورتنا المزدوجة ضد الاحتلال الاجنبى والاستبداد الداخلى معا ، وفى ظل أرضية بلا تراث حقيقى للمذاهب الفنية أو الاشكال الادبية الجديدة كالقصة والمسرحية .

هذا المناخ « الخاص » بنا يستقبل الرومانسية بترحاب شديد لانها تعبر عن أزمة التناقض بين القيم القديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة ، وهى الازمة الرئيسية فى حياتنا ابان تلك الفترة . ولكن هذه الرومانسية لن تتسم بأية حال ، بالتدفق والانفتاح على مختلف جوانب الواقع المر الذى كان يعيشه الشعب المصرى آنذاك ، بل هى ستمتص المرارة التى يجيش بها قلب هذا الواقع المريض ثم تكثف هذه المرارة فى غرفة مقفلة ذات جدران صماء بتوهج داخلها بحرارة الحب الفاجع ولا تتيح نوافذها المحكمة الغلق فرصة التنفيس لهذه الحرارة فتتحرر من لقاء حر مع الواقع الخارجى ، وانما تدفع بها الى مستوى البركان الذى يغلى ويغلى ولا يلبث أن ينفجر . والغرفة الرومانسية المقفلة فى أدبنا الحديث هى ما أدعوه بالاسطورة الرومانسية ، أو البناء الاسطورى للرومانسية ، كما أن الغرفة الواقعية المقفلة فى هذا الادب نفسه هى ما أدعوه بالبناء الاسطورى للواقعية . فالبناء الاسطورى - فى المستوى الفنى للرواية هو ذلك البناء الموغل فى الكثافة والتركيز حتى ليقترب من الشعر . وفى المستوى الفكرى هو ذلك البناء الاجتماعى أو العاطفى المحكم الغلق حيث يعكس أزمة الحرية فى حضارة متخلفة مقهورة . لذلك كان نجيب محفوظ فى « زقاق المدق » هو رائد البناء الاسطورى فى الرواية الواقعية المصرية ، كما كان يوسف السباعى رائدا لهذا البناء فى الرواية المصرية الرومانسية . وان هذه المعانى جميعها تتحد فى الشعر اكثر منها فى النثر : فى قصائد على محمود وابراهيم ناجى ومحمود حسن اسماعيل وغيرهم من أبناء الجيل الرومانسى فى الشعر المصرى الحديث ، تتجسد الاسطورة الرومانسية فى الشعر اكثر منها فى الرواية . ذلك لان طبيعة الشعر كجنس أدبى أقدر من طبائع الاجناس الاخرى فى القيام بعمليتى التكثيف والتركيز .

على أن التكثيف والتركيز اللذين أحاول شرحهما هنا ليسا هما المعنى الفنى فحسب ، بل لهما معنى آخر هو المصدر الاول للمعنى الفنى . المصدر الاول للتكثيف

الفنى والتركيز الفنى ، هو الفكر المكثف المركز ، وتكثيف الفكر وتركيزه ليس هو الدسامة أو الغنى أو الخصوبة ، فهذه المعانى هى المستوى الكيفى للتكثيف والتركيز ٠ والمستوى الكيفى أحد العناصر الاساسية المكونة للعمل الفنى من (ذات) الفنان لثقافته ومعدنه العقلى وتكوينه النفسى ، وكلها تختلف من فنان الى آخر ٠ أما المستوى الكمى للتكثيف والتركيز فهو ما أهدف الى ايضاحه هنا ٠ لانه أحد العناصر الاساسية المكونة للعمل الفنى من «موضوعية» المرحلة الحضارية التى يعيش فيها ٠ فعندما يعانى مناخنا الحضارى ويلات البتر اولتمزق أو ما يمكن تسميته بمركب الانفصال التاريخى من عصر الفضاء العظيم ، كما يعانى ويلات التخلف الحضارى المرعب والتقاليد الديموقراطية فى أسلوب الحكم والقهر الاستعمارى الرهيب ٠٠ عندما يكون مناخنا الحضارى على هذا النحو من عوامل « السلب » ، فان عناصر « الايجاب » المتمثلة فى الهبات الثورية ومحاولة الانبعاث الفكرى والادبى والفنى تجد نفسها محاصرة فى مأزق تاريخى لاتحسد عليه ٠ تجد نفسها فى حاجة ماسة الى استيراد أدوات نهضتها من الغرب القاهر ، كما تجد نفسها فى حاجة مماثلة الى استلهام روحها من الماضى المبتور او الممزق ٠ ومن هنا تتجه هذه الايجابية الى العالم الرومانسى تهيم فى سماواته العليا لعله يحميها من السقوط والاستسلام ٠

فالرومانسية فى تاريخنا هى رومانسية ثورية ، ولكن مقوماتها الحضارية دفعتها لان تتحصن داخل تلك الابنية الاسطورية التى سنتعرف عليها بعد قليل ٠ الابنية الاسطورية التى يشيدها الفنان على نسق غرفة مقفلة بداخلها مرجل يغلى لاتتصل بالعالم الخارجى بأوهى وسائل الاتصال ، فلا هى تتفاعل مع الواقع ، ولا هى تتصارع مع اتجاهات فنية أخرى ٠ ذلك أن تاريخنا الأدبى الحديث لم يعرف الصراع الفكرى بين مختلف الاتجاهات الفنية الا فى وقت متأخر نسبيا ، ولكنه عرف منذ بعيد دورة المراحل الادبية » ان جاز التعبير ٠ ففى الوقت الذى كانت تعانى فيه حضارتنا ويلات التخلف وانعدام الحرية والقهر الاجنبى وغياب التراث فضلا عن تمزقه ، لم يكن ثمة امكانية لان تتسع مرحلة بكاملها لعديد من التيارات تتصارع فيما بينها بحرية وتثمر تيارات جديدة لاتلبث أن تتوالد هى الاخرى ، وهكذا ٠٠ ان مناخنا غير الصحى لم يسمح بهذه الصورة الغنية الخصبة ، وانما كان يتيح الفرصة فى الأغلب لتيار رئيسى سائد يملأ اتساع المرحلة ، ثم يشتبك مع تيار جديد عند انتهائها ، فاذا ساد التيار الجديد لم يمنح لغيره فرصة التعبير المستقل ، وانما يظل على هامشه الى أن ينمو التيار الأكثر حدة وحداثة ٠ حضارتنا الفنية اذن ، قد مضت طيلة نصف قرن ـ هو مرحلة النهضة ـ فى خط طولى ، ولم تعرف خطوط العرض فضلا عن العمق والارتفاع الا فى فترة حديثة للغاية ٠ كان المناخ اللاديموقراطى المتخلف فى السياسة والاقتصاد يصوغ حضارة فنية فقيرة نسبيا لأنها وحيدة الجانب عديمة الحركة ، فهى ذات خط واحد يرفض الصراع أو التفاعل ـ وله العذر ـ لأنه ليس هناك ما يتصارع معه أو يتفاصل ٠

وقد أدى انعدام الاتصال بالواقع الخارجى أو أية تيارات جانبية أخرى ، الى

تقوقع الرومانسية المصرية في ذلك البناء الأسطورى الذى ارتاده يوسف السباعى، واتفقت الأسطورة الرومانسية لدى هذا الفنان مع رؤيته المثالية ومنطقه الفردى في تفسير الظواهر وتحليلها وتقييمها وعلاجها وصياغتها .

وربما كانت « انى راحلة » بالذات – وقد صدرت لأول مرة عام ١٩٥٠ – أقرب الى أن تكون همزة الوصل بين المرحلة السابقة والمرحلة الجديدة . هى تمت الى المرحلة السابقة بما تتضمنه من ثورة المؤلف على الفئات العليا من المجتمع البرجوازى ، ولكنها تتصل بالمرحلة الجديدة من خلال ذلك التخصص الحاد فى المشكلة العاطفية أو مأساة الغرام الرومانسى . واذا كنا نستطيع أن نقسم الأجيال القارئة لأدبنا الحديث الى ثلاثة أجيال رئيسية هى بالتتابع : جيل المنفلوطى ، جيل السباعى واحسان وعبدالحليم عبد الله ، جيل نجيب محفوظ ، فان هذا التقسيم التقريبى لا يخضع للنسبية الزمنية وانما يؤثر النسبية الفكرية عبر أرقام التوزيع . فالقلة القليلة من أدبائنا هم الذين يرتفعون الى مصاف الظاهرة الاجتماعية . ولقد كان المنفلوطى ظاهرة اجتماعية واضحة فى ثلاثينات هذا القرن حيث أبكى عيونا كثيرة ، وكذلك أضحى السباعى وعبد الحليم عبد الله واحسان عبد القدوس ممن تستهوى كتاباتهم جيلا كاملا من الشباب . أما نجيب محفوظ فبالرغم من معاصرته لهؤلاء الثلاثة من أبناء جيله ، الا أنه ظل يخاطب قطاعا ضيقا من القراء الى وقت قريب ، حين أتيح لفنه الواقعى مناخا صالحا للظهور ، وأصبح نجيب محفوظ بدوره ظاهرة اجتماعية واضحة فى مجال الرواية المصرية .

وفى كتابى « أزمة الجنس فى القصة العربية » أوضحت رأيى فيما يخص أدب احسان ، ولست بحاجة لأن أقول ان ثمة فروقا ضخمة بين كل من السباعى واحسان وعبد الحليم ، الا أن ما يجمعهم فى نطاق الظاهرة الاجتماعية المشتركة هو الاهتمام الأكبر بمشكلات الفتاة المصرية وأزمتها العاطفية فى تلك المرحلة الضارية الواقعة بين القيم الاقطاعية المتهالكة والعلاقات الاجتماعية الوافدة مع المجتمع البرجوازى .

ولعله من الشيق أن أوضح هذه النقطة على « الطبيعة » حيث قرأت «انى راحلة» من النسخة الموجودة بدار الكتب ، فأتيح لى أن أقرأ مع النص الروائى ، تعليقات القراء والقارئات من جيل الشباب ، وتواريخ قراءتهم لهـذا النص ، ومستوياتهم العلمية الرسمية . وقد لاحظت ان أقدم تاريخ للقراءة سجله صاحبه فى الصفحة الأخيرة من الرواية هو عام ١٩٥٢ وان أحدث تاريخ هو ١٩٦١ (ومعنى ذلك ان الرواية فاتحة لشهية القراء طوال عشر سنوات متواصلة) . كما لاحظت ان البيئات العلمية للقراء تختلف من كلية الطب الى كلية الآداب الى المدرسة الثانوية ، وأن القراء جميعهم من الشباب ، الذكور والاناث ، يركزون فى تعليقاتهم على نقطة محددة ، هى «الأسلوب» ونقطة عامة هى « الموضوع » . وهم جميعا يؤكدون تأثرهم البالغ بهذه القصة . ان هذا الاحصاء غير دقيق بالطبع ، وانما هو أقرب الى الانطباعة السريعة ، لأن الاحصاء الدقيق يتطلب الأرقام الرسمية للتوزيع ورواد دار الكتب . الا أننى أكتفى بالانطباع

السريع ، لأقول شيئا سريعا أيضا هو أن المشكلة العاطفية مشكلة « اجتماعية » في جوهرها ، وليست فردية على الاطلاق ، كما قد يظن البعض للوهلة الأولى • انها ليست شذوذا أو استثناء ، وانما هي ظاهرة حقيقية في المجتمع ، وهي مشكلة اجتماعية بالمعنى الواسع العميق ، الذي يحتوي أو يستوعب مختلف الطبقات وفئاتها المتفرعة • وهي مشكلة اجتماعية ، ثالثا ، عن طريق اتصالها الوثيق ببقية المشكلات التي يموج بها مجتمعنا •

من هنا يصبح المنطق الشكلي والرؤية المثالية الفردية هما السبب في أن يتخصص يوسف السباعي في محاصرة المأساة العاطفية بين جدران العلاقات الفردية بعيدا عن ضجيج المجتمع ومشكلاته • بالاضافة الى أن هذا المنطق وتلك الرؤية يحددان كما قلت الموقف الفني الدقيق الذي يقفه هذا الكاتب •

و « اني راحلة » تقول ان مؤلفها أحد أبناء الطبقة المتوسطة الثائرة في تاريخنا الحديث • وان هذا الكاتب لا يتجاوز أعتاب طبقته الاجتماعية ولا يتخطى مثلها وقيمها • وهو لذلك يثور طوال صفحات الرواية على الفئات العليا من البرجوازية المتعاونة مع القهر الأجنبي ، وهو أيضا يثور على الاقطاع بأفكاره وقيمه ، وتتوقف ثورته عند هذه الحدود : حـــدود الثورة الوطنية الديموقراطية التي أسهمت فيها الطبقة الوسطى المصرية بنصيب فعال • لهذا كانت « اني راحلة » هي قصة الضابط الذي تربى بعرق الجبين ، ودخل الكلية الحربية بسبقه الرياضي ، وفي الطرف الآخر هي قصة ابن الباشا المدلل الذي يرى الدنيا « عصبة ذئاب » وخاتمة الصراع هي تلك الفتاة الرومانسية الحالمة التي تنتمي الى أسرة الضابط الشاب عن طريق الدم ، ولكنها تنتمي الى الفتى الأرستقراطي المدلل عن طريق السلطة ، فهي ابنة « باشا » آخـر يسمونه في القاموس البرجوازي بالعصامي • وينتصر المؤلف بوضوح لجانب الضابط المكافح والفتاة ، ولكنه يلف هذا الانتصار في رداء الموت القاتم ، أو الاستشـــهاد الرومانسي كما يحلو للبعض أن يدعوه •

ان موقف يوسف السباعي ـ في المستوى الفكري ـ قد أصبح أكثر وضوحا وتحديدا من موقفه في المرحلة السابقة • فنحن هنا في « اني راحلة » مع شخصيات محددة طبقيا واجتماعيا ونفسيا ، كعائدة التي نشأت في كنف أب ركز كل جهده لينشئها على طبيعته الجامدة « وتفكيره العملي المادي » ويقتل في نفســها كل ميل للعاطفة أو الرقة أو الخيال ، لا تجسر ان تقول انها لا تريد فلانا لأنها تحب فلانا « اني لا أجرؤ قط أن أقول اني أحب » • فاذا أصر الأب على طغيانه باسم القيم ، دار هذا الحديث بين الفتاة وحبيبها •

« ـ وماذا أستطيع أن أفعل •• سوى أن أترك الأمر لله وللظروف ؟

ـ أعلينا أن نخضع ونستسلم ؟

ـ هل لدينا سوى ذلك ؟

ـ اذا كان هذا هو رأيك .. فكما ترين » .

ان السلطة الاجتماعية هي الأقوى لأنها صاحبة النفوذ ، أما القوى الجديدة الناشئة فهي الأضعف . وهكذا ينتهي الأمر بأن تعقد عايدة قرانها على توتو بك أو تهاني بك ، وهكذا أصبح الأمر يبدو أمامها وكأن اجراءات الزواج مجرد «عقد ايجار» أو « صفقة شراء » لا يقام ازاءها أي اعتبار لمشاعرها نحو حبيبها أحمد .. لهذا تتساءل في أسى « أتفاهم الأرواح وامتزاج الأنفس والقلوب .. لا يحلل الصلات التي أحلها ذلك الشيخ المعمم بكتاباته وقراءاته ؟ أضحى بهذه التفاهات الشكلية ملكا لرجل لا تربطني به أية صلة ، ولا أحس نحوه أقل عاطفة ؟. أتزيل هذه الكتابة كل عقبة .. بيني وبينه .. ويقف الحب العميق القوي مكتوف الأيدي ؟ أتتيح لى تلك الوثيقة المخطوطة .. أن أفعل .. ما لو فعلته بدونها ـ حتى مع أحمد ـ لاعتبرت فاسقة واستحققت الرجم بالحجارة ؟ يا لحمق التقاليد وسخفها ؟ » . والسباعي في هذه القصة حريص أشد الحرص على جلاء المستويات المختلفة للتمرد بعد أن أكد على قيمة التمرد في ذاتها باختياره هذه القضية بموضوعها أو هيكلها العظمى ، فهي أكثر القضايا والموضوعات « خصوصية » من حيث المظهر ، ولكنها من أكثر القضايا الخصبة بالدلالات العامة من حيث الجوهر . ان الفتاة تستسلم وحبيبها ييأس ، ولكننا نلتقي بنموذج ثالث هو شقيق الفتاة حين يصرخ في وجهها أن تثور وتقاوم وتحطم كل شيء « أتتركينها تذهب سدى .. انا لم نعد في زمن الاستعباد .. كيف ترغمين على زوج لا تريدينه ؟ .. هذا منك جبن وخور » .

ان المعركة التي أشعلها السباعي تتسم منذ البداية بالصدق والانفعال بعدالة القضية المطروحة للبحث ، فهي معركة التناقض المحتدم بين القيم السائدة رغم رجعيتها ، والعلاقات الاجتماعية الجديدة رغم تقدمها . وهو يختار شخصياته ويدير أحداثه ويحدد مواقفه وفقا لمنطقه الخاص ورؤيته المحددة . فالشخصيات الرئيسية تبرز من أسرتين رئيسيتين : الأسرة الأولى تنقسم بدورها الى فرعين ، أحدهما الفرع الوصولي الانتهازي الذي استطاع أن ينهض من وهاد الطبقة الوسطى الى مشارفها العليا ، والآخر الذي لم يستطع الا أن يبقى أسفل السلم البرجوازي يعاني شظف العيش والحرمان . الى الفرع الأول تنتمي عايدة ، والى الفرع الآخر ينتمي أحمد . أما الأسرة الثانية فهي أسرة « دولة زكي باشا » رئيس الوزراء السابق وابنه توتو بك أو تهاني بك . هاتان الأسرتان تشكلان الدعامة الفكرية الأولى في رواية « انى راحلة » لأنها من زاوية رئيسية تمثل قصة الصراع الطبقي بين الفئات السفلي والمتوسطة من البرجوازية والفئات العليا من نفس الطبقة مضافا اليها الاقطاع . هذا هو المحور الفكري للرواية ، أما الشكل العاطفي الذي جسد الصراع ، فقد باعد بين الرواية ومثالب التقريرية والمباشرة التي كانت بمثابة السمة البارزة في المرحلة السابقة من انتاج الكاتب . ولاشك أن الصراع الطبقي ليس مقصورا على الجانب الاقتصادي وان

كان هذا الجانب هو العامل الحاسم . فقد وافق والد عايدة على زواجها من توتو بك لمجرد العلاقة المصيرية المشتركة بينه وبين دولة زكي باشا • الا ان للصراع الطبقي انعكاسات أخرى عديدة تتولد منه وتتفرع عنه هي الصراعات الاجتماعية والنفسية والذهنية والعاطفية • من هنا ترضخ عايدة لزواجها من توتو بك ، وتحاول جهدها أن تحافظ على سمعتها معه وهو الرجل الداعر ، ولكنها مع ذلك بدأت تحس بالثورة تعتمل في نفسها « فقد كانت تلك هي الشكليات التي تحز في نفسها » • أجل ، فانه من المستطاع الرضوخ حينا لتلك الاجراءات الشكلية ، ولكنه من الصعب الحفاظ على مضمونها الرجعي المدمر • لهذا تصرخ عايدة من أعماق ضميرها المعذب : كفى استعبادا للشرف والتقاليد والقيود الزوجية • وهي لا تردد شعارا في بوق من نحاس ، وانما هي تؤكد كل قيمة جديدة آمنت بهـا منذ هجرت بيت الزوجية الملوث بدعارة ابن الباشا الى ان احترقت مع حبيبها الميت في ذلك الكوخ البعيد بالاسكندرية • القيمة الجديدة هي أن العقد الذي ربطها الى ذلك الزوج الخائن ليس الا عقدا تافها بالرغم من علمها أن هذا العقد التافه هو الشيء الوحيد الذي كان ينقصها وهي بين أحضـان أحمد حين هرولت اليه ، « لكي يجعل مني في نظركم امرأة شريفة ، ويجعل ممـا تسمونه فسقا عملا مشروعا تأتونه حين ترغبون » • هذه القيمة الجديدة هي التي تنطق بها عايدة قبيل خاتمة الرواية حين تقول : « علي أن أتزوج من أشاء •• أنا وحدي التي سأحتمل عبء زواجي •• وأنا التي سأشقى به وأتمتع ، وبعد سنوات سيرحل هو عن هذه الحياة •• ان حياة المرأة في زواجها •• فلها وحدها أن تنتقي شريك حياتها » • وكان عايدة كانت تتكلم بلسان المرأة المصرية الجـديدة ، ابنة الأزمة التاريخية في حضـارتنا الحديثة ، أزمة التناقض بين القيم القـديمة والعلاقات الاجتماعية الجديدة • لهذا ليس لنا أن نتساءل عما اذا كانت « اني راحلة » لها علاقة ما بهذا العالم الذي نعيش فيه لمجرد أن البناء الأسطوري للمأساة الرومانسية يصوغ أحداث الرواية بمعزل عن الواقع الخارجي ، بل يجب أن نعترف بأن « عايدة » في « اني راحلة » هي زميلة « أمينة » في « أنا حرة » لاحسان عبد القدوس ، وكلتاهما زميلة « نورا » للكاتب النرويجي العظيم هنريك ابسن • هي نموذج الفتاة الثائرة على أغلال القرون الوسطى من القيم الاقطاعية والمثل الموغلة في الرجعية • ربما كانت عايدة التي أحبت واحترقت بنيران حبها ليست تجسيدا فوتوغرافيا للفتاة المصرية ، ولكنها بلا جدال احدى الملامح المميزة لثورة الفتاة المصرية على التقاليد • وهـذا هو الوجه الأول لموقف يوسف السباعي — فكريا — من الحركة الاجتماعية ، انه موقف الكاتب المنتمي الى الطبقة الوسطى الثورية حينذاك •

أما الوجه الآخر لهذا الموقف فهو يتضح لنا من زاوية أخرى لا علاقة لها بمشكلة الحب • انها تلك العلاقة المباشرة بين الطبقات • والعلاقة تبدأ من الحوار بين عايدة وتوتو بك حين يقول لها انه لم يسمع عن المنفلوطي الا اذا كان رمانا فتحمد الله أنه يعرف شيئا مصريا ولو كان الرمان ، ولكنه يستأنف « أنا أكره كل شيء مصري • هذا

الشعب ما زال شعبا بدائيا .. شعب الفول المدمس والطعمية ، فتعلق عايدة بداخلها عليه : « هذا الرقيع الجالس بجوارى قد أعطانى نموذجا للطبقة العليا .. أستغفر الله بل الطبقة السفلى الرقيعة المدللة » .

ثم ينطلق بنا المؤلف مع زيارات عايدة ونزهاتها لنلتقى بنماذج هذه الفئة المرفهة خلقيا والمتماسكة اقتصاديا وسياسيا والمتفاهمة اجتماعيا . فالزوج من هذه النماذج لا يعبأ بخيانة زوجته له لأنه يبادلها الخيانة بانتظام . والفتاة من هذه النماذج أيضا تنكر أصلها المصرى وتجتهد فى ايجاد السلالة التركية التى تنبت منها . والأب يحرص على تبرير زواج ابنته من توتو بك لأنه يعلم أن المناصب فى هذا البلد وراثية ، وأن زكى باشا والد توتو يحتمل أن يعود الى الحكم فى أول انقلاب يحدث . كما يحرص على نصح الحبيب الخائب أن يعود أدراجه بدلا من أن يتطلع الى أعلى . ذلك أن توتو بك قد عين فى منصب رئيسى فى احدى الشركات الأجنبية الكبرى . وفى صفحة كاملة يحلل الفنان كيف ينشأ جيل العاطلين بالوراثة من كدح الملايين على مر الزمن . ثم يضىء لحظة الوعى الحاد فى ضمير عايدة حين تقول فيما يشبه الاستسلام ، ولكنه ليس من الاستسلام فى شىء وانما هو أقرب الى الكشف : « ليفعل زوجى ما يفعل .. فما توقعت منه الا كل نقيض .. وما كان لى أن أدهش من أى منكر تأتيه عصبة .. عصبة الذوات المدللة المرفهة .. الارستقراطية العليا .. القديرة على كل سفالة .. الرقيعة المتهتكة .. الراطنة بالفرنسية .. المترفعة عن الشعب .. شعب الهمج والأوباش » .

هذان الوجهان ـ المباشر وغير المباشر ـ يوضحان طبيعة الموقف الأيديولوجى والحضارى للكاتب ، فهو موقف الفنان ابن الطبقة المتوسطة الثورية فى مجتمع متخلف وغير ديموقراطى ومقهور . هذا الموقف الذى يرى من الحركة الاجتماعية فى مصر جانبا جزئيا ولا يتمكن من رؤية الصورة الشاملة ، ولهذا أيضا كانت ثورية مثل هذا الفنان محدودة بأسوار العواطف والقيم والمثل والأفكار الخاصة بالطبقة الوسطى وكلها تنشد التغيير الجزئى فى اطار الاستقلال الوطنى والديموقراطية البرجوازية ولا تدرى شيئا عن التغيير الجذرى فى اطار الثورة الاجتماعية . ومن هنا كانت « الأسطورة الرومانسية » أكثر القوالب والمضامين الفنية تجسيدا لأزمة الطبقة المتوسطة بعواطفها وقيمها ومثلها وأفكارها . ولقد اختار الفنان الشكل العاطفى لمأساة الحب حدودا لعمله الروائى . فلنتابع اذن منهجه فى التعبير كما تابعنا منهجه فى التفكير .

عندما كان السباعى فى المرحلة الاولى يترك لنفسه العنان فى صياغة عصره بكل ما يعتمل بين جنباته من صراعات ثقافية ولغوية واجتماعية ، كنا نراه يعكس فى أمانة وصدق كل ما يموج به مجتمعه من مشكلات فى المجال الأدبى ، فهو تارة يكتب بالفصحى وآنا بالعامية وآنا ثالثا بمزيج من هذه وتلك ، أما فى مرحلته الجديدة فقد أصبح محددا حتى فى الاطار اللغوى فقد اختار الفصحى بشكل حاسم أداة للتعبير

اللفظى . وكم خانه التوفيق حين استلزم الامر أن يضع على لسان احدى الشخصيات المتواضعة ذهنا وثقافة كلاما لا ينطق به سوى المثقفون (من الناحية اللغوية) ٠ وكم خانه التوفيق حين اضطر الى وضع بضع كلمات أجنبية كما هى (فى حروف عربية) ليمنح الموقف صورته الطبيعية ، أو حين اضطر الى تسجيل حوار عامى بين قوسين ، او حين يكرر كليشيها محفوظا دفع قارئا أو قارئة (فى ص ٣٥٧ من النسخة الموجودة بدار الكتب تحت رقم ٤٤٣١ ـ ١٩٥٠ ورقم ز ـ ١٩٣٥١) أن يكتب فى هامش الصفحة المذكورة أمام عبارة «دون أن ينبس ببنت شفة» هذه الملاحظة : «لاتكثر منها ياسباعى» وهى ملاحظة ذكية بلا شك لا لأن هذه الجملة تكررت كثيرا فحسب ، بل لأن القارىء يحس أن التعبير يجمد شعورا ما فى قالب جاهز لايحتاج لمعاناة يشترك القارىء مع الشخصية الفنية فى بذلها ، ولا يمكن أن تتم الا اذا كانت صدى لمعاناة الفنان ، ان قضية اللغة فى (انى راحلة) ، ليست مستقلة عن الرؤية المثالية المتميزة بالسكونية والثبات ، فهذه السكونية وذاك الثبات يولدان الاحساس بالرهبة والخشية أمام الفصحى والقلق من كونها «اللغة الرسمية» من ناحية ، وعدم قدرتها فى بعض الأحيان أن تعبر تماما عما تريده الشخصية من ناحية أخرى ، وتلتقى الفصحى بمقولاتها الجاهزة مع الفكرة الرومانسية عن الاسلوب التى بهرت معظم الشباب الذين قرأوا الرواية وسجلوا اعجابهم بما دعوه «أسلوبها» فالأسلوب عندهم فى الاغلب هو المستوى اللفظى للغة الشفافة التى يتخاطب بها العشاق ، ان هذا الاسلوب «الشاعرى» ـ كما يحلو للبعض أن يدعونه خطا ـ كثيرا ما يقع فى هاوية التقرير المباشر الذى يخرج بالسرد الروائى عن السياق الفنى كما نلاحظ على عايدة حين راحت تقول : « أيعيبكم بعد ذلك تفسير السعادة ؟ » ثم راحت تشرح معنى السعادة ، أو حين تتساءل « هل لكم أن تعذرونى فى محاولتى وضع تلك التفاصيل التافهة » ثم تذهب فتسرد علينا مايمكن الاكتفاء عنه بالحدث نفسه ، كذلك يصبح دور الطبيعة فى مثل هذا الاطار اللغوى الجامد دورا فقيرا للغاية لانها لاتشارك الانسان روعة التفاعل الحى العميق بين الواقع والمثال ، وانما تصبح مرآة أو عدسة فوتوغرافية تجسد مشاعر الانسان بصورة ميكانيكية ، ولا ريب أن الطبيعة عند عظام الرومانسيين تمثل دورا خطيرا فى حياة الانسان الرومانسى على المستويين الفكرى والفنى ، فهى من ناحية ملاذ الانسان المفجوع فى الحضارة الصناعية ، لانها تمثل له بكارة الارض العذراء ، وبراءة الطفولة بما يشتملان عليه من حرية لم يعرفها سوى انسان الغابة ٠

ولقد عرفت الطبيعة كتابات فكرية مباشرة احتضنتها وعانقتها وقدستها ، كما نرى عند روسو وثورو ، ولكنها أيضا على المستوى الفنى استطاعت أن تلهم مئات الكتاب والفنانين صورا خالدة لذلك اللقاء الحى المعقد بين الكائن الانسانى بمشكلاته المختلفة كيفيا ، وبين الطبيعة التى تلعب دور الخصم والأم الرؤوم فى آن واحد ، ولقد تجمدت الطبيعة فى أدبنا منذ صاغها هيكل فى تلك القوالب اللغوية المتشابهة ٠ ولم يتمكن المنفلوطى من انقاذها للجوئه الى الترجمات الاوربية ، وربما كان الشعر هو الفن الوحيد الذى أخلص للطبيعة المصرية ، خاصة فى ديوانى محمود حسن اسماعيل

الرائعين (أغانى الكوخ) و (أين المفر) ، هذه اللغة الفصحى المتزمتة والتقريرية والعور القاصر للطبيعة ، ألقت جميعها أمام السباعى بمشكلة جديدة شديدة التعقيد هى مشكلة « الايهام بالواقع » ·

فبالرغم من الرومانسية الحالمة لابد للكاتب من أن يتوسل ببعض مظاهر الواقع ليعيش القارىء بين الشخصيات والأحداث والمواقف كواحد منها لا كغريب عنها ·· ان الآفات الثلاث السابقة حرمت السباعى من الوصول الى أدوات جيدة ، للايهام بالواقع ، فراح يلجأ الى مثل هذه العبارة « ولست أريد أن أمعن فى المبالغة أو أكون روائية الحديث » أو «تلك أشياء لاوجود لها الا فى القصص» ·

ان الأسلوب الرومانسى فى مستوى البناء الروائى – لافى المستوى اللفظى للغة – يثير العديد من القضايا الفنية الخاصة بالخيال والحلم والمفاجأة وغيرها من مكونات البناء الرومانسى للرواية · وكم وفق السباعى فى استخدام «الخيال» كعنصر رئيسى من عناصر الصياغة الروائية ، وكمقابل للمونولوج الداخلى الذى تتسم به الرواية الحديثة ، فالخيال الرومانسى يستدرج الشخصية من واقعها الأليم أو السعيد على حد سواء الى مرحلة من التداعى الذهنى لا يستقر على أرض الواقع الصلبة الا بموافقة الحدث الواقعى ، والتداعى الذهنى يختلف عن الحوار الداخلى الذى يتسم بالتدفق النفسى فى الارتباط المنطقى المتسق من العبارات والصور ، وكما كانت الفصحى والتقريرية والطبيعية الساكنة من عقبات «الايهام بالواقع» ، كذلك كان الافراط فى التداعى الذهنى من عناصر البتر التى أصابت السياق الروائى حين يقول المؤلف : « وفى ذات غروب حدث كذا ، ولكن المؤلف كان يعوض هذا النقص بفكرة فنية مقابلة هى التعاقب الزمنى السريع من لحظة الفرح الى لحظة الألم ، فقد كان هذا التعاقب بمثابة أداة التشويق التى يجيد الفنان استخدامها ، كذلك يعد يوسف السباعى من أوائل الروائيين المصريين الذين استخدموا فكرة «الحلم» بمعناه الرومانسى ، أى ذلك الحلم الذى لا تفسره الأحداث ، كما أنه لايفسرها ، بل هو يخطط عالم الامانى ويتجاوز أعتاب الحاضر الى المستقبل الضبابى غير المرئى ، ومن ثم تأتى أحداث المستقبل تحمل فى أحشائها جنين المأساة بمجرد اصطدامها بتلك الجبال من الاحلام · هكذا كانت تحلم عايدة بفارسها الحبيب وهى فى غمرة المشاكل الخاصة بالزواج من توتو بك ، ولكنها اذا تجاوزت الحلم الى عتبات الواقع اصطدمت مباشرة بالعدو الأبدى : الموت ·

ان الماضى أيضا يلعب دورا خطيرا فى الاسطورة الرومانسية ، فهو الملجأ الذى يستند عليه الحلم ، وهو المنبع الذى تتدفق منه الذكريات · الماضى هو أصلح المواد الروائية لاستخلاص حكمة السلف ، لهذا يكثر السباعى من اقتباس الشعر ·· ولا يقتصر الأمر لدى الفنان الرومانسى على اشراك «الزمان» ، كالماضى فى البناء الرومانسى للعمل الروائى ، بل يشرك «المكان» أيضا كالشرفة ، والشخصيات كالفارس ، وكلها مستمد من التقاليد العريقة للأدب الرومانسى فى الغرب ·

لقد سبق أن قلت أن الأسطورة الرومانسية هى غرفة مقفلة محكمة الغلق تتوهج بحرارة الغرام الرومانسى ، ثم تغلى وتغلى حتى يحدث الانفجار ، وحان الوقت لأضيف أن هذا الغليان حافل بالمفاجآت ، وان هذا الانفجار هو الخاتمة الفاجعة لقصة الحب كأن يموت البطل أو البطلة أو هما معـــا كما حدث فى (انى راحلة) والمفـــاجآت الرومانسية تقرب من حافة المستحيل كأن يلتقى العاشقان عند الساقية المهجورة فى عتمة الليل فى لحظة واحدة دون موعد سابق ، أو أن تموت زوجة العاشق فى نفس الليلة التى يموت فيها زوج العاشقة أدبيا بخيانة لها ، أو ان يموت العاشق بين يدى حبيبته عند ما تنتهى كل الصعاب ويبدأ حبها بأخذ طريقه الى التحقيق ، هذه المفاجآت كلها لا تعتمد على تركيزة فكرية تستلهم لنفسها بناء فنيا ، وانما هى تستهدف تركيز «الوقع الفاجع» للمأساة فى قلب القارىء ووعيه ، حقا ، نحن نلتقى بالقدر الرومانسى الذى يؤمن به العشاق طوال الرواية ، ولكن هذا القدر لايقوم بأى دور فكرى يتجاوز أحداث الرواية المرئية الى دلالات بعيدة المدى ، ولهذا تقف المفاجآت التى تحفل بهـا الرواية دون أية مبررات تقيها شر الهزيمة الفنية حين تفتقر الى الصدق ، وحين تتوقف الشحنة الانفعالية من التجاوب مع أحاسيس القارىء ووجدانه. هذه المجموعةمن عناصر السلب والايجاب تؤكد لنا مرة أخرى أن رواية (انى راحلة) كانت همزة الوصل بين مرحلة «الفانتازيا الفاجعة» والمرحلة الجديدة التى دعوناها بـ «الاسطورة الرومانسية».



العذاب

بقلم
أحمد هاشم الشريف

لما اعاد ابى سؤاله لى كنت احاول ان أتمالك نفسى ، حتى لا تبدو رنة الاسى فى صوتى ، ولكن محاولتى باءت بالفشل وفوجئت بأنى اقل شجاعة مما كنت اتوقع واقل تماسكا . حركت راسى بالنفى ، وكنت صادقا فى ذلك اذ لم اكن بدات البكاء فعلا ولكن عندما نكست راسى واغمضت عينى ، بدات دموعى تهرب من السجن الذى فرضته عليها ، بدات تلسع جفونى ، ثم تهبط على جانبى انفى وشعرت بطعم مالح فى فمى .

لقد شعرت بنفس الطعم المالح من يومين ، عندما حضر الطبيب ، وامر امى ــ وهو يهبط السلم ، بضرورة عزل ابى عنا ، فاستسلمت لنزيف استمر بعض الوقت ، اذ لم تكن هناك فرصة لرؤيته بعد ذلك ، كما تصورت . ولكن كان فى الامكان سماع صوته بوضوح فى الليل عندما يسعل . قلت لأختى فى صباح اليوم التالى ونحن نعبر الطريق امام المستشفى الاميرى عائدين الى البيت بالدواء :

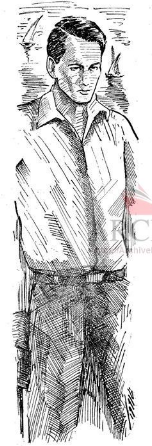
ــ « يشبه المرض المدى التاجر الجشع عندما يحل بسوق رائجة فهو لا يقنع باى مكسب مهما زاد ولا يرضى بعقد صفقة واحدة مربحة ، السابقة تغريه بالدخول فى اللاحقة » ، فأجابت بالصمت وتحاشت النظر الى وجهى .

فى العام الماضى ، كان نفس المرض ينصب شباكه لأخى الاصغر ، ولم يمض وقت طويل حتى انتزعه منا ، ولم يكن فى وسعنا أن نتحرر من الجو القاتم الذى احاط بنا ، بأسرتنا كلها ، والدى ووالدتى واختى وانا ، استطاع الجو القاتم ان يحجب كلا منا عن الاخر ، فالاحزان كما يمكنها تجميع الناس حول الفاجعة ،يمكنها أيضا أن تفرقهم ، ينفرد كل واحد بعالم خاص ، ويستقل بحزن منفرد ، وهذا ما حدث فى العام الماضى ، وفى الايام الاخيرة من شهر سبتمبر على وجه التحديد .

بعد عودتى الى البيت رفض ابى أن يتناول الدواء رغم الحاح أمى ، وساد البيت صمت جلست خلاله أقلب فى مذكرات العام الماضى .

***

فى الايام الاولى التى اعقبت وقوع المأساة كان هناك ناس كثيرون ، من مدينة سوهاج نفسها ومن خارجها ، جيران واقارب ، اشتركوا جميعا فى تشييع الجنازة عند العصر ، ومع انى



كنت معهم فلا أذكر أنى تعرفت عليهم أو احسست بوجودهم . وفى الليل جلسوا فى السرادق ساهمين منكسى الرءوس ، سحنة واحدة ووضع واحد فرضته التقاليد ، يصافحون كل قادم بأجفان مرتخية ويد متخاذلة يحركون رءوسهم بعلامة الرفض ، عندما يتوقف الخادم بالقهوة عندهم ، وبعضهم لايكاد يعيره اهتماما .

***

ظل الميكروفون يدوى فى الشارع ثلاثة ايام ، علو صوته يستمد من فداحة المأساة لا من اسلاك الكهرباء ، فى البيت كانت هناك واعظة سمينة يجلجل صوتها فى انحاء الشقة يثير الاعصاب قبل أن يهدئها .

وبعد أن انتهى كل ذلك بدأ الحزن الحقيقى .

***

كان العام الدراسى قد بدأ فعلا ، واعد اخى الراحل كل شىء يلزم لذلك ، وتصورت نفسى وانا أقطع الطريق الى المدرسة بدونه ، أمر على مبنى المستشفى ومبنى السجن ، ثم أعبر الطريق الى شارع البحر ، ولقد قطعت هذا الطريق بعد ذلك بالفعل ، قطعته بدونه ، وصدقت أخيرا انه مات فعلا ، وهنا فقط ، وليس قبل ذلك ، بدا العذاب ..

يخيل الى ان اصدقائى فى المدرسة تغيروا ، فلم يعد الحماس القديم يظهر فى حركة أيديهم كما أن اللمعة الصادقة التى كانت تملأ نظراتهم نحوى ، انطفأت تماما . ولقد لاحظت نفس الشىء على المدرسين ايضا ، لا بالنسبة الى ، ولكن

بالنسبة للجميع ، ففى الفصل المجاور لنا كنا نسمع صوت الطلبة يصرخون فى احتجاج من معاملة المدرسين لهم ، وفى صباح اليوم التالى مباشرة نرى ثلاثة منهم على الاقل يحملون اوراقهم بعد ان فصلتهم المدرسة ومعهم أولياء امورهم يطحنون أسنانهم فى غيظ واكاد أصرخ قائلا :

– انهم مظلومون ... الطلبة دائما مظلومون ...

وامنع نفسى من ذلك فى اللحظات الاخيرة ...

***

بعد هذه الحادثة بالضبط انقلب كل شىء فى المدرسة رأسا على عقب ، واصبح الظلم هو الاساس والعدل هو الاستثناء ، وكان فى استطاعة مدرسينا ان يتجاوزوا الدروس بدون شرح ، ويشتمونا بالفاظ نابية يخجل من نطقها الرعاع ، ويقضون الحصص فى كلام فارغ ، وقد حكى لنا واحد منهم ذكرياته عندما كان حدث السن ، مراهقا مثلنا ، واثناء ذلك كان يعمل اشارات بيديه ويلعب حواجبه لنفهم ما يحكيه لنا بسرعة .

ولقد اغمضت عينى بعد ذلك ، ثم فتحتهما ، دون تصديق ، عندما انتهى اليوم الدراسى ، وجريت بعد ذلك فى الشمس ، ولم أرجع الى المدرسة عندما اكتشفت ان يدى فارغة ، واننى نسيت كتبى ، ولم اتوقف لأجفف العرق الذى انهمر من جبهتى وبدأ يدخل فى عينى ، ولكن بعد ان كدت اصطدم باحدى العربات رحت انقل خطواتى فى صعوبة كبيرة وأنا لا هث الانفاس .

كنت قد وصلت الى شارع البحر ، وهناك قابلت اختى ورأينا زحاما وسمعت استغاثة وصوت احتكاك عجلات سيارة بالاسفلت لوقوفها فجأة ، ثم تجمع الناس حول مصدر الصوت وساد الصمت ، لابد انهم يتابعون فى هلع مكتوم فى الصدور ، نهاية المأساة .

قلت لأختى وانا انظر الى الزحام فى بلادة :

الصمت يعذب الانسان ، بلا ريب ، اكثر من عذاب السكون ، فانت ترين امامك اشخاصا صامتين ، وتدركين أن فى امكانهم الكلام ، ولكن شيئا مجهولا يحول دون ذلك .

ولقد تفرق الناس بعد لحظات ، وعادوا يتحدثون ببساطة ويشرحون لمن لم يسعه التفكير او تأخر عن الرؤية ، يبدو ان شيئا خطيرا لم يحدث مع انى توقعت ان يموت انسان على الاقل ، اى انسان ، وهبت نسمة خفيفة كادت تلطف من حرارة الجو ، وأنا أحاول ان اتأمل ما حولى .

يحتفظ شارع البحر عندى بمنزلة خاصة ، ويمثل لى عالما مستقلا بنفسه ، منفردا بروعته وسحره رغم ترددى الدائم عليه . وقد اخطأ الناس فى التسمية التى اطلقوها على الشارع ، رغم ذلك لم ينس اهل المدينة لحظة انه النيل ، المجرى المتكاسل الطويل ، وفى الريف يحدث العكس تماما ، ينسى الفلاحون تعذيبه لهم كل عام ، عندما يفسد محاصيلهم ويهدم جسورهم ويفرق قراهم ، يفرحون به ويهللون لمقدمه فى سذاجة الاطفال ، بينما يدخل بيوتهم ويكشف اسرارهم ويستبيح

لنفسه اعراض نسائهم ، يسقيهم ماء ملوثا بالطين الاحمر ويحمل اليهم عدوى الأنكلستوما والبلهارسيا ويحتضن ديدانها ، ومع ذلك فهم يستقبلونه كضيف معزز مكرم ، يضمونه فى شوق حتى يضيق مجراه ، ويحيطونه بكل ما هو أخضر ،اساءته يردونها له حسنات. وعندما يصل الى المدينة بتجبر شأن الطغاة ويكشف الناس عن اتساع مجراه وسرعة تياره .

وقد ذكرت لى أختى اليوم معلومات غريبة ، قالت ان النيل يرتفع ليأخذ شيئا عزيزا علينا ثم يهبط به فى جوف الارض ليمتص دمه فى صمت ، ودون ان يراه احد ، ولكن سرعان ما يتلون ماؤه باللون الاحمر ، دليل الجريمة الشنعاء ، وفى العام التالى يفيض حاملا معه الخصب ليسترضينا ويكفر عن ذنبه .

ومع ذلك اخذتنى روعة المنظر وانا اراقب المراكب الشراعية وهى تبدأ رحلتها المجهولة ، تفرد أشرعتها البيضاء على الصوارى ، كأنها تطلب من النيل الامان ، وتحل ما يربطها بالشاطىء فى هدوء . وقلت لنفسى : ان الوداع مؤلم اذا تم بهذه الطريقة ، وهناك فى البيت يريدون أن يتم كل شىء على هذا المنوال .

جلست افكر وانا اغلق مذكرات العام الماضى .. وقلت لنفسى : ان الايام فقدت شخصيتها ــ الايام بدأت تتشابه، بعد النزيف الذى تعرضت له امس ، والدموع التى حاولت حبسها عنهم فنطقت بكل شىء ، بدأوا يعاملونى بطريقة جديدة ، واكاد اجزم ان هناك أخبارا هامة يحفظونها عنى ، تنقل من امى الى اختى فى تكتم شديد . ولقد حان الوقت ــ فى رأيى ــ لاعلانها ..

فى المساء جلست الى مكتبى وانا استرجع مرة اخرى ذكريات العام الماضى ، وافكر فيما حدث من بكاء ، وزيارة الطبيب الاخيرة وامره بعزل ابى عنا ، وامامى لوحة النتيجة ، تعلن نهاية شهر سبتمبر ، بدا لى الرقم فى شكل غير مالوف يكاد يرفع يديه فى حسرة المسافر الذى ركع أمام الامر الواقع ، وباس يديه ورجليه ثم استعد ــ وجبهته فى التراب ــ لألم الفراق ..

سمعت صوت اختى فى الحجرة المجاورة ، يبدو لى انها تستعد للغد ، بداية العام الدراسى الجديد ..

هناك اشياء تحدث فى وقت مبكر من حياة الانسان وتظل محفورة فى الذهن مهما تقدم السن ، فعندما كانت أختى صغيرة ، فى نحو التاسعة تقريبا ، كان على أبى أن يسافر فى مهمة عاجلة الى القاهرة ، وركبنا عربة حنطور من ميدان العارف ، جلست أختى بداخلها الى جانب أبى ، وبدت على اتم ما تكون عقلا واتزانا ، ولكن ما أن حانت لحظة الرحيل وتحرك القطار ، حتى تهاوت وتمزق ستار عقلها واتزانها عن بكاء مؤلم ، لم ينقطع الا بعد أن طوقتها بذراعى . وقد حكيت ما حدث لأبى عند عودته ، وكنا نتمشى فى شارع البحر ، فامسك بذراعى وبدا عليه التفكير العميق ثم قال اخيرا ، وهو يراقب مركبا يبتعد عن الشاطىء .

ــ «الحياة قانونها الحب يا ولدى».
وتوقف لحظة عندما خذله صوته وهو ينطق بالكلمة الاخيرة ، ثم استمر فى صوت هادىء :

ـ « قانونها التجاذب . التعساء محكوم عليهم بالعزلة ، بالانفصال .. »

وكان ذلك قبل ان يحل التاجر الجشع بسوقنا وينصب شباكه لأخى الأصفر .

بمضى الوقت تأكدت من صدق هذا الكلام . فعندما بدأت اليوم ، لاول مرة، سيرى المعتاد فى طريقى الى المدرسة ، بعد غيبة ثلاثة اشهر ، احسست بلوعة مضينة وأنا افارق حياة المنزل وارتبط بالمدرسة من جديد. وكانت أختى تصحبنى فى ذلك اليوم ، وقد لزمت الصمت على غير عادتها ، قلت لها عند مرورنا امام مبنى المستشفى : « ان المرضى يتعذبون .. »

فأومأت لى بالايجاب ، ولم تنطق بحرف واحد يشجع على استمرار الحديث .. كنت أريد أن اقول لها : « ليس ذلك بسبب المرض ، ولكن بسبب مفارقتهم لأحبائهم .. » ولكنى احجمت عن ذلك ، وبدا لنا مبنى السجن ، وهو يقترب منا بأسواره الصماء شيئا مخيفا حقا .. قضبانه الضخمة على النوافذ ، رمز العزلة الخالد .

وتركت أختى لتدخل مدرستها قبل أن أعبر الطريق الى شارع البحر ، كان كل شىء يبدو كما هو ، النيل فى وقت الفيضان ، لم اجد ما يشجعنى على النظر اليه وأشرعة المراكب مطوية على الصوارى كأنها نوت الاقامة والاستقرار الى الابد ، يميل بعضها على البعض الآخر ولكن دون تلاق ، وفى المدرسة وجدت الطلاب الثلاثة الذين فصلوا فى العام الماضى ، منتظمين فى المدرسة من جديد . وفى الفصل المجاور لنا ايضا ، ولكن نفس الجو القديم لم يتغير، بل ان معاملة المدرسين لهم ازدادت حدة . ومع ذلك أصبح من النادر ان نسمع صوت احتجاج .. وقد صافحنى اصدقائى فى حماس .. لكنه حماس وقتى بدا فاترا . بعد لحظات تثاءبنا بعد ، ثم افترقنا ، الى غير امل فى لقاء . ولم يعد مدرسونا يتجاوزون الدروس بدون شرح أو يشتموننا فى الفصل بالفاظ الرعاع ، او يقضون الحصص فى رواية مغامرات الشباب ، كانوا يبدأون الدروس فعلا بمجرد دخولهم الفصل ، ولكن بطريقة لم نفهم منها شيئا على الاطلاق .

ولم اتعجل نهاية اليوم الدراسى كما فعلت فى العام الماضى واعتقد أن الباقين مثلى . كان العذاب قد استقر بين ضلوع كل واحد منا ، دون ان يحاول انتزاعه . لم انس كتبى هذه المرة بل حملتها فى يدى ، وسرت تحت وهج الشمس ببطء ، منتهى البطء . وكنت على استعداد لان احمل اى شىء ثقيل واسير على هذا الحال ، واتمنى من قلبى بحرارة واخلاص الا ينتهى الطريق .

فى شارع البحر كانت المراكب تفرد أشرعتها على الصوارى تحت ضوء الشمس وقد رأيتها مطوية هذا الصباح ، كنت على خطأ عندما اعتقدت أن اقامتها ستطول ، واقتربت من السياج الفاصل بين الشارع والنيل ، ورأيت العمال يفكون الحبال التى تشد المراكب للشاطىء والهواء بدا يهز الأشرعة كأنما يستحثها على بدء رحلتها المجهولة .

لم اتوقع ابدا ان النيل سيهبط فجأة الى هذا الحد ، كانت مفاجأة لى ، وتذكرت ما قالته اختى لى عن النيل ، فأسرعت تحت ضربات الشمس وتصبب العرق البارد من جبينى ، الى مدرسة اختى، كانت واقفة فى انتظارى، فأخذت يدها فى راحة يدى ، وبدانا نقطع شارع السجن ، والمستشفى ، لا ادرى لماذا اعاد صمتها الى ذاكرتى اليوم الذى سافر فيه ابى ، والتزامها الصمت وقدرتها على كتمان مشاعرها حتى لحظة الرحيل ، تشاغلت عنها بالقراءة فى احد كتبى ، فتحت عفوا احدى الصفحات فوجدت مكتوبا فيها :

ستمر علينا أيام بلا اسماء ..

ويختلط الزمن ..

وتطرح الاشجار ثمارا بلا طعم ..

وزهورا بلا رائحة ..

ويفقد الناس ملامحهم ..

وعندما تموت الحسرة فى قلوبنا ..

تدفن فيها ..

ويوم البعث يسألنا الاله باستغراب:

– هل هذه هى القلوب التى أودعتها بين ضلوعكم .. ؟

وتركنا مبنى السجن ومبنى المستشفى ، وبدانا نقترب من البيت.. كنت واثقا من أنها تغالب الدموع ، ولما طوقتها بذراعى اعتقدت ان ذلك سيهدىء من حالتها ، لكنى فوجئت بها تنفجر فى بكاء مؤلم استمر طويلا ...



الزوجة الخجلى

للكاتب الاوزبكى : عبد الله عبد القهار

ترجمة : مرتضى عبد الغفار

ولد عبد الله عبد القهار فى عام ١٩٠٧ فى خوقند وهى مدينة فى اقليم فرغانة وكان والده حدادا . وقد أسهم فى شبابه مساهمة ايجابية فى عمل عصبة الشبيبة الوطنية وانتظم فى الدراسات العليا بمعهد طشقند للغويات والادب المقارن . وظهر اول مرة فى العشرينات ناظما للشعر ثم كاتبا للقصة القصيرة . كما عمل مراسلا للصحافة السوفيتية فى أوزبكستان واتخذ موضوعا لكتاباته ، فى مؤلفاته المبكرة ، تاريخ امته والسنوات الاولى لحكم السوفييت والصراع مع الرجعية والخرافات المتأصلة جذورها كما تناول فى كتاباته أيضا النمو الروحى لشعب اوزبكستان المعاصر .

أتذكر . يا قارئى العزيز ، ندوة الشاى المعروفة الشديدة الجلبة الى جوار القنطرة القديمة المطلة شرفتها الخضراء الجميلة على قناة الرى التى تهمس مياهها فى هدوء ؟ ..

انه سؤال مثير فبطل قصتنا هذه قد تعود أن يعرج على هذه الندوة بلا استثناء عند عودته الى البيت من السوق الواقعة على الضفة اليمنى للقناة على حين ان بيته ...

لكن دعنا نلتزم بالاوضاع المالوفة فى القص فنبدأ بتقديم هذا الرجل ، واسمه ناركوزى أو بالكامل : الملا ناركوزى . ويقع بيته على الضفة اليسرى للقناة ، وفوق هذا فان حياة هذا الملا ترتبط ارتباطا وثيقا بالسوق ولان ندوة الشاى فى منتصف الطريق بين السوق والبيت فمن اليسير على القارىء أن يقدر عدد المرات التى اختلف فيها الرجل الى تلك الصالة . وفى مقدورنا أن نشهد بانه قضى نحو نصف يوم هناك ، بل نستطيع أن نقسم ان حياة الملا ناركوزى كادت تتسم بالسآمة والضيق لو اننا ننكر عليه زوراته اليومية للشرفة الخضراء التى تظللها فى أناقة أشجار ساذجة .

وعلى مر الزمن استوثقت صلاته بكل شىء فى ندوة الندوة . وكان اذا أقبل على الندوة أومأ بايماءة الموافق الى السجاجيد الباهتة والى أباريق الشاى المصفوفة على الوتيرة المعهودة ، والى الاكداس السمراء من الكعك المسطح . كما تعانق نظراته الشرائط اللزجة التى تعلق هنا وهناك لصيد الذباب .

ولسنا فى حاجة الى ذكر الابتسامات المرحة التى يوزعها الملا الموقر على رواد

الندوة الذين اتخذ من نخبة قليلة منهم أصدقاء له . وبخاصة من رغب منهم فى مشاركته الاستمتاع الطويل بشرب الشاى ومجاذبته الاحاديث التى لا تقل عن ذلك طولا .

وللسيد الملا بينهم مكان الصدارة للباقته فى الحديث فاذا بدأ يتكلم أمسكوا جميعا عن الحديث ولا سيما حين يتناول حديثه موضوع النساء التى تحيد عن سواء السبيل . وما كان السيد نارزوكى ليهادن بحال أولئك النسوة المارقات أو المخلوقات التافهة التى غاض منها الحياء . واذا استرسل فى حديثه ذلك لائما أو عاتبا بلغت فصاحته ذراها . وربما صب جام غضبه على صبية صغيرة لا تستطيع أن تميز بين الهدى والضلال ، وحينئذ يصرف السيد الملا لومه الى أبويها .

لاحظ ذات يوم أن ابنة عبد الحكيم الصانع كانت تجول فى السوق دون خمار فلم ينح باللائمة عليها بل على أبيها واندفع يقول بسخط ينطوى على اخلاص . مابال عبد الحكيم لا يفكر فى الامر وقد بلغت ابنته اثنى عشر عاما وما زالت تغدو وتروح سافرة الوجه.. ماذا تكون العاقبة ؟ ان ابن السيد مافلان الصانع نفحها بحفنة من الزبيب ولم تفر منه تلك اللعوب السافرة أو على الأقل تستر وجهها بكمها . وتافف قائلا : بل ضحكت ضحكة فاترة وتثنت أمامه كالقرد ... سيأتى ذلك اليوم الذى يندم فيه عبد الحكيم ولات ساعة مندم .

وبعد أن نفس بطلنا عما يكتمه فى صدره من موجدة جعل يتنهد بعمق ويستغرق فى تفكير، ومرت فترة صمت أعاد فيها صاحب الندوة ملء أكواب الشاى . ولم يكد ينصرف حتى أنعش الملا نفسه برشفة من كوبه وانطلق فى اتهاماته قائلا وهو يشير باصبعه الطويلة النحيلة : لقد راعى أجدادنا واسلافهم التقاليد وقدسوها ولذلك أكرمهم الله ولم يحرمهم حسن الادراك فامكنهم أن يميزوا الاسود من الابيض والخير من الشر ... نعم ... لم يسمح آباؤنا وأجدادنا لنسائهم بالتسكع فى الشوارع من غير حجاب . واليوم ماذا دهانا لقد أصبح ظهور المرأة المحجبة اليوم أشد ندرة من ظهور المرأة السافرة فى عهودنا الماضية ، ولنضرب مثلا بما يحدث فى شارعنا . كم من النساء طرحن الحجاب وهو الدرع التى ثبتت صلاحيته للحفاظ على حياة المرأة وخفرها ؟ دعنا نحصهن : زوجة ساتيبالدا التى تعمل فى مخزن الادوية، وزوجة مليكوزا التى تعمل سائقة فى السيارة العامة ، وكذا شقيقة عزة الله التى تغنى فى المسرح ، وابنة ناربوتا التى تدرس الطب ، وزوجة صابر ابنه اخت رجيم التى تعمل بائعة فى احدى المحلات ، وهؤلاء لا يزيد عددهن على ستة . ولابد أن نضيف اليهن زوجة الساذج عبد الحكيم التى تعمل فى المستشفى ، وزوجات اسماعيل ورحمات ويوسف ومحمد جان .

أحصى الملا ناركوزى كل هؤلاء على أصابعه ، ولما رأى أن هذا العدد لايكفى لوح بيده فى يأس وقال بابتسامة ساخره صغيره: طبعا يقبل الازواج ذلك ما دامت الزوجات تساهم فى زيادة ميزانية الاسرة ، ولكن الحق أن الأزواج لا يريدون أن يفهموا ، أو على الأصح لا يستطيعون أن يفهموا باى ثمن فادح تحصل زوجاتهن على المرتبات ، اليك

مثـــلا زوجة ستايبولدا تصـور آلاف العيون التى تحملق فيها طول اليوم فى مخزن الادوية ! من الذى يضــــمن أن ليس بين هؤلاء شاب يغمز لها بعينيه؟٠ أو زوجة ميليكوزا التى تقـود السيارة العامة من الصباح الى المساء ألا يسهل على هذه أن تعبث كمـــا تشاء ثم تدعى لزوجهـــا أن العمل قد احتجزها ، ان الرجال اليوم لم يفقدوا عقولهم فحسب بل فقدوا أيضـا الاحساس بالشرف ، وأنا مستعد أن أقسم بأن هنـــاك من بينهم رجالا بلـــغ اســـتخفافهم حدا يلتمســون معـه العـذر للعـدوان على الأعراض ٠٠٠

استمرأ المللا متـــابعة الحديث فى موضوعه المفضل ما دام هنــاك شخص واحد على الاقل يصغى باعجـــاب الى فصاحته ، كان يستشعر قمة السعادة بالتعريض بسلوك الخارجين عن التقاليد اذ كلما اشتد سبه للمرأة الســـافرة نصعت فضيلة زوجته المحجبة ٠

والخاطئون أمثالنا يجب أن يعترفوا أن زوجة المللا نارزوكى استحقت المدح المستفيض ، فلم تكن هناك امرأة أخرى تلبس السراويل الحريرية الموشاة بمثل هذا الاعتزاز ، أو عبدت ربهـــا وخدمت زوجها بمثل هـــذا الاخلاص ، وربما تعطيك الحادثة التالية فكرة ولو بسيطة عن طهارة أخلاقها ووداعتها التى تشبه وداعة الحمام ٠

فى احدى الامسـيات جلس السيد ناركوزى فى حديقته يحصى مغانم يومه، وأخذت زوجته ، التى تحب أن تشغل نفسها دائما ، مرشة المـاء وبدأت فى سقى الازهار ، وبطلنا يرمقها باعجـــاب وهى تنتقل فى خفة بين الازهار، وأطلق عليهـــا وهو يحدث نفسه اسم النحلة الذهبية ٠ لف الهدوء كل شىء الى أن سمعا ازيز طيارة تحلق على ارتفاع فوق الحـديقة ، فالقت المرأة الحيية المرشة من يـدها واختفت بين الشـــجيرات ، وكأنهـــا قط خجول ، لا فزعا من طنين الطائرة ولكن تحرجا من شبهة أن يراها من تحمل الطـــائرة من الرجال ٠ وفى اندفاعها خدشت وجههـــا بقوة شجيرة عوسج ٠ شاهد زوجها قطرات الدم على خدها ، وما تحقق من انها كادت ، بهذه الطريقة ، أن تجرح عينيها حتى قال لها عاتبـــا : أتتصـــورين حقيقة أن فى استطاعة رجال الطائرة رؤيتك ؟ وحتى لو أمكن لهم أن يروك لما ظهرت من هذا الارتفـــاع أكبر من بقة على الارض ٠ فردت زوجته فى نشيج قائلة : لأكن بقة ؟ لكنهم سيروننى على كل حال دون حجاب ألا تفهم ؟ ٠

ــ أوه يجب أن تتعـودى الاستغناء عن الحجاب لانى أفكر أن أحرقه ٠

ــ أتحرقه ؟ لماذا ؟

ــ ماذا تعنين بقولك لماذا ؟ ألا ترين ان معظم نســـاء بلدتنا قد عدلت عن وضع الحجاب ؟

ــ هل تقارننى بأولئك النسوة ؟٠٠ كيف يمكنك ذلك ٠

الأحسن أن تطلقنى وترسـلنى الى والدى ٠

ثم انفجرت السيدة المحترمة تنتحب كما ينتحب طفل صغير ، ولما رأى المللا ذلك سارع اليها مؤكدا انه يمزح، وعلى أية حال فقـــد دفع ثمن هذه الدعابة غاليا اذ طال غضبها عليه ثلاث ليال ٠ ولم يذهب عنهـــا الغضب الا بعد أن اهدى اليها زوجا من السراويل الحريرية

الجميلة • على أن الزوجة لم تكن تعفى الرجل من التانيب مرة بعد مرة ، وفى احدى المرات قالت له : ألا تدرك انه لا يسوغ لك مقارنة امرأة فاضلة مثلى، حتى فى معرض الدعابة ، بأولئك الماجنات •

وتابعت تانيبه دون أن تنتظر منه جوابا ثم شرعت تروى له فجأة كيف اتفق لها يوما أن تكون بين رفقة من النساء السافرات وكيف انها فزعت من حديثهن • وبادرها الملا ، دون أن يدرى ما فى سؤاله من اهانة جديدة لها ، قائلا : ماذا كان موضوع حديثهن•

وهنا قفزت زوجته وقد حبس الغضب انفاسها قائلة : ماذا ؟ أتريدنى أن أعيد هذه الكلمات النابية التى تفوهت بها أولئك الفاجرات : ونبهها زوجها فى حزم قائلا : ولكنى زوجك • وسأتحمل انا وزر هذا • وقالت الزوجة بعد لحظة: حسنا ••• اذا حملت نفسك هذا الوزر فساقص عليك الحديث الذى تناول موضوعات شتى ••• ولا أدرى من أين أبدأ » •

فنصحها الملا قائلا : ابدئى من حيث تتذكرين • فردت زوجته وهى مشتتة الذهن : قالت السيدات مثلا اذا وخط المشيب رأس المراة • أمكن علاج ذلك فما عليها الا أن تقصد مكانا معينا نسيت ما يطلقونه عليه ••• أسرع زوجها الى نجدتها قائلا بزهو : محل التجميل • فقالت الزوجة فى سعادة : نعم •• نعم •• هذا ما قلته • يستطيع الصانع الماهر أن يحيل الشعر الاشيب اسود • فأمن الملا على كلامها قائلا : حسنا غير انى لا أرى أى ضرر لو أن هؤلاء النسوة ••••• فقاطعته الزوجة دون مبالاة : أوه اذن انت توافق على ذهابهن الى هذه الامكنة حيث يعمل الرجال الغرباء • ما أروعك رجلا بلحيتك الوقور وشعرك الاشيب لقد بلغت بى الحماقة انى كنت أحسب انك ستثور على أولئك السيدات ممن يصبغن شعورهن التى أسرع بها التهتك الى البياض •• انى أدرك كل شيء الآن •

انهمرت دموع المرأة المسكينة والملا يحاول بقوة حجته أن يثبت لها اسرافها فى اساءة الظن به • واستهجانه للنساء السافرات • ومع ذلك فلم تلتفت اليه زوجته ، بيد أن الملا ، وقد خشى أن تعاود زوجته غضبها عليه وهجرانها له، أقسم انه ما دام فيه نفس يتردد فان قلبه سيظل الى الابد ملك جمامته النقية البيضاء • وبذل لها الزوج الوعود وما وصل فى حديثه ، دون قصد ، الى ذكر ثوب حريرى جديد حتى كفكفت دمعها وأبدت ترحيبها بالاستماع الى مايفيض فيه من حديث •

لم يكن لدى الملا من جديد يقوله ، فادارت بيدها دفة الحديث .

ـ تريد أن تعرف ما تحدثن به أولئك النسوة ••• انى أكره ترديد هذا الكلام ، أما اذا أردت أن تعرف••

ـ نعم لابد أن أعرف •••

ـ ما دمت تصر فساقول لك على استحياء •

ـ ليس هناك ما يخجل بين المرء وزوجه •••

ـ لكنى أشعر بالخجل فالامور التى تناولها حديثنا •••

ـ ماذا قالت النسوة ؟

اتسم سؤال الملا لزوجته بالفضول المفرط ونفاد الصبر • انتبهت زوجته بسرعة خاطر الى ذلك فاخذت بيدها زمام المبادرة وقررت أن تلقنه درسا

الا ينساه فتنهدت فى حزن وانتحبت قائلة ان لابد هناك ما يجذبه الى حديث هؤلاء النسوة المتبذلات .. وربما كان ذلك هو السبب فى تأخره الطويل عن بيته . ووجد الملا نفسه فى المأزق من جديد واعنت نفسه محاولا نفى هذه التهم المهينة ، واخيرا قبلت زوجته اعتذاره . وذكرت فى خضوع ، ان ارادة زوجها قانون عليها ان تلتزم به . ولهذا السبب وحده ستجترىء على تلويث لسانها باعادة الألفاظ البذيئة التى سمعتها فى مجتمع النساء السافرات فقال الملا وقد ضاق بالموقف انها اذا كانت تشعر بالحرج الشديد لذكر هذه الألفاظ فليس ثمة ما يدعوها الى ذلك . فصاحت فى حدة : كلا ! اريد ان احذرك من هذه المخلوقات ... هل تدرى عم يتحدثن فى مجالسهن الخاصة . . . يقلن مادام الرجال يتطلعون الى حب غير الواحدة من النساء فلماذا لا تتطلع النساء ايضا الى حب غير واحد من الرجال ؟

ولولا ان الملا كان فى حالة اعياء لاندفع الى سقف الحجرة عند سماعه هذا الكلام بيد ان روح الانسان مهما يكن عنادها واصرارها تخضع مع الأسف لمقتضيات الجسد الضعيف ،فلم يستطع الملا الان يغمغم ببعض اللعنات وما لبث ان غلبه نعاس عميق . ولكنه ، حتى فى نومه ، لم تخب شرارة الغضب فى صدره طوال ليله ، بل استحالت لهبا فى اثناء نهاره . وبعد لأى استطاع بطلنا ان يجمع شتات نفسه حتى الساعة المرتقبة — حين ينتهى من عمله اليومى ويجتمع باصدقائه فى ندوة الشاى .

وفى هذه الامسية الخالدة بلغت فصاحة الملا نارزوكى أوجها اذ تناول الخارجين على الاخلاق والتقاليد بالتشهير والتعنيف فى درجة من الحرارة والحماس دفعته الى تلفيق قصة عن امراة عجوز ، ادعى انها حاصرته هذا الصباح وحاولت ان تفرض عليه حبها الشائن وانبرى قائلا : لا أستطيع ان ادرك اى شيطان اثارها . كان يجب ان تشاهدوا هذه الحسناء ... وقد برز من فمها سناها الوحيدتان وكأنهما مخلبان وشعرها كله بياض ، على حين تطعنني بحبها .. فقلت لها : يا لك من امراة غبية ! فكرى فى شعرك الاشيب . ولكنها ابتسمت وقالت : ان شعرى أشيب ولكن قلبى يتوثب شبابا وسخر اصدقاء نارزوكى من المراة العجوز وحدقوا الى وجه الملا ينتظرون سماع قصة اخرى متبلة اشد حرافة.

ومن حسن طالع الملا ان كبح جماح نفسه فى الوقت المناسب واتخذ مظهر الجد وبدأ يمتدح الحجاب ذلك الدرع الواقى لحياة المرأة . وهنا قاطعه فى جراة ، رجل يجلس على مقربة منه ولم يكن بطلنا قد رآه من قبل وقال :—

— ان المسالة ليست مسالة الحجاب يا سيدى المبجل ، فالبغايا يسرن محجبات فى بعض البلاد . وهنا فى عهد القياصرة كان هذا النوع من النساء يضع الحجاب . ومن ثم فهو لا يستطيع ان يحمى عفة المراة .

— ان كلامك هراء يا صديقى .

— لماذا هو هراء ؟ ... الا يقنعك المثل الذى ذكرت بعدم جدوى الحجاب

— كلا على الاطلاق .

— احقا تقول ؟ لكنى أوردت لك

حقائق تثبت ان الحجاب لا يحمى المراة من الزلل .

— لم تثبت شيئا بعد . كيف تفاصيل بين امراة مصونة فاضلة واخرى سافرة متبذلة ؟ . اتظن ان هذا يدعم قضيتك ؟

وهنا رفع الملا يديه فى يأس ، واجال بصره بين الجالسين كانه يدعوهم الى مشاهدة هذا الرجل الساذج المعيب. ومع ذلك فان الرجل الدخيل لم يسلم بهزيمته واستمر فى حواره .

— انت تصر على ان للحجاب كل هذه الأهمية اتريد أن أروى لك الحقيقة ... حسنا ... ان المراة التى ترتدى الحجاب اقرب الى الانحراف من المراة السافرة احكم بنفسك ... لنفرض انها ترغب فى ثوب جديد . تطلبه من زوجها فيرفض شراءه فماذا تفعل حينئذ ؟ انها تحزن وتبكى ثم تسلم بالأمر الواقع . ولكن بعض النساء لاترضى بذلك ،اذ يخرجن بعد انصراف أزواجهن انتظارا للرجل الذى يرغب فى شراء الثوب الجديد لهن .

ومثل هذا يحدث طول الوقت . وانت نفسك تعلم ذلك جيدا . ومن جهة اخرى فان المراة السافرة لا تلجأ الىهذه الحيل. اذ تكسب مايساعدها على شراء كل ما تريد .

وبعد أن انتهى الضيف المشاغب من حديثه ، شرب جرعة من الشاى ونظر الى مستمعيه فى تساؤل . أغضب الملا من محدثه ان ترفع الكلفة معه الى هذا المدى فقال له : يبدو أنك شخص مرح . وتدل كلماتك على شيء اكيد هو المامك الواسع بسلوك الماجنات ، ولابد أنك قاسيت الكثير من المتاعب على أيديهن .

اقتنع جمهور الحاضرين برد الملا وكافأه بالسخرية من ذلك الرجل الدخيل . واعجب الملا بنفسه لمهارته ورأى انهاء المناقشة عند هذا الحد . ثم نهض من مجلسه وقد انشرح صدره بتشجيع المستمعين له وخرج لفوره بعد ان اعتذر بمهام تنتظره .

ما عاد الملا الى بيته حتى دعا زوجته واخبرها انه ذاهب غدا فى عمل يستغرق عدة ايام ، وانها تحسن صنعا لو دعت الى الاقامة معها فى غيابه تلك السيدة الصالحة التى اتخذت منها صديقتها الوحيدة

— اذهبى وابحثى عنها فى الصباح ودعيها تمكث معك حتى اعود .

— لا استطيع ان افعل .. الا تذكر ان صديقتى تجلب فى كل مرة تحضر فيها الى منزلى هدية ما . ونحن هل رددنا لها بعض جميلها علينا ! ايت لها على الأقل بخمار جديد .

— حسنا .. ليكن ما تريدين .. ولكن بشرط الا تتركك وحيدة حتى أعود .. ابتعدى عن الجيران ، لاتذهبى اليهن، ولا تاذنى لهن بالقدوم هنا .

فأجابت زوجته بأنها وصديقتها لن تتركا المنزل ، ولو رغبا فى ذلك ، لأن صديقتها تخشى الغرباء اكثر من اى انسان آخر . اطرق بطلنا راسه وامن على قولها ، فى شيء من الخيلاء ، بأن صديقتها جديرة بالاحترام حقيقة

لتواضعها ، واما عن نفسه فانه لم يسمع قط صوتها مع انها زارت بيته كثيرا .

وبعد ان فرغ من قوله سمح لزوجته بالانصراف وهاله التفكير فى انحراف العالم العصرى الذى لم يعد فيه الا هذه القلة من النساء الفضليات . وما من شىء ان المللا ناركوزى قد اعتبر زوجته وصديقتها من أعظم النساء ، وفوق ذلك لو ان الملائكة عاشت على الأرض لكان من المؤكد ان تحمل زوجته لقب الملاك الأول وصديقتها لقب الملاك الثانى ، وان كانت العدالة تقضى أن تكون الصديقة افضل من الزوجة درجة .

وعلى هذا ففى صباح اليوم التالى عسكرت المراة الصالحة فى بيت بطلنا الذى انسحب وفقا للتقاليد الى غرفة الضيوف وأخذ يستعد طول اليوم للتوجه الى محطة السكة الحديد ، ولم يجرؤ على التوجه قبل المساء الى غرفة زوجته ، للتحدث من خلال الباب الى الضيفة الخجول وقال باحترام : ايتها الاخت سارجع بعد خمسة ايام ، ارجوك البقاء حتى عودتى وعليك تسلية صديقتك المحبوبة .... هل تقومين بذلك ايتها الأخت العزيزة ؟ ... فأجابت زوجته عن صديقتها بأنها فاعلة وقالت : أليس واجبى المقدس أن ارعى صديقتى الوحيدة ؟ فقال المللا لزوجته: اشكريها . استدار عائدا الى غرفته وبعد ان ارتاح قليلا شرب كفايته من الشاى . وبدا فى عجلة يستعد للقيام بهذه الرحلة . فجهز حقيبة سفره وبينما كان على وشك ان يقفلها راى امراة تدلف من الشارع الى فناء المنزل وهى تمسك بمطرفها فى يدها ، والاضطراب باد عليها كانما يطاردها بعض اللصوص فدخلت طلبا للنجدة .

القت المراة الغريبة بنظرة سريعة على المللا وابتعدت عنه ابتعادها عن شىء تزدريه. واتجهت فى تصميم نحو جناح الحريم قبل ان يستطيع ان يوقفها . فصاح بعنف : اوه ... انت ... ماذا تريدين هنا ؟ .. غير ان المراة لم تعى بالاجابة عليه ومرقت الىالفناء الداخلى فاندفع المللا وراءها . ولكن المراة رفست الباب فانفتح واختفت وراءه . وبعد لحظة سمع صاحبنا صوتا مرتفعا لشىء تحطم وتناثر قطعا صغيرة على الارض فصاح قائلا : لقد فقدت هذه المراة صوابها ... ان بها مسا من جنون ... وسمع المللا صيحات حانقة وراء الباب استجابة لصياحه : الم يمكنك ان تجدى رجلا واحدا .... لدى طفلان ليعاقبك الله ايتها الفاجرة. وحينئذ دفع المللا الباب بكل قوته واسرع نحو شرفة زوجته وصاح قائلا: اوه ... ماذا حدث ... ماذا تريد تلك الحرباءة هنا . وكان الجواب الوحيد الذى تلقاه من هذه الحرباءة لكمة عنيفة تخضبت بعدها على الفور لحيته الجميلة بالدماء كما أصابه دوار .

بدات المراة المجهولة تصيح بأعلى صوتها : ادركونى ... النجدة .... النجدة .... ايها الناس الطيبون!!.. وضع المللا يده على انفه المهشم واندفع نحو المراة الشغوب التى ازداد صياحها قائلة : ادركونى . ادركونى . وفى برهة دفع حب الاستطلاع الناس الى الازدحام

فوق اسطح المنازل وفى الشرفات المحيطة بالمكان . استمرت المراة فى صياحها قائلة : انظروا اليه ... انظروا اليه ... ايها الناس الطيبون !! لقد أحضر لزوجته زوج امراة اخرى ووقف على البوابة يحرسه.. ادركونى ادركونى ان لى طفلين : ثم هاجمت المراة الملا كذئب غاضب وكادت ان تمزقه اربا اربا لولا ان انقذه من براثنها بعض الخيرين وقد اشفقوا عليه . وما كاد الناس يستخلصون الملا من المراة حتى فقدت وعيها . اما هو فقد ارتعدت فرائسه من فرع راسه الى اخمص قدميه وحاول ان يقف الدم النازف من ذقنه وخديه.

لم يعطف احد على السيد ناركوزى وكان عليه ان يكرع كاس العار حتى الثمالة المرة . ومضت سيدتان الى مخدع سيدة البيت واخرجتا صديقتها الملائكية انكشف الغطاء وظهر ان صديقتها لم تكن الا شابا جميلا يرتدى زى النساء : ثوبا من الاطلس وسراويل من الحرير . حدق الناس اليه فى صمت عميق ثم تقدم اليه من بينهم رجل وقور فى سن السبعين وهو يشير الى الملا بيده المرتعشة ثم اعلن بغضب : اترك شارعنا ايها الرجل الحقير التافه . اذا لم تكن لديك قدرة على الحياة مع زوجتك فطلقها وارجعها الى والديها. وما كاد الرجل الوقور يكمل جملته حتى انبرت للملا بنت صغيرة قائلة : ليتك تمسخ غرابا ـ تنعب ... يافاقد الحياء يا من اذاع قول السوء فى جيرانه اجمعين ... وبيتك انت فيه الشين والعار . ثم غرفت الصبية من الارض قبضة من الوحل رمته بها . لم يتحمل الملا هذا التقريع فصاح فى غضب : اصمتى ايتها التافهة اى حق لك فى الكلام ؟ الم ار ابن مالفان الشاب الصغير يعطيك فى السوق حفنة من الزبيب ؟ فصاح رجل على الفور من اعلى السطح قائلا حفنة من الزبيب.. ولكن زوجتك لم تحصل قط من الرجل على زبيبة واحدة ... »

الرائد القصصي أحمد خيري سعيد

• بقلم: سيد حامد النساج

ولد احمد خيري سعيد بالقاهرة ، عام ١٨٩٤ ، وتلقى تعليمه بالمدارس المصرية الثانوية ، كغيره من أبناء الطبقة الوسطى في المجتمع ، ثم التحق بعد ذلك بمدرسة الطب عام ١٩١٢ ، ولكنه لم يعط للدراسة جل اهتمامه وكبير عنايته فقد زاول الكتابة الادبية وهو طالب ، حتى أصبح ذا شهرة فائقة في عالم الادب والصحافة ، وظل ينشر ابحاثه ومقالاته زمنا طويلا ، وعمل في تحرير كثير من الصحف والمجلات الأدبية والسياسية والطبية .. وفي أخريات أيامه اشتغل بالترجمة في الجمعية الطبية المصرية ، ثم مالبثت جذوة النشاط الفائرة المتقدمة ان انطفأت فجأة عام ١٩٦٣ بعد أن عاش بيننا اثنتين وستين سنة ، قضى نصفها أو ما يزيد مبشرا بأنماط جديدة في الادب الحي « وفي طليعة هذه الانماط كتابة القصة على المنهج العصري الذي يصور الشخصيات في استجاباتها للاحداث التي تتعاقب عليها ، وفي كفاحها للحياة التي تحياها . . . » يحكي أن وقصص أخرى . طبعة وزارة الثقافة . سلسلة المكتبة العربية - ١٩٦٤ من مقدمة محمود تيمور .

وقضى نصف عمره الآخر لا يعلم به أحد خاصة الناشئة من كتاب هذه الايام ، الذين يقبلون على كتابة القصة دون دراية بأعلامها الذين ارسوا مكانتها ، وكابدوا معها مامرت في طريقها من محن وما اعترضها خلال مراحل نموها من صعاب !!

ويقترن اسم « احمد خيري سعيد » بحركة التجديد التي اضطلع بها فريق من المثقفين المتحمسين للبيئة المصرية ، والواقع المصري ، والشخصية المصرية ، ... وهي فرقة ادبية متنقلة في الشوارع ، اطلقوا على انفسهم اسم « المدرسة الحديثة » واختاروا خيري سعيد ناظرا لها ، وتبرع ابراهيم المصري - كاتب القصة المعروف في هذه الأيام - باحدى غرف منزله ليعقدوا جلساتهم فيها بعد الطواف ليلا بالمقاهي والصالات .. وظلوا يوالون اجتماعاتهم فترة طويلة ، فيقرءون كل ما تقع عليه أيديهم من الكتب الجديدة والقديمة على حد سواء ، وفي مختلف العلوم والفنون والآداب ..

وكان احمد خيري سعيد يقرأ لهم أحيانا على ضوء المصباح الهزيل كتابا بأكمله طول الليل ، وهو جالس على النافذة ، او راقد على السرير ، وقد خلع حذاءه وبقي ببذلته التاريخية وكان من أعضاء هذه المدرسة « محمد تيمور - محمد رشيد - احمد علام - زكي طليمات - محمود عزمي - فائق رياض - حسين فوزي - ابراهيم

المصرى – ابراهيم حمدى » انظر فى ذلك – الفجر – العدد ١٠ – ٢٠ مارس ١٩٢٥ ص١ – و (الجامعة) – العدد ٥١ – ١٩ يناير ١٩٣٣ – ص ١٥ – وفجر القصة المصرية ليحيى حقى – ص ٧٤ .

وكان اعضاء هذه المدرسة يعتبرون انهم بدعواتهم وافكارهم من أنصار الادب الجدد ، الذين يحاولون أن ينهضوا بالفكر والادب والفن والموسيقى ، لكنهم انشطروا بحكم نزعات تفكيرهم وظروف تهذيبهم وتاثيرات الوسط والبيئة الى مدارس مهما اختلفت وسائلها فانها متحدة الغاية ... فهناك مدرسة تضم « احمد لطفى السيد – منصور فهمى – محمد حسين هيكل – طه حسين – محمود عزمى – احمد ضيف ومصطفى عبد الرازق » واخرى تحت لوائها كل من « ابراهيم عبد القادر المازنى – عبد الرحمن شكرى – عباس حافظ – عباس محمود العقاد – محمد السباعى – على ادهم – عبد الرحمن صدقى » ..

ثم هناك من ناحية ثالثة « المدرسة الحديثة » وهى التى اتخذت من صيحفة (الفجر) لسان حال لها ، واعضاؤها كثيرون يعنون بالعلوم الحديثة والفنون الجميلة عنايتهم بالآداب ويتحدون ضد القديم الفاسد .. ولقد تزعم احمد خيرى سعيد هذه المدرسة حتى نصبوه ناظرا عليها ... ولقد شغلت قضية (الاستقلال الفكرى) معظم كتابات احمد خيرى سعيد فى الربع الثانى من هذا القرن ، تشهد بذلك مقالاته المتعددة فى « الشباب » و « البلاغ » و « النسر المصرى » و « الجديد » و«الحديث» و « الاخبار » و « الهلال وغيرها من الصحف والمجلات التى بدات تظهر وتتكاثر فى ذلك الحين .. فقد سيطرت عليه هذه القضية ، هو واعضاء المدرسة الحديثة ، حتى عكف على اظهار المقومات الخاصة للشعب المصرى ، وللادب المصرى ، وكل مايتعلق بالبيئة المصرية من فكر وفن وادب وتاريخ وموسيقى وعمارة ، وطفق يدافع من هذه القضايا ، ويدعو لها فيما كان ينشره من مقالات وابحاث .. ولم يقف نشاطه الأدبى عند هذا الحد ، بل انه كتب فى كثير من القضايا السيكلوجية والفنية حتى انهم اطلقوا عليه صفات عديدة ان دلت على شيء فانما تدل على سعة اطلاعه، وغزارة علمه ، وقوة توثبه وطموحه لخلق جيل جديد مثقف واع ...

وكان خيرى سعيد يرى ان مصر قادرة على ان يكون لها ادبها وفنها وفكرها ، ونادى بأن يكون ذلك مبنيا على الخلق والابتكار والتجديد ،لا على التقليد والمحاكاة والسرقة والنقل من الغرب (نريد ان يكون لمصر ادب مصرى ، وفن مصرى ، وتفكير مصرى .. ننكر التفكيربعقول الغير . وسواء عندنا الذين يفكرون بعقول الغربيين والذين يفكرون بعقول الجاهليين أو العابثين . فكلهم مقلد وكلهم بوق لا يحس الحياة ..) – الفجر – العدد ٢٤ – ٢٦ يونيه ١٩٢٥ – ص١ .

واصدر خيرى سعيد وصحبه من اعضاء المدرسة الحديثة صحيفة (الفجر) لتكون وسيلتهم لنشر آرائهم التقدمية ، وتحذر الأدباء من تقليد القدماء تقليدا خاليا من التجديد ، وتحبذ فكرة كل شيء مبتكر، وتتمسك بالشخصية المصرية المستقلة .. ولما كان الأدب العربى القديم خاليا من فن القصة القصيرة ، كان لابد

من أن يعمل هؤلاء الرواد على ايجاد هذا الفن فى ادبنا كمظهر من مظاهر الاستقلال الفكرى ، فاتجهوا وعلى راسهم خيرى سعيد الى اعلاء فن القصة القصيرة ، الموضوعة بأقلام كتاب مصريين ، نشأوا فى مصر ، وتأثروا بالواقع المصرى فاعتبروا « القصة المصرية القصيرة » شغلهم الشاغل ، فأولوها اهتماما كبيرا ، وافسح خيرى سعيد صدر صحيفته (الفجر) لهذا الفن ، فنشرها مترجمة ، وموضوعة ، وجعل لها ثلاثة أبواب : الباب الاول : للقصص المصرية القصيرة التى كان يكتبها أحد أعضاء المدرسة الحديثة ، والباب الثانى : للقصص المعربة ، والباب الثالث : للقصص المسلسلة .. وقدم خيرى سعيد على صفحات جريدته كتاب القصة القصيرة الاعلام ، الذين أرسوا قواعدها ، وتفهموا أسسها ، وعملوا على ذيوعها وانتشارها ، وتثبيت اقدامها كفن مســـتقل له ما لغيره من فنون الأدب الاخرى من قواعد واصول ويدل على اهتمام خيرى سعيد بفن القصة القصيرة انه نشر فى عدد واحد ثلاث قصص مصرية لثلاث من الرواد ، قصة (جولة خاسرة) لمحمود طاهر لاشين ، وقصة (الشيخ سيد العبيط) لمحمود تيمور ، وقصة (فى ضوء القمر) لخيرى سعيد نفسه .. ولم يقف دوره عند هذا الحد ، بل انه مهد الطريق لكثير من الصحف والمجـلات حتى تنشر قصصا مصرية قصيرة ، فنجد مجلة (الهلال) تقدم مفتبطة على نشر قصة قصيرة لكاتب كبير هو الدكتور « محمد حسين هيكل » ، وتصدر القصة بكلمة توضح فيها مدى التطور الذى اصابته القصة القصيرة على أيدى الرواد من أعضـــاء المدرسة الحديثة ، مما كان له أثره البين فى ان يقبل عليها كبار الكتاب ، بعد ما كانت القصة القصيرة فى نظرهم تعد ضربا من « الفكاهة » و « العبث » .. تقول « الهلال » (وبات الهلال ليغتبط اذ يرى ان القصة قد نالت هذا القسط من عناية كبار ادبائنا ومفكرينا فهى عمادالادبالغربى الحديث وركنه الاول ...) الهلال ــ ابريل ١٠٢٦ ــ ص٦٨٠ من تقديم المحرر لقصة الشيخ حسن ــ للدكتور محمد حسين هيكل ..

وجد خيرى سعيد ان الكتاب بعامة ، وكتاب القصة القصيرة بخاصة كانوا يعانون مأساة نشر قصصهم على الناس ، فعمـل من جانبه على اتاحة الفرصـة للناشئين من كتاب القصة ، حتى يجدوا فى « الفجر » متنفسا لافكارهم وأرضـا خصبة يبذرون فيها بذور انتاجهم القصصى : (وها نحن بدانا ننشر قصصا لافراد مجهولين) الفجر ــ العدد ٢٤ ــ ٢٦ يونيو ١٠٢٥ ــ ص١ ــ مقال خيرى سـعيد بعنوان « صدى الفجر » ..

وعلى هذا النحو غدا فن القصـــة القصيرة فنا يقبل عليه الكتاب الكبار من ناحية ، والصحافة من ناحية أخرى ، ويرجع الفضل فى هذا لاحمد خيرى سعيد ورفاقه ، ولعل هذا هو الذى حدا به الى ان يشيد بما احدثته صحيفة (الفجر) من صدى قوىغير من نظرة كثير من الصحف الى القصـة القصيرة حيث يقول فى مقال له : (اثرت دعوتنا تاثيرا لاباس به ، وبدا القوم يحسون وجود أدب مصرى حقيقى ، وبدا الكتاب يحتذون قصص الفجر وصوره وطريقة نقده وقسوة تهكمه وسخريته وعدم تحيزه) ، وتتأكد له ريادة الفجر لغيرها من الصحف والمجلات فى ميدان القصة القصيرة فيقول من مقال آخر : (انظر الى المجلات جميعا كيف احتذت

الفجر في نشر القصص المصرية وانظر الى الصحف اليومية والاسبوعية الادبية الفنية تترسم خطانا فى اعتبار القصة عنصرا أساسيا) الفجر ـ العدد ٥٢ ـ ١٧ يناير ١٩٢٦ ـ ص١ .

وكان خيرى سعيد مؤمنا بضرورة ايجاد هذا الفن فى أدبنا مدفوعا الى ذلك باحساس عميق وايمان جاد بحاجة ادبنا الى أن يكون فن القصة القصيرة أحد أجناسه ، حتى نكون عصريين ، غير متخلفين ، وحتى يعبر هذا الفن عن واقعنا ، ويصور مشكلات مجتمعنا بدقة ..

ويظل خيرى سعيد على حماسه لفن القصة القصيرة ، متتبعا لها فى مراحل نموها وازدهارها ، مجتهدا فى التفرقة بين أصولها ومقوماتها وبين الفنون الادبية التى تشترك معها فى بعض خصائصها ، كفن الرواية مثلا ، من ذلك اننا نقرأ له فى عام ١٩٢٨ قوله : (اظهر ماطرا على النثر العربى محاولة الكتاب المصريين تأليف القصة الصغيرة وتأليف الرواية ... وبينما نجد توانيا فى تأليف الرواية اذا بنا نجد سيلا من القصص . وهذا العكوف على تأليف القصة والاهتمام بها والاجتهاد فى ايصالها حد الكمال هو الذى دفع بالقصة فى طريق التقدم ووقف بالرواية عند حد المحاولة الأولى أو أزيد بقليل . .) ـ الأخبار ـ العدد ٣٠١٠ ـ ٦ فبراير ١٩٢٨ ص ٣ ـ مقال بعنوان : تطور الادب المصرى الحديث .

فهو يرى ان القصة القصيرة قد زاد الاهتمام بها ، وأصبح الكتاب يرفعون من مكانتها ، وان الصحافة أقبلت عليها اقبالا متزايدا ، دعا بعض الكتاب الى الوقوف من القصة القصيرة موقفا معاديا ، كذلك الموقف الذى وقفه الاستاذمحمد عبد الله عنان ، حين رفض تسليط الأضواء على القصة ، ودعا الى عدم العناية بها والابداع فيها ، ووصف كتاب القصة بأنهم مصابون بالحمى القصصية التى جعلتهم لا ينتجون الا ما هو غث وتافه :

(وكل ما يخرجه كتابنا اليوم من أدب القصة ، تافه غث ، عاطل من كل فن وخيال ، وابتكارحقيقى .)

قصص اجتماعية ونماذج من ادب الغرب ـ محمد عبد الله عنان ـ ط ١ دار الكتب ١٩٣٢ ـ ص ٦ .

حينئذ تصدى لهذا الكاتب غير واحد من المتحمسين لفن القصة وكتابها ، وحسم الموقف استاذنا الدكتور طه حسين حيث دعا الى ضرورة الاهتمام والعناية بفن القصة ، كما وقفت الآنسة مى نفس الموقف الى جانب القصة ، ويجمل خيرى سعيد هذه الاراء مجتمعة فى مقال له بعنوان (حول كتابة القصة) حيث يقول :

نحن مع الدكتور طه حسين والآنسة مى من حيث العناية بالقصة والتوفر على ايجادتها والوصول بها الى الكمال تدريجا لاطفرة .. أما صديقنا الاستاذ عنان فنرد عليه بلفت النظر الى الادب الروسى ، وهو أيضا أحدث الآداب الرفيعة وأقصرها عمرا .. ذلك ان الروس لم يبدعوا فى الادب جديدا قبل القرن التاسع عشر « اواخره

لا أوائله » ولم يبدعوا غير القصة .. فهم فى الشعر والتاريخ وادب المقالات وما الى ذلك من فنون الادب لا يمتازون عن اية امة ، لكنهم فى القصة يقفون فى المقدمة ، فهل بدع أن نصنع ما صنع الروس ؟ ٠٠ كلا) ـ مجلة « كل شىء والدنيا » ـ العدد ٤٧٩ـ ٩ يناير ١٩٣٥ ـ ص ١٥ .

وكل من يتتبع كتابات خيرى سعيد فى الصحف والمجلات المعاصرة له ، يدرك بصورة واضحة ان فن القصة القصيرة شغله ، وسيطر على فكره ، وملأ شعوره واحساسه .. يدعو لها ، ويمد يد العون للناشئين من كتابها ، ويعرف القراء بكتابها الجدد ، ويعلن عن المجموعات القصصية التى كانت تظهر تباعا .. ومن هنا يأتى دوره كمعلم من معالم التطور فى فن القصة القصيرة التى تتجه نحو الواقعية فى كل شىء ، فى موضوعاتها ، وأحداثها ، ورسم شخوصها ، والحوار الذى يدور على السنة هذه الشخوص ..

ولاحمد خيرى سعيد راى فى القصة القصيرة من حيث هدفها ، والاثر المطلوب منها، فهو يعتبرها فنا من الفنون الجميلة كالتصوير والنحت والشعر ، بينما الفارق الوحيد بين القصة وهذه الفنون ، فى نظره ،انها فن موضوعى ، وان اشتركت مع تلك الفنون فى الهدف من ورائها ، اذ يرى ان قيمة هذه الفنون بما فيها الشعر والقصة تتحدد بمدى « التأثير فى النفس » أو عدمه ،ويذهب الى اعتبار هذا المطاب « وظيفة اساسية » من وظائف الفن ، « الفرض من الاعمال الفنية هو اثرها الذى تتركه فى النفس ، فنحن نشهد الرواية التمثيلية ، ونجتلى الصور والتماثيل، وتصفى ارواحنا وقلوبنا الى الموسيقى ، ونقلب البصر فى مفاتن الطبيعة ونتلو القصيد البارع ، نرجو من كل ذلك شيئا واحدا هو الاول والاخير ـ نرجو ان يستقر فى نفوسنا وقعها ونبتغى ان يقع فى افئدتنا اثرها ..) الهلال ـ فبراير ١٩٣٣ ـ ص٥٢٧ .

ولكى يحدث كاتب القصة القصيرة هذا الاثر فى النفس ، كان عليه ان يستمد موضوعاته ، ويرسم شخوصه ، ويدير حوارهم بطريقة موضوعية ، ملتزما فى ذلك كله الواقع الحى الذى يحيط بعمله الفنى ، فلابد ان يضع فى اعتباره أنه يكتب للحياة وحتى يؤثر فى الناس كان التزامه بالواقع الذى يعيشونه أجدر من تمسكه بالخيال والوهم ،فان ثمة قصص لا تستمد روحها من الارض التى نبتت فيها ، ومن حياة الشعب الذى يقرؤها ، لا يمكن لها كائنة ما كانت ان تعيش وتخلد ... ولا يعنى ذلك انيكونكاتب القصة القصيرة محليا صرفا ، ولكن أن يكون انسانيا بواسطة محليته ، فيعالج عواطف واحساسات ومشاعر ، ومواقف واحداثا انسانية ، لا يحدها زمان بعينه أو مكان بعينه أيضا (فانه لا ريب هناك ان اى عمل محلى يموت وينقرض بمجرد ظهوره او بعد ولادته .. ولم نفكر قط فى أن تكون قصصنا محلية .. كنا انسانيين نؤلف للعالم كله ، ونعالج عواطف واحساسات وافكار وحوادث لا يحدها مكان او زمان ولا تعرف جنسا ولا مذهبا ..)

(المجلة الجديدة) ـ يونيه ١٩٣١ ـ ص٩٦٤ من حديث له مع محرر المجلة ..

وكان أحمد خيرى سعيد لا يفتأ يدعو الكتاب الى الارتباط بالحياة الواقعية ، وتفقدها ، ومراقبتها ، والتعمق فيها ،وتحليل أحداثها ، وتفسير سلوك الناس فيها بواسطة التغلغل الى نفوسهم ، واستبطان البواعث والاسباب والدوافع الكامنة التى توجه هذا السلوك : « الروائى مسرحيا كان ام كان قصصيا يقف بعيدا عن الحياة ويراقبها ويسلط بصيرته على أشخاصها وحوادثها متغلغلا الى لب اللب متعمقا الى البواعث والمحركات المستورة واغلا الى الكنه والحقيقة ، كاشـــفا مايسمونه « السر الخفى الجلى » ..) مجلة (الجديد) ـ العدد ٣١ ـ ١٢ نوفمبر ١٩٢٨ـص ٤ ـ احمد خيرى سعيد ـ مقال (حياتنا العقلية) فهو لا يذهب الى تصوير الواقع تصويرا فوتوغرافيا ، كما هو ، ولكن من خلال نظرة الاديب الى هذا الواقع ، وعن طريق احساسه به ، وتعمقه فيه ، وتحليله له ، ويؤكد ذلك ماكتبه عند تقديمه مجموعة (سخرية الناى) لمحمود طاهر لاشين : « ولا نقول فى هذه القصص أكثر من انها محاولة من أكبر المحاولات الفنية قام بها أديب مصرى منذ خرجت مصر الى النور ولا تدانيها الا قصص قليلة أخرى فى حبكها وانسـجامها واتصال اشخاصها وحوادثها بالحياة كما يراها الفنان ببصيرته ..) الفجر ـ العدد ٩١ ـ ٦ يناير ١٩٢٧ ص١ ونستطيع بهذا أن نقول ان احمد خيرى سعيد تطور بفن القصة القصيرة من ناحيتين :

الاولى : ناحية التحليل : فلم يعد التحليل يقصد لذاته ، ويصبح هو المطلب الاساسى الذى يشغل القصة كما كان ذلك واضحا فى قصص عيسى عبيد وشحاته عبيد ، بيد أنه قصد من التحليل احداث الاثر النفسى الذى يرجوه من كل الاعمال الفنية دون ان يبعد الكاتب‌القصصى بتحليله الشخوص والدوافع عن الواقع ، من ناحية ، ودون أن يقف التحليل النفسى حائلا بين العمل القصصى وبين احـــداث هذا الأثر النفسى من ناحية اخرى .

الثانية : ناحية تناول الواقع : تلك التى كانت تعنى فى الفترة السابقة عند عيسى وشحاته عبيد تصوير « الحقائق » كما هى بلا تحوير او حذف حتى ولو كان ذلك من ضرورات العمل الفنى ، ولكن خيرى سعيد يدعو الى تصوير الواقع « كما يراه الفنان ببصيرته » اى ان يتناول الواقع « باحساس الفنان » ويعبر عنه بعد ذلك ببصيرته هو واحساسه هو ليس غير ..

ولقد أسهم احمد خيرى سعيد فى الميدان الروائى بأربع عشرة قصة قصيرة، بدأها بقصة (جناية أم على ولدها) فى العدد ١٢ من صحيفة (الفجر) الصادر فى ٣ ابريل ١٩٢٥ . وختمها بقصه « المحفظة » التى نشرت فى صحيفة (الاخبار) العدد ٣٠٦٠ ـ الصادر فى ٢ ابريل ١٩٢٨ . ولكن معظم هذه القصص ظهر على صفحات (الفجر) وانحصر فى الفترة مابين ٣ ابريل ١٩٢٥ و ٢٥ ابريل ١٩٢٦ . أى فى العام الاول لصدور (الفجر) التى كانت اللســان المعبر عن آرائه وافكاره ونزعاته التقدمية ...

فقد نشر فيها وحدها احدى عشرة قصة قصيرة ، ثم نشر فى « الاخبار » الثلاثة الاخيرة ..

وفى القصة الطويلة كتب خيرى سعيد رواية تاريخية بعنوان « الدسائس تدور حول الصراع الذى نشب بين على بك الكبير ، ومحمد بك ابى الذهب ، وتصف صفحة مطوية من تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر » ولا نعجب اذ نراه يهدى قصته الطويلة هذه الى اصدقائه من ادباء المدرسة الحديثة (لانهم أضافوا الى الادب العربى فن القصة) فهو يعتز بمدرسته ويرى أن فن القصة لا ينتسب الا اليها لانها هى التى اوجدته وشقيت معه حتى ارست دعائمه ..

وينتقى خيرى سعيد أشخاص قصصه ، وموضوعاتها ، واحداثها ، من البيئات الدنيا والوسطى فى المجتمع المصرى ، ويتناول مشكلات الناس العاديين ، ويعالج قضايا اجتماعية كثيرة كان يعانى منها المجتمع المصرى آنذاك ، كما انها تصور عيوب ذلك المجتمع بما علق به من رواسب تعوق تقدمه . « فام محمد » سيدة فقيرة ، تشقى فى الحياة ، لتربى ابنها الوحيد ، وتقضى يومهـا متنقلة فى الدور والمنازل ، تغسل الثياب نظير اجر تنفقه فى تربية الابن ، ولكنه يصاب بالتيفوئيد، ويزوره الطبيب الذى تقوم بخدمته ، فيجده فى حجرة ضيقة ، غير صحية ، ويعرض على الام أن تترك المسكن ، وتحضر ابنها حتى يتمكن من مباشرة علاجه لديه فى مصحته الخاصة ، غير انها تأبى ذلك ، فيجرى الكشف الطبى عليه ، ويرى أن صحته فى تدهور ، ثم ينصحها بألا تطعمه شيئاً سوى اللبن .. وما ان يخـرج الطبيب حتى تدخل الحاجة « صلوحة » وتأمرها باطعامه (أرنبا) ويشرب (مرقته)، فتنفذ الام ذلك ، وتتأثر صحته بعد هذه « الوصفة » مباشرة ، ويأتى الطبيب فى اليوم التالى لا ليباشر علاجه بل ليكتب له تذكرة الوفاة .. وقصص خيرى سعيد التى كتبها تصور لنا معاناة الطبقة الدنيا للفقر والجهل والمرض ، الى جانب تصويره بعض الشخصيات التى كانت تحاول أن تثرى بطرق غير مشروعة ، ويقدم لنـا نماذج لافراد من الطبقة الوسطى كانوا يتمثلون ببعض القيم المتدهورة الهابطة التى كان يتشبث بها رجعيو المجتمع واقطاعيوه فى ذلك الحين .. فهذه العقدة (عقدة التطلع) أدت بأم شحاته الى أن توقع بابنها فى أغوار السجون ، ودفعت بالموظف الصغير الى التخلى عن قيمة ومثالياته ، فى سبيل الوصول الى مكانة اسمى فى المجتمع والوظيفة .. ويقابل هذه الطبقة الفقيرة الكادحة التى تعانى مشـاكل اجتماعية ونفسية واقتصادية ، طبقة اخرى ، لها مشكلات أخطر على المجتمع واشد فتكا به : تلك طبقة الاغنياء من الحكام واصحاب الجاه ، الذين يصورهم خيرى سعيد وقد انعدمت عندهم المثل واختفت الاخلاقيات .. وكان خيرى سـعيد بتصويره هذه الطبقة يريد أن يكشف عن «بواطنها» ويظهر «أعماقها» أمام الطبقات الاخرى التى كانت تنظر اليها نظرة تطلع وتشوف .. يريد أن يعلن «السر الخفى» وراء المظاهر البراقة التى كانت تظهر بها طبقة الاثرياء والاقطاعيين والحكام .

وهناك بعض القصص الاخرى كان خيرى سعيد يستمدها من حياته وتجاربه كطبيب ، اذ حاول صياغة بعض تجاربه فى هذا الميدان صياغة قصصية ، تعبر عن شخصه ، وطبعه ، وافكاره ، وميوله ، ورغباته .. وكان يتخذ من عرضه لتجاربه الخاصة عرضا قصصيا موضوعيا ذريعة لرسم قضايا اجتماعية وأمراض كانت

تسحر فى عظام المجتمع كالسوس ، وتحد من حرية المجتمع وانطلاقه نحو التطور والمدنية والحضارة ... وهو فى كل ذلك يراقب الحياة والاحداث ، ويدع الشخوص تعبر بحوارها عن الواقع النفسى الذى يعيشونه ويعتمل فى أعماقهم .

ويلعب الحوار دورا كبيرا فى قصص خيرى سعيد ، حيث يغلب عليها ، اذ يعتمد الكاتب عليه فى الكشف عن زوايا الشخصية ، وابعادها ، واتجاهاتها ، وأعماقها .. ويحافظ فى حواره على واقعية الاداء ، فيستنطق الشخوص الفاظا لا يمكن أن تصدر الا منهم .. ولعل احتفاله بالحوار الى هذا الحد هو الذى جعله لا يهتم بوصف الشخوص من الخارج ، ورسم ملامحها الظاهرة ، اذ انه يتركها تتكشف قليلا قليلا من خلال الحوار ، ولقد أبعده هذا عن التدخل فى القصة معلقا أو مفسرا او مبديا رايا أو معطيا حكمة ، فالشخصية تفصح عن مكنون نفسها تلقائيا من غير افتعال أو تعمد .. كما تخلو قصصه القصيرة من الحشو ، والتفاصيل ، وذكر الجزئيات التى لا تتصل بالحدث أو الشخصية ...

وقصص خيرى سعيد فوق هذا كله تعبر عن فنان يحس ويشعر ويتألم ، ويراقب الحياة باحساسه وانفعالاته ، ومشاعره ، فهو يتناول الواقع بروح فنان لا بعقل فيلسوف ، لذا لم تعقد قصصه المذاهب النفسية والتحليلية التى ثقف نفسه بها .. فقصصه على الرغم من قلتها كميا ، الا أن دراستها والوقوف عندها ضرورية وهامة لمن يتصدى لموضوع هذا الفن ، ولمن يتعقب نشأته ، ويتبع خطوات تطوره ، ويترصد حياة أعلامه ، ويسجل مراحل نموه وازدهاره .

ويكفى احمد خيرى سعيد فخرا انه تزعم مدرسة ارست دعائم فن القصة القصيرة ، لا يزال يعترف بفضلها كل من شهد بواكير القصة القصيرة ، وأبصر شعاع الضوء من فجرها الصادق ، سواء فى ذلك من لا يزال يواصل الابداع فى هذا الفن ، أو من لم يواصل ، ويحس يحيى حقى بالدين الذى تدين به القصة القصيرة لهذه المدرسة احساسا عظيما ، لا فى اعلاء شأنها فحسب ، بل ايضا لانها نقلته من طور الرومانسية الى طور الواقعية !

« نحن مدينون للمدرسة الحديثة بالشىء الكثير ، هى التى جاهدت من أجل أن يكون لدنيا ادب أصيل ، نابع من كياننا ، واسلوب متحرر من التكلف والميوعة ، هى التى ثبتت لفن القصة القصيرة قدمه ، ووطدت سمعته ، وبشرت بالمذهب الواقعى فخلصتنا من نهنهة الرومانسية . »

من مقدمة (سخرية الناى) طبعة المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر — ١٩٦٤ .

والحق أن الفضل فى ذلك كله يرجع الى احمد خيرى سعيد كرائد للمدرسة الحديثة ، وناظر لها ، وكمبدع لهذا الفن ، وداع له ، ومبشر به ، اولا وقبل كل شىء ... !!

اعترف اليك

بقلم
احمد فؤاد تيمور

رمز محبة واعزاز وتقدير ... مهداة الى صديقى : ص ٠ أ

بعد ساعات ، سالقاك فى المطار الذى ودعتك فيه ، واستودعتك الطائر الذى احتملك على جناحيه ، الى بلاد تناءت عنا ،تنشدين لجسدك الراحة ،ولنفسك البرء .

ركبت الهواء ، ذلك الأرعن المأفون ، وانهـا لمخاطـرة ، أملتها علينا ظروف طاغية ، لولاها لتخيرت لسعيك سبيلا اكثر امنا ، وأسلم جانبا .

لقد طالعنى الطـائر يوم رحيلك ، يربض على أرض المطار ،مشرعا جناحيه، فى انفة واعتزاز ، وقد رفت على ثغره ابتسـامة هازئة ، توضـحت لى مع تباشير الفجر النامية ، وكانه فطن الى ما يعتمـل فى نفسى من مخـاوف ووساوس ، وظنون .

فالفيتنى اشـتبك معه فى مفاجـاة هامسـه ، ضارعا اليه أن يتجنب فى مسراه نـزق الريح ، وان يلتمس من الحيل عونا على مجالدة الجو والسيطرة عليه حتى تكتب لكما السلامة ، وتأنس بكما البسيطة من جديد ، تزجى لكمـا التحايا ، فى اقبال ويمن .

والآن ! بعد انقضـاء ذلك الوقت المديد ، وقد ارتقى الطائر متن الريح، يقفل بك راجعا من المصح البعيـد ، ما برحت به أناجيه ،واسدى له النصح، كشأنى معه ساعة مرق الى السماء ، يحتجب عنا خلف أستار السحب .

لم أكف ، منـذ ذلك الحين ، عـن مصاحبتك ، والاجتماع بك ، اسايرك حيث ترحلين ، وأمسى حيث تمسين ، ان أظلت جبينك غشـاوة من تفكير ، اقبلت افاكهك ، حتى ترف على ثغرك ابتسامة ، وينضو على محياك اشراق .

لست منك الا ذلك الراصد الدؤوب، الذى لا يبتغى لك فى سهره ويقظته الا الأنس والامتاع .

اقسم ! ان قلبى لمسـتودع كبير ، يعمره لك حب واعجاب ، وتقدير ، أما فتئت تعتقدين انى اخدعك واضحك منك ؟

دعيني اكاشفك بالداء الذى يعتمل فى نفســك ، يورثك المخافة والقلق .

زعمت انى اخونك ... !

اخونك فى اطراف النهار ، وغاشية الليل .

منذ سنين ونحن زوجان ... !

أما حان لك أن تقرى بما أنا منغمس فيه ، من موفـور الجهد ، وموصول السعى ؟

اعهدت منى وقت فراغ ، وسـاعة لهو ؟

اساحر انا ،قادر على الغداة والعشى، أصرف الوقت فيهما ، بامـرة منـى وسـلطان ، ان أشرت اليه ، أو لوحت توقف ، كما أهوى ، لينفسح لى مجال عبث ومجون ؟

لقد امتد غيابك شـهرين طويلين، لم يهدأ «للهاتف» فيهما صليل وعويل ، وما الصوت الذى يتردد منه الا صوت صاحبتك ، التى تنزل من نفسك منزلة الصديق المؤتمن الوفى .

أكانت ترتصـد لى ، وتمـوه على ، لتضعنى موضع اختبار قاس ، وامتحان عصيب ... ؟

أكانت تتشمم ريح الخيانة ، لتقدم لك كشف الحساب الختامى ..

أهذه وصيتك اليها قبل المغيب..؟

ام كان ذلك صنيعا عمدت اليه لأمر تخفينه .. ؟

اارادت أن تستدرجنى ، حتى اجد عندها الصدر الحنون ساعة يعوزنى الى الراحة سبيل ... ؟

الافتراض الأول احـق بالقبـول والتصديق .

ليطمئن قلبك ولتهدأ نفسك !

لقد أنفذت صديقتك ما طلب منها ان تؤديه ، بذمه وأمانة وامتثال .

كانت رائعة فى الدور الذى قـامت به .

اتجحدين الى هذا المدى حدة ذكائى وشدة فطنتى ؟

اما كان الأجدر بك ان تدبرى حيلة أوفر التواء ، وأكثر تعقيدا ، تموهين بها على ؟

احسبتنى سـاذج الفهـم ، قاصر الادراك ، فقيرا الى دقة حس ، ولطف الهام ؟

يقينى : ان صـديقتك ما كانت الا الطعـم الذى أدليته لى من شصـك العتى ، تبغين به التعرف والتكشف والاستخبار .

اتنكرين خطر تلك التجربة ، وما عسى ان ينجم عنها من نزق وجماح ؟

دعينا نتخيل ـ جدلا ـ أن الفريسة لم تفطـن الى ما بيتت لها الخطة من تدبير طائش غرير ...

هبى ان الفريسة وقعت فى الشرك الذى نصب لها ، صريعة هوى مشبوب، لا حيلة لها فيه ... !

ولنطلق لخيالنا العنان ، نفتـرض ان الصائد استهواه ساعة الشـواء رائحة



الصيد الشهى ، فانثنى يقضم منه قضمات مريئة هنيئة يستمتع بها ويستلذ .

ابنا خليق باللام ومر العتاب ؟

الصائد ... ؟

الفريسة ؟

أم المدبر الألمعى الفطين ... ؟

أما علمت ان اللاعب بالنار لا يأمن ان يصيبه منها شواظ ... !

الرجل فى ظنك خداع أثيم ، ان ارخى له الحبل جمع يستطيب العبث دون أن يصد نزوات نفسه ويصون العهد لأليفه الصفى .

اما انا فاعتقدت أن الزوجة ما هى الا جلاد عنيد ، لا يفتأ يسلط على راس الزوج سيفا مرهفا ، يحد به من حريته، وأنه لا يملك ازاء محنته تلك الا أن يجنح الى مخاتلة ومخادعة وتضليل .

لعلك تدركين اذن سر ما أصارحك به من اعتراف واقرار ...

لقد كنت لك عونا على السفر ، اذ

كان يداعبنى أمل الظفر بفترة حرية وانطلاق ، وأنت غائبة فى منأك البعيد .

أنا السـجين الذى بشروه برحيل سجانه عنه ، فظن انه سينعم حتما بحياة بهيجة لا يشوبها حرمان وكبت .

تمثلت لى يومئذ ، القيود وقد ذابت والسدود وقد انهارت ، وانفسح أمامى الطريق للدعة والرتوع لا رقيب ولا حسيب .

فلتعلمى ما كان منى أثناء غيابك الطويل .

ما بدات عجلة الأيام تسير بى ، وقد غاب وجهك عنى ، وخلا لى الجو وحدى ، حتى حاصرتنى كآبة ، وداخلنى هم ، ولعبت بى حيرة ، فالفيتنى أنطوى على نفسى ، وانسج حولى قيودا من فولاذ الجأ اليه واحتمى به .

وارتددت الى عشنا الخاوى أوصد بابه على ، لا أعايش غير طيفك الحانى استدنى منه لنفسى الكابية ضوء الرجاء، وشعاع الأمل .

وانكفأت اتساءل : اين الانطلاق الذى كنت أتطلع اليه واحلم به ؟

رحيلك كشف لى فجرا جديدا لم اعهده !

ما كنت أحسب أن العيش بدونك له طعم كريه ، أتأباه وأنفر منه .

أمنكرة أنت على السجين ان هو ، خرج الى النور ، والتقى بالهواء ، أن يعاوده الى محبسه حنين والى سجانه شوق ؟

أمنكرة انت على المخمور الذى نهكه الشراب ، وبرح به ، ان يتفقد الكاس لينهل منها ويعب ؟

أمنكرة انت من العاكف على درس وكتاب الا يفرح بما يتاح له من راحة وجمام ، وانما يراجع ما عكف عليه لا تطيب نفسه بسواه .

انت سجانى ، وانت خمرى وكأسى، وانت كتابى ودرسى ، وانى لمتطلع اليك، ومؤتنس بك فى محضرك ومغيبك على السواء .

فى الصيف نتأذى بحر الشمس ، فان توارت عنا بالحجاب فى غمائم الشتاء الدكناء ، ترقبنا منها الشعاع واستجدينا الدفء !

أغاب عنك أنك حوائى ... ؟

من اضلاعى خلقت ، فما بغيرك تستتم لى خلق ، ولا يكتمل كيان .

عودى الى .

عودى ، لألتقى فى سمائك بالحرية، والانطلاق .

عودى ، أراجع معك العيش البهى .

عودى ... عودى ، فقد انكشف لى حقيقة أمرى ، واستبان لعينى السر الخفى .

كانت الزوجة جالسة من كثب من جهاز التسجيل ، تستمتع بنبرات ذلك الاعتراف المستفيض ،يترنم به الشريط فى هدوء وأناة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا ، وتبلورت فى عينيها المكحولتين دموع النشوة والزهو والاعتزاز .

وما يكاد الشريط الناطق يتم دورته، وينقطع عن انشاده الحلو ، حتى تستأنف الزوجة الاستماع اليه بشوق جديد .

من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد أحمد خلف الله

هذه مجموعة من أقاصيص الأولين تكشف عن بعض خصائص الخلق العربى الأصيل ، كما تكشف عن بعض الحيل التى يلجأ اليها العاشقون • وسواء فى ذلك أن يكون اللقاء من أجل الزواج أو من أجل المتعة الروحية التى يشعر بها المتحابون •

والقصة الأولى والثانية تدوران حول كثير وعزه •

تكشف القصة الأولى كيف يكون الحب طهرا وعفة ، وكيف يستخدم الشعر فى تحديد الأمكنة والأزمنة التى يلتقى فيها المحبان ، وكيف كان الشعراء يخدم بعضهم بعضا فى هذه المواقف التى تحتاج الى معونة الأصدقاء •

وتكشف القصة الثانية عن موقف كل من المتحابين من صاحبه ، وكيف ان الخلق الطاهر العفيف هو كل ما يطلبه أحدهما من صاحبه ـ حتى لقد كان هذا الموقف أحد البواعث على ألا يحول الأب والأخ بين الابنة والأخت وبين لقاء من تحب •

أما القصة الثالثة فقصة سياسية • قصة تفصح عن الخلق العربى فى مواقف العداوة والبغضاء ، وكيف تتحول هذه المواقف الى مواقف الاخلاص والمحبة ـ وكل ذلك فى اطار من الخلق العربى الأصيل الذى يدافع فيه الخصم عن خصمه حين يكون فى موقف حرج وكيف يقضى ذلك على العداوة ويكسب المحبة والاخاء •

أما الرابعة فتدور حول الحب ثم حول مشكلة أخرى خالدة هى أن تكره الأم زوجة ابنها وتحتال على الابن بكافة الطرق حتى يتخلى عن الزوجة التى تحبه ويحبها •

انها قصة قيس ولبنى وكيف تدخل الحسين رضى الله عنه فى اتمام الزواج ، وكيف استطاعت الحماة أن تنتصر وتفرق بين الابن وزوجته •

انها مشكلة خالدة ، ولم تحل بعد •

حدثنا أبو مالك النهدى قال :

جلس الينا كثير ذات يوم فتذاكرنا جميلا فقال :

لقيني مرة فقال لى :

من اين اقبلت ؟

قلت : من عند ابى الحبيبة — اعنى بثينة .

فقال : والى اين تمضى ؟

قلت : الى الحبيبة — اعنى عزة .

فقال : لابد من ان ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعدا من بثينة .

فقلت : عهدى بها الساعة ، وانا استحى ان ارجع .

فقال : لابد من ذلك .

فقلت له : فمتى عهدك ببثينة ؟

فقال : فى اول الصيف وقد وقعت سحابة باسفل وادى الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فلما ابصرتنى انكرتنى ، فضربت بيديها الى ثوب فى الماء فالتحفت به ، وعرفتنى الجارية ، فأعادت الثوب فى الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس .

وسألتها الموعد فقالت :

اهلى سائرون ، وما وجدت احدا آمنه فأرسله اليها .

فقال له كثير : فهل لك فى ان آتى الحى فانزع بأبيات من شعر اذكر فيه هذه العلامة ان لم اقدر على الخلوة بها ؟

قال : ذلك الصواب ، فأرسله اليها فقال له :

انتظرنى .

ثم خرج كثير حتى اناخ بهم . فقال له ابوها :

ما ردك ؟

قال : ثلاثة ابيات عرضت لى فأحببت ان اعرضها عليك .

قال : هاتها .

قال كثير : فأنشدته وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز ارسل صاحبى
اليك رسولا والموكل مرسل
بان تجعلى بينى وبينك موعدا
وان تأمرينى ما الذى فيه افعل
وآخر عهدى بك يوم لقيتنى
باسفل وادى الدوم والثوب يغسل

قال : فضربت بثينة جانب خدرها وقالت :

اخسأ ، اخسأ !

فقال أبوها : مهيم يا بثينة ؟

قالت : كلب يأتينا اذا نوم الناس من وراء الرابيه .

ثم قالت للجارية :ابغينا من الدومات حطبا لنذبح لكثير شاة ونشويها له .

فقال كثير : أنا اعجل من ذلك .

وراح الى جميل فأخبره .

فقال له جميل : الموعد الدومات .

وقالت لأم الحسين وليلى ونجيا بنات خالتها وكانت قد أنست اليهن ، واطمأنت بهن : انى قد رأيت فى نحو نشيد كثير أن جميلا معه .

وخرج كثير وجميل حتى اتيا الدومات ، وجاءت بثينة ومن معها ، فما برحوا حتى برق الصبح .

فكان كثيرا يقول : ما رايت مجلسا قط احسن من ذلك ولا مثل علم احدهما بضمير الآخر ، ماادرى أيهما كان افهم !

- ٢ -

قال اسحاق وحدثنى ايوب بن عباية قال :

سعت امةلبثينه بها الى ابيها واخيها وقالت لهما : ان جميلا عندها الليلة .

فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجرة منها يحدثها ويشكو اليها بثه ، ثم قال لها :

يا بثينة ، ارايت ودى اياك وشغفى بك ألا تجزينيه ؟

قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المتحابين .

فقالت له : يا جميل أهذا تبغى ؟ والله لقد كنت عندى بعيدا منه ،ولئن عاودت بريبة لا رأيت وجهى أبدا .

فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لأعلم ما عندك فيه ، ولو علمت انك تجيبينني اليه لعلمت انك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى ، ولو اطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعت قولى :

وانى لأرضى من بثينة بالذى
لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبان لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

قال : فقال ابوها لأخيها :

قم بنا ، فما ينبغى لنا بعد اليوم ان نمنع هذا الرجل من لقائها .
فانصرفا وتركاهما .

- ٣ -

حدث مروان بن ابى حفصة قال :
كان المنصور قد طلب معن بن زائده طلبا شديدا ،وجعل فيه مالا ،فحدثنى معن بن زائده باليمن انه اضطر لشدة الطلب الى ان اقام فى الشمس حتى لوحت وجهه ،وخفف عارضيه ولحيته،

ولبس جبة صوف غليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة ليمضى الى البادية فيقيم بها ، وكان قد ابلى في حرب يزيد بن عمر بن هبيره بلاء حسنا غاظ المنصور وجد فى طلبه .

قال معن : فلما خرجت من باب حرب -موضع ببغداد ينسب الى حرب بن عبد الله البلخى - تبعنى اسود متقلدا سيفا ، حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام جملى فاناخه وقبض على .

فقلت له : مالك ؟

قال : انت طلبة امير المؤمنين .

قلت : ومن انا حتى يطلبنى أمير المؤمنين !

قال : معن بن زائده .

فقلت : يا هذا اتق الله : واين انا من معن ؟

قال : دع هذا عنك فانا والله اعرف بك منك .

قلت له : فان كانت القصة كما

تقول فهذا جوهر حملته ومعي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي ، فخذه ولا تسفك دمي .

قال : هاته .

فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولست قابله حتى أسألك عن شيء ، فان صدقتني اطلقتك .

فقلت : قل .

قال : ان الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت قط مالك كله ؟

قلت : لا .

قال : فنصفه ؟

قلت : لا

قال : فثلثه ؟

قلت : لا

حتى بلغ العشر فاستحييت فقلت اظن اني قد فعلت هذا .

فقال : ما أراك فعلته ، انا والله راجل ، ورزقي من أبي جعفر عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمته آلاف دنانير . وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلم ان في الدنيا اجود منك ، فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ، ولا تتوقف عن مكرمه .

ثم رمى بالعقد في حجرى ، وخلى خطام البعير وانصرف .

فقلت : ياهذا قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك فاني غني عنك .

فضحك ثم قال : اردت أن تكذبني في مقامي هذا. والله لاآخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا أبدا ، ومضى .

فوالله لقد طلبته بعد أن آمنت . وبذلت لمن جاءني به ماشاء فما عرفت له خبرا ، وكأن الارض ابتلعته .

قال : وكان سبب رضا المنصور عن معن انه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن ، وهو متلثم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا ، وذب القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ، ثم جاء والمنصور راكبا على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له :

تنح فاني احق باللجام منك في هذا الوقت واعظم فيه غناء .

فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه فاخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال .

فقال له المنصور : من أنت لله ابوك ؟

قال : انا طلبتك ياامير المؤمنين معن بن زائده .

قال : قد أمنك الله على نفسك ومالك ومثلك يصطنع . ثم أخذه معه ، وخلع عليه وحباه وزينه .

ثم دعابه يوما وقال له : اني قد أملتك لامر ، فكيف تكون فيه ؟

قال : كما يحب أمير المؤمنين .

قال : قد وليتك اليمن ، فابسط السيف فيهم حتى ينقض حلف ربيعة واليمن .

قال : ابلغ من ذلك مايحب أمير المؤمنين ، فولاه اليمن وتوجه اليها فبسط السيف فيهم حتى أسرف .

قال مروان ! وقدم معن يعقب ذلك فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء

لولا مكانك عنده ورايه فيك لغضب عليك .

قال : وماذاك ياامير المؤمنين ؟ فوالله ماتعرضت لك منك .

قال : اعطاؤك مروان بن أبى حفصه ألف دينار لقوله فيك .

معن بن زائدة الذى زيدت به
شرفا الى شرف بنو شيبان
ان عد ايام الفعال فانما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته مابلغك لهذا الشعر ، وانما اعطيته لقوله

مازلت يوم الها شمية معلما
بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه
من وقع كل مهند وسنان

فاستحيا المنصور وقال ، انما اعطيته لهذا القول ؟

قال : نعم يامير المؤمنين ! والله لولا مخافة النقمة عندك لامكنته من مفاتيح بيوت الأموال وابحته اياها .

فقال له المنصور : لله درك من اعرابى ماهون عليك مايعز على الرجال واهل الحزم

- ٤ -

مرقيس لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعه فوقف على خيمة منها والحى خلوف ، والخيمه لبنى بنت الحباب الكعبيه ، فاستسقى ماء فسقته وخرجت اليه به .

وكانت لبنى امرأة ، مديدة القامة شهلاء ، حلوةالمنظر والكلام ، فلما رآها وقعت في نفسه ، وشرب الماء .

فقالت له : اتنزل فتتبرد عندنا ؟

قال . نعم

فنزل بهم . وجاء أبوها فنحر له واكرما . فانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لايطفا ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وروى .

ثم اتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها ، فسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفت به ، فشكا اليها مايجد بها ومايلقى من حبها ، وشكت اليه مثل ذلك فاطالت ، وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه . فانصرف الى أبيه واعلمه حاله ، وساله ان يزوجه اياها فابى عليه وقال : يابنى ، عليك باحدى بنات عمك فهن احق بك .

وكان ذريح كثير المال موسرا ، فاحب الا يخرج ابنه الى غريبة ، فانصرف قيس وقد ساءه ماخاطبه ابوه به . فاتى امه فشكا ذلك اليها واستعان بها على ابيه ، فلم يجد عندها مايحب.

فاتى الحسين بن على بن ابى طالب وابن ابى عتيق فشكا اليهما مابه ومارد عليه ابوه . فقال له الحسين : انا اكفيك .

فمشى معه الى أبى لبنى . فلما بصر به اعظمه ووثب اليه ، وقال له: ياابن رسول الله ، ماجاء بك ؟ الا بعثت الى فاتيتك !

قال : ان الذى جئت فيه يوجب قصدك ، وقد جئتك خاطبا ابنتك لبنى لقيس بن ذريح .

فقال : ياابن رسول الله ، ماكنا لنعصى لك امرا ، ومابنا عن الفتى رغبة ولكن احب الأمر الينا ان يخطبها ذريح ابوه علينا وان يكون ذلك عن امره ،

فانا نخاف ان لم يسع ابوه في هذا ان يكون عارا وسبة علينا .

فاتى الحسين رضى الله عنه ذريحا وقومه وهم مجتمعون ، فقاموا اليه اعظاما له وقالوا له مثل قول الخزاعيين فقال لذريح : اقسمت عليك الا خطبت لبنى لابنك قيس .

قال : السمع والطاعة لامرك .

فخرج معه فى وجوه من قومه حتى اتوا لبنى فخطبها ذريح على ابنه الى ابيها فزوجه اياها ، وزفت اليه بعد ذلك .

اقامت معه مدة لاينكر احد من صاحبه شيئا ـ وكان ابر الناس بأمه فالهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت امه فى نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابنى عن برى ، ولم تر للكلام في ذلك موضعا حتى مرض مرضا شديدا . فلما برىء من علته قالت امه لابيه :

لقد خشيت ان يموت قيس ومايترك خلفا وقد حرم الولد من هذه المرأة ، وانت ذو مال فيصير مالك الى الكلاله . فزوجه بغيرها لعل الله ان يرزقه ولدا ، والحت عليه في ذلك.

فامهل قيسا حتى اذا اجتمع قومه دعاه فقال : ياقيس ، انك اعتللت هذه العله فخفت عليك ولا ولد لك ولا لى سواك . وهذه المرأة ليست بولود ، فتزوج احدى بنات عمك لعل الله ان يهب لك ولدا تقر به عينك واعيننا .

فقال قيس : لست متزوجا غيرها ابدا .

فقال له ابوه : فان في مالى سعة فتسر بالاماء .

قال : ولا اسوءها بشيىء ابدا والله

قال ابوه : فانى اقسم عليك الا طلقتها .

فابى وقال : الموت والله على اسهل من ذلك ، ولكنى اخيرك خصلة من ثلاث خصال .

قال : وماهى ؟

قال : تتزوج انت فلعل الله ان يرزقك ولدا غيرى .

قال : فما فى فضلة لذلك .

قال : فدعنى ارتحل عنك باهلى واصنع ماكنت صانعا لو مت في علتى هذه .

قال : ولا هذه .

قال : فادع لبنى عندك وارتحل عنك فلعلى اسلوها فانى ماحب بعد ان تكون نفسى طيبة انها في خيالى .

قال : لا ارضى او تطلقها ، وحلف لايكنه سقف بيت ابدا حتى يطلق لبنى ، فكان يخرج فيقف فى حر الشمس ، ويجىء قيس فيقف الى جانبه فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفيىء الفيىء فينصرف عنه ، ويدخل الى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى معه وتقول له :

ياقيس لاتطع اباك فتهلك وتهلكنى.

فيقول : ماكنت لاطيع احدا فيك ابدا .

ويقال انه مكث على ذلك سنة ثم طلقها .

البوم الذى تساءل .. لماذا ..؟

قصة

للكاتب الانجليزى المعاصر دون تراسى

ترجمة : خديجه براده

اخترت هـذه القصة كواحدة من افضـل عشر قصص نشرت فى جريدة « السارتر داى ايفنتج بوست » لسنة ١٩٦٢ وهى أوسع الجرائد الأسبوعية البريطانية انتشارا · وقد اخترت لا لجدة الموضوع الذى تعالجه والذى لم يسبق لكاتب ان تعرض له فحسب · بل وللأسلوب الغريب الطريف الذى كتبت به أيضا · وهى الى جانب ذلك نموذج من الأدب الانجليزى المعاصر ·

كان جافث غير عادى منذ البداية ··· فحينما كان عمره ثلاثة أيام فقط وكان مجرد كتلة من الريش الابيض الناعم ذات عينين كبيرتين نطق أول كلمة له وكانت « هواى » لماذا ·

ومما لا شك فيه ان ذلك سر امه البومة اميلى · أولا لأن صغار البوم لا يتكلمون أبدا قبل أن يصبح عمرها على الأقل خمسة أيام ، وثانيا لأن جافث أثبت انه ليس طفلا عاديا يبدأ حديثه بكلمات ماما أو هوهومين ·

وقالت اميلى « ذاك بوم زكى ··· سوف نطلق عليه اسم جافث أى الذى منح الحكمة وعمره ثلاثة أيام » ·

وفى الحقيقة فان جافث تعنى المتضخم ولكن هذا يعطى القارىء فكرة عن اميلى التى كانت كغيرها من البوم وخاصة البوم المخطط مرتبكة التفكير ··· مثل آخر على ذلك انها كانت تفاخر بأن أحد أجدادها كان يمتلك قصرا فى اليونان

(كان هذا تطوير اميلى الخاص لأسطورة بومة القصر الاثينى) ·

وفى الأيام التى تلت ذلك كانت اميلى ترجوه « قلها ثانية يا جافث ··· قلها لخالتك روزالى ··· وابنة عمتك كلارا »

« هواى ··· هواى ··· لماذا » ··· كان جافث ينفذ رغبات والدته بينما ينزوى اخوته خجلا ··· وانتشر الخبر فى غابة جرابراندت أن ابن اميلى بوم فذ ··· ولا شـك ، وكان بقية البوم يحيون والده قائلين « سمعنا أن لك ابنا يعرف حروف الأبجدية كلها بل ويعرف أسماء جميع الوزراء انه بوم فذ ولا شك » ·

وكان «جو» يجيب مكتئبا ··· « كل ما أعلمه اننى لا أريد اطعامه أكثر من ذلك ·· صحيح ان الأولاد الآخرين يأكلون كثيرا ولكن هذا الجافث يأكل بأسرع مما تستطيع انت أن تنطق بحرف واحد ليقول « ··· هواى ··· لمـاذا ··· » وكثيرا ما يجعلنى أتساءل لماذا

أجهد ريش ذيلي في محاولة العثور على قوت هؤلاء ٠٠٠ المتوحشين الصغار ٠٠٠ بينما أبقى أنا جائع أغلب الوقت ثم يبلغ الأمر بهذا الجافث ن يقول لي ٠٠٠ لماذا هواى ٠٠٠ » ٠

فيقول الصديق « حسنا انك تعلم ما يقولون حينما يفقس أربعة أخوة

في نفس الوقت » فيرد جو « ماذا يقولون » ٠

فيتساءل الصديق ثانية «مين هوهو» ويتنهد «جو»ذلكأن كثيرا منمحادثات البوم المخطط تنتهي عادة بهذا الشكل فلا غرو ان فن الحديث يتدهور ٠

كان اخوة جافث الثلاثة ارت وشارلي وجرفيس بوم عادى فقد كانوا يأكلون ثلاث وجبات في اليوم كل منها توازي حجمهم أربع مرات ٠٠٠ وانتقلوا من طفولتهم الجميلة ذات الريش الابيض الى مراهقتهم ذات الشعر البني الأقل جمالا في وقت مناسب وحصلوا من أمهم على معلومات خاطئة تكفيهم في حياتهم بحيث أصبحوا فيليلة مغادرتهم للبيت مرتبكي الفكر مثلها تماما ٠

وفي ليلة رحيلهم ودع آرت وشارلي وجرفيس أهلهم وطاروا واختفوا في الظلام ما عدا جافث فقد قالت له أمه فخورة « أيها البوم الذي منح الحكمة وعمره ثلاثة أيام لقد حان وقت رحيلك فهيا حفظك الله والى اللقاء » ٠

ولكن جافث قال ٠٠٠ « سأنتظر حتى الصباح حينما أستطيع رؤية ما حولي ٠٠٠ فاذا كان علي أن أرحل فلا أقل من أن أرحل في وقت أستطيع فيه تبين طريقي فان الظلام في الخارج شديد » ٠

فرد والده ٠٠٠ « طبعا الظلام شديد فالبوم لا يطير الا في الظلام أيها الأبله»

فيسأل جافث ٠٠٠ هواى ٠٠٠ هواى ٠٠٠ لماذا ؟ ٠

فأجاب جو مغتاظا اذا كنت تعتقد انك تستطيع أن تعيش عالة على طوال عمرك ٠ فأنت ٠٠٠ » ٠

وقاطعته اميلي « جو تذكر ان الولد يختلف عن غيره » ٠٠٠ ثم ابتسمت وقالت لجافث بحنان « ٠٠٠ يا عزيزي انها سنة الحياة ٠٠٠ فمنذ أمد طويل قال الالآه الكبير مانيتوبا ٠٠٠ وقاطعها جو يائسا ٠٠٠ « مانيتو ٠٠ ما نيتوبا مكان في كندا على ما أعتقد » ٠٠٠

واكملتاميلي حديثها متجاهلة مقاطعة لها ٠٠٠ جمع الالاه ٠ مانيتوبا كل الطيور وأصدر جداول للطيران ٠٠٠ فكان نصيب البوم من الغسق الى الفجر بينما تسعى الصقور والنسور أثناء النهار ٠٠٠

٠٠٠ « هواى ٠٠٠ هواى ٠٠٠ لماذا ٠٠٠ نسهر نحن طوال الليل بحثا عن لقمة العيش ٠٠٠ من الذي اختار لنا نوبة الليل » ٠

وقالت اميلي لابنها « ٠٠٠ لأن مانيتوبا قال ذلك ٠٠٠ » ٠

فعارضها جافث ثانية « ٠٠٠ هواى ٠٠٠ هواى ٠٠٠ لماذا نضطر الى اتباع أوامره ؟ ٠٠٠ من الذي خول له سلطة اصدارها ؟ » ٠

« لان ٠٠ لأننا نحن معشر البوم لا نستطيع الرؤية أثناء النهار » ٠٠٠ واتجه جافث الى الباب الأمامي للعش الخاوي ٠٠ ونظر الى الخارج ٠٠ « هم

... هم ... لا استطيع أنا أن ارى جناحى حين أضعه أمام وجهى » ثم اتجه الى ركنه وقال لوالديه لا تيقظونى مبكرا ... فقد مررت بيوم شاق ... ثم غط فى نومه مباشرة » .

وحك جو قدميه « هذا هو ما كنت انتظره ... هيا بنا .. » .

« انتظر يا جو فانت تعلم ان جافث ليس بوما عاديا ... انه لا يستطيع الرؤية فى الظلام قد يكون مقدرا له أن يكون أول بوم يطير فى نوبة الصباح ... فكر فى ذلك يا جو ابننا الأول » .

« اذا كان مقدرا له ذلك لولد عصفورا مغردا ... كل ما هناك انه ينوى ان يقيم هنا بقية عمره ينتظرنى حتى أحضر له البقالة والخضر ثم يتبجح ويسأل ... هواى ... هواى ... لماذا ؟ » .

ومن ثم فبالرغم من اعتراض اميلى وتذمرها .. امسك جو برقبة جافث ورماه من الباب الى الظلام .. واستيقظ جافث فى الجو ورفرف مرتين بأجنحته ثم اصطدمت رأسه بشجرة مطاط .

لقد كان جافث صادقا فهو لايستطيع الرؤية فى الظلام ... وحينما أفاق من وقع الصدمة وذهب عنه الألم ... جلس على الأرض ونظر حوله .

« ماذا أفعل الآن فى وسط هذا الظلام ... ؟ » .

وفجاة تساءل صوت بجواره ... « ... هوو ... هوو ... مين ؟ » .

ورد الفتى المصاب ... « أنا جافث انقذونى مما أنا فيه ورد عليه الصوت فى الظلام » مستحيل أن يكون ذلك جافث فتى المعجزات ... » .

فرد جافث اسمع يا ارت هل هذا ذنبى ان أمى جعلت منى شيئا فذا ... انت تعلم ماما و ...

ورد صوت ثان ... « ... هو ... هوو ... مين ... ؟ » .
وصوت ثالث ... هو ... هو وو .. مين .... ؟ .

« لقد سمعتمونى أول مرة ... أنا أعرفكم يا جرفيس ويا شارلى ... هيا مدوا لى يد المساعدة .. فنحن اخوة على أية حال ... قولوا لى الى أين أتجه لأجد صخرة أو أى شىء اختفى تحته حتى الصباح .

كانت هناك همسات واستشارات فى الظلام ... وأخيرا قال شارلى « ... على اليسار على ارتفاع حوالى ستة أقدام ... انك لا يمكن أن تخطئه » .

واستدار جافث الى اليسار ثم طار ستة أقدام وسقط فى نبع من الماء الصافى المثلج ... وخرج منه يرتعد بينما أغرق اخوته فى الضحك ... وابتعدوا عنه وأمضى هو ليلة تعسة الى جوار النبع ينتظر أن يبتلعه بين لحظة وأخرى قط برية أو أسد جبلى ...

وببزوغ الفجر ارتفعت نفسية جافث وأظهر له ضوء النهار مكانا جميلا مخضرا يخترقه جدول رقراق ... ينساب من النبع وحيت الطيور شروق الشمس .. واستعدت الحشرات بسمفونية الصباح .. وبدأت الضفادع لعبها فى الماء ... وهمس لنفسه « ... يا لله على هذه الألوان الجميلة .. وتلاعب الضوء والظل على صفحة المياه

٠٠٠ انصت الى هذه الموسيقى الرائعة ٠٠٠ هذا المانيتوبا يقول ان علينا أن نحرم من كل ذلك لأننا بوم ويتبعــه الجميع ٠٠٠ هـــواى ٠٠٠ هواى ٠٠٠ لماذا ؟؟؟ » ٠

وطار الى فرع شجرة متدل وجلس وترك الشمس تجفف ريشة المبتل ٠٠ وحينما اصبح شكله لائقا مرة أخرى كان قد جاع فرحب بأول عصفور مر به ٠٠ ثم تبعه فار ثم ارنب برى وحية صغيرة ٠٠ وبعض القوارض والزواحف الأخرى التى شاء لها سوء حظها أن تمر بالقرب منه فى هذا الصـــباح البهيج ٠٠٠ مرت ساعة كان جافت مشـــغولا فيها ثم سمع صوت تخبط أجنحة طائر كبير جلس على فرع مجاور ونظر اليـه بخبث ٠٠٠

واسترجع جافت نصـــائح أمه ٠٠٠ ولكنه لم يستطع أن يجد حلا ٠٠ ليس ذلك يوما ولكنه بالتأكيد ليس بسلامة كذلك ٠٠٠ ؟

وقال جافت بتحفظ « ٠٠٠ أهلا » ٠

ورد عليه الآخر وقد فرج منقاره ٠٠ بدرجة لا تكاد ترى ٠٠ « اسمع أيهـا الفتى ان عندنا وسائلنا فى معـــاملة المتطفلين » ٠٠٠

وادار جافت راسه ٣٥٩ درجـة ثم أعادها الى مكانها وقال : « أنا لا أرى اية لافتة تحمل « ممنوع الدخول » ؟؟ ٠٠٠ ثم بأى حق تمارس سلطتك على أيا كنت ٠٠٠

« ألا تعـــرف من أنـــا ٠٠٠ ؟ أنا الصقر ذو الكتف الاحمر ٠٠٠ أيكفيك ذلك أيها الغبى » ٠ وفزع جافت فحسب تعاليم اميلى كان الصـــــقر ذو الكتف الأحمر أشد الطيور بأسا ٠٠ الا انه لم يظهر مخاوفه ٠٠٠ « هـــ ٠٠٠ انت الصقر ذو الكتف الاحمر ٠٠٠ ثم ماذا ؟ ٠٠٠ » ثم انكم معشر البوم يجب الا تعتقدوا انكم تســـتطيعون التطفل على اقليمنا كان يجب عليك الرحيل من هنا قبل الساعة الخامسة والدقيقة السابعة والخمسين بالتوقيت الدولى ٠

ورد جافت ٠٠٠ « هواى ٠٠٠ هواى ٠٠٠ لماذا ؟ ٠٠

واجاب الصقر حانقا ٠٠٠ « لماذا ؟ ٠٠٠ لماذا ؟ ٠٠٠ لأن هذه هى القوانين ٠

وقال جافت ٠٠٠ « قوانين من ؟ » ٠

« وانى لى أن أعرف قوانين من ٠٠٠ كل مـــا أعرفه انك فى غاية الوقاحة لمحاولتك البقاء هنا فى الوقت المخصص لنا ٠٠٠ ثم هز رأسه عجبا ٠٠٠ » ماذا ستقولون انتم معشر البوم لو اننا بدأنا نصيد أثناء الليل ؟ ٠٠٠

« أنا لا أعرف ماذا سيظن الآخرين أما عن نفسى فسأعتقد انك قد جننت فضوء النهار أفضل فالفرد يستطيع أن يرى الى أين يتجه ٠٠٠ » وهز كتفه وابتسم وبحلق فيه الصقر ٠٠٠ » ٠

« أنا لا أستطيع فهم ذلك فالمفروض انكم معشر البوم لا تستطيعون الرؤية أثناء النهار ٠٠٠ » ٠

ورد جافت مســـتهزئا « ٠٠ ولا بد انك كنت تستمع الى نصح أمى ٠٠ فقد أفهمتنى اننا نســـتطيع أن نرى خلال برميل من القار الاســـود ٠٠٠ وان بصيصا من ضوء الشمس يعمينا انها طيبة ولكنها مختلة مرتبكة الذهن ٠٠٠

وساله الصقر ذو الكتف الاحمر ٠٠

« أتعنى انك لا تستطيع الرؤية فى الظلام مثل أى منا تماما ... ؟ »

« اسمع هذا المانيتوبا جعل الليل لكى ننام ... وجعل النهار لكى نحيا .. وأعتقد ان ذلك .. له علاقة بتكييس الضوء والتمثيل الغذائى ... الخ .. فلماذا يختلف طائر عن آخر ، حتى ولو كان يوما ... ؟ »

ورد عليه الصقر بصعوبة ... « ولكن ... ولكن كل هذه السنين »

وهز جافث رأسه « اسمع أعرف انه يجب على ألا أقول ذلك ولكن لنواجه الأمر بشجاعة اعتقد ان معظم البوم اغبياء ... فان احدا قال لهم عليكم أن تطيروا بالليل أو على الأقل اعتقدوا ان احدا قال لهم ذلك فنفذوه منذ ذلك الحين .. فتصطدم رؤوسهم وتدخل أفرع الشجر فى عيونهم ويقعون على فريسة ، يتضح لهم بعد ذلك انها ذيل أختهم .. من الجائز انهم قد اعتادوا عبر السنين أن يميزوا بصعوبة بين الأشياء ولكن انيقول مانيتوبا انهم لايستطيعون الرؤية بالنهار ... ؟ » .

وبدأ الصقر ذو الكتف الاحمر متحيرا ثم قال ... « عن اذنك على أن أرى شخصا ما بشأن ذلك ... » وطار متثاقلا ...

وشغل جافث نفسه مرة أخرى ... وكان عمله منتجا بحيث انه حين عاد الصقر ومعه صديق له كان جافث قد امتلأ بدرجة جعلته يترك بعض الطيور الصغيرة تمر أمامه دون أن يمسها .

كان بصحبة الصقر طائر أكبر منه أبيض الريش قوى البنيان . ونظر اليه جافث قائلا « لا تقل لى انك نسر ... لماذا لا تقول « مخلص مخلص » .. واندهش النسر « ماذا » .

انك تقول ذلك ... اذن فقد كانت أمى مخطئة مرة أخرى ولكنك نسر أنيس كذلك ؟ .

ورد عليه الآخر بعد ان حول راسه عن جافث حتى يراه فى وضع مسرحى « نعم » . ثم ركز بصره على البوم وقال له « ما صحة هذا الذى قيل لى عن مخالفتك للقوانين اننا لا نسمح بذلك فهو ممنوع منعا باتا » .

ورد جافث « أنا لا أعرف ذلك ، كل ما هناك اننى يجب أن آكل وأنا لا أستطيع الرؤية فى الظلام » .

ورد عليه النسر مقتضبا « هراء » .

وقال الصقر « هذا ما قلته له يا سيادة الرئيس » .

وسأله النسر « أأنت أحد أولئك المتحررين » ؟ لقد سمعت عنكم انكم تتخلون عن التقاليد وعن العادات وعن القوانين والنظم التى جعلت منا عظماء » .

وأجاب جافث بعصبية « لا .. ليس هذا صحيحا أنا لست تحرريا ولكنى لا أرى أى سبب فى أن يحرم أى شخص من التمتع بدفء الشمس المجانى هذا . ألا يكفيكم هذا الضوء ويكفينى معكم كذلك » .

وقطب النسر جبينه وقال « هذا خارج عن الموضوع فالمشكلة هى اننا لا نستطيع أن نسمح لكل من هب ودب من الطيور أن تخرق القاعدة وتغير نظامها ونوبتها من الليل الى النهار ، وحتى لو استثنينا حالتك فستكون

سابقة يستند اليها ... انها ستكون كارثة » .

وتساءل جافث « لماذا ستكون كارثة

لان ... لان ... لأنها ستكون كذلك تصور لو امتلأت الغابة بالبوم وتساؤله العجيب هو هو انه لفظيع ثم ان ذلك قد يشجع طيور الصباح على أن تطالب بالسهر طول الليل سيختل نظام العالم » ثم نظر الى البوم الشاب نظرة فاحصة وقال « ... أليس عندك وطنية ؟ أم تنتظر منا ان نتخذ الاجراءات اللازمة ؟ » .

وفكر جافث فى الأمر واعترف لنفسه بالرغم منه ان ما قاله النسر صحيح من السخيف فعلا أن يتغير نظام الكون من أجل بوم صغير أحمق . فلا بد أنه أحمق والا لاستطاع أن يشق طريقه الحياة مثل آرت وشارلى وجرفيس لا بد أن أمه كانت مصيبة على الأقل فى هذه الناحية . ان البوم خلق ليرى فى الظلام ويفقد القدرة على الرؤية فى الضوء . ثم ان النسر والصقر كانا يفوقانه فى الوزن بخمسة عشر رطلا على الأقل .

وأخيرا قال « حسنا أيها السادة الكرام لقد انتصرتم على وسأغادر هذا المكان ولكن يجب أن آكل وسواء صدقتمونى أم لا فانا لا أستطيع الرؤية فى الظلام وانا جاد فى اننا يجب أن نجد حلا يرضى كلينا فقولا لى عن مكان أستطيع البقاء فيه بحيث لا يرتبك النظام وبحيث أستطيع أن أجد طعاما ... ستجدوننى متعاونا بحق » .

وتناقش النسر والصقر وكان جافث يستطيع أن يرى من حيث جلس انهما لم يتفقا على حل فأى اقتراح يقدمه الصقر كان النسر يستهزأ به واذا ما اقترح النسر مكانا للمنفى كان الصقر يجيب « لا لا يا سيادة الرئيس يجب أن نراعى المصلحة العامة للناس هناك » واستطالت المناقشة ومل جافث الانتظار فطار وترك رجل الدولة وكبير وزرائها يستكملون مناقشتهم ووجد أجمة أخرى ومع أنها لم تكن بجمال الغابة الأولى الا انها كانت مقبولة وبدأ يعمل ... ولكن فاجأته مجموعة من الغربان استقبلته بصراخ وعويل جعلته يهرب الى مكان آخر . ولكنه فوجىء بشتائم تنهال عليه من مجموعة من طيور أبو زريق . وفى مكان ثالث كان نبأ وجود بوم مخطط قد انتشر وحفز بعض الطيور الأخرى على استقباله استقبالا مثيرا الا أن جافث كان مجهدا تعبا فلم يحفل بهم وبدأ فى البحث عن طعام له فعثر على ورى (طائر امريكى) واستطاع أن يجد فارين قبل حلول الظلام وحاول النوم ولكن روى واخدا وفارين لم تكن كافية لتوفر له نوما هنيئا . وحينما تذمرت معدته لتوقظه مع بزوغ الفجر حاول التوبة الى حيث كان ليشبع جوعه .

وزمجر بصوت عال (فلتذهب نظمهم الى الجحيم . هل أموت جوعا ؟ على أية حال أنا لن أخسر شيئا) ودون أن يشعر وجد نفسه يصفر نشيدا حماسيا ليستجمع شجاعته التى واتته تدريجيا وببطء . واستعد للقيام بما سماه مهمة انتحارية وفجأة سمع صرخة انسان عالية وصرخة امرأة (هنا يا جولى انه الطائر ذو المنقار الحاد أو أعتقد أنه قد يكون بوما فى وسط النهار اسرعى) .

وسمع جافث أصوات آلات التصوير بينما كان يدير رأسه ليرى المرأتين

السمينتين المرتبكتين كامه تماما (انهما يعتقدان انه الطائر ذو المنقار الحاد وستكون الطامة ان تعتقدا انى الطائر الثلجى الأبيض) ٠

وقالت المدعوة جولى بعد أن وضعت أربع عدسات على عينيها « لست متأكدة انه الطائر ذو المنقار الحاد وارجح أن يكون بوما أبيض تغير ريشه فى الصيف يا الهى كم اتمنى أن ينشر جناحيه حتى استطيع التأكد ٠ واخذت تزغرد بلسانها وتصدر اصواتا غريبة يبدو انها كانت تعتقد أنها أصوات البوم وبدأت ترجوه « هيا يا بومى العزيز هيا هيا انشر جناحيك » ٠ فرد جافث هواى ولماذا أفعل ذلك بحق ما نيتوبا ؟

وقد صدر منه هذا التساؤل لشدة ضيقه بجهل المرأة والاصوات المزعجة التى تصدرها ولكنه لم يكن يتوقع رد الفعل هذا فقد خفضت كل من السيدتين آلة التصوير وحملقتا فيه وفغرتا فاهيهما ٠ كانت هناك فترة سكون ثم استدارت جولى الى زميلتها قائلة فى صوت هامس « اسمعت ما سمعت ؟ » فأجابت الاخرى ٠ لقد سمعت شيئا مثل ٠٠ لماذا هواى ولكنه كان واضحا فردت جولى ٠ اذن فهو ليس بوما بالمرة لأن البوم يقول هو هومين لاهواى هواى لماذا ٠

وردت الاخرى أو يقولون ٠ « هوواو هوهوو » وأحيانا يقولون هوهوهوت وفى حالات نادرة هوت هوت ٠

وهمست جولى ولكنهم لا يقولون ابدا هواى هواى ٠ لماذا ٠

ونظرت المرأتان الى بعضهما واصفر وجهاهما من فرط التأثر واخيرا قطعت جولى السكون قائلة « يجب ان يرى الدكتور انسلموث هذا ٠

وتساءلت الاخرى ٠ ولكن كيف نستبقيه الى أن يراه ٠ ثم قالت يائسة سوف يطير ولن يصدقنا احد وعلى الاخص الدكتور انسلموث ٠

ويبدو ان جولى كانت اذكى الاثنين فقد فتحت حقيبتها المدلاة على الجانب المقابل للجانب المعلقة به آلة التصوير وبدأت تمزق ورق تغليف بعض المعلبات « ان البوم مشهور بشراهته » ثم قالت وهى تستجمع انفاسها ضعى غداءك على الارض واكشفى عنه فسوف يشغله ذلك فترة تكفى لاستدعاء الدكتور انسلموث ثم ان البوم لا يطير بالنهار فهو لايرى فى ضوء الشمس ٠

وبدأ لعاب جافث يسيل ولكنه أقفل منقاره ٠ كانت هاتان المرأتان تضعان أمامه تحت الشجرة غداء حافلا مكونا من سندوتشات اللحم وسلطة البيض والزيتون المخلل وبعض الكعك والفاكهة وقوالب من الشكولاته ٠ والبوم الصغير الجائع يفعل اى شىء لينال هذه الوجبة وما ان تركاه وهو يغرد حتى انقض على أغرب وجبة تقدم فى التاريخ الى بوم مخطط ٠

وفكر جافث بصوت عال بعد ان انتهى من وجبته الرسمية ٠ قد استطيع أن أعيش حياة رغدة اذا استطعت الاحتفاظ باهتمام هذا الانسلموث واذا كان صوت هواى هواى وكلمة لماذا هما سر اهتمامه فساكررها من الآن حتى موسم تساقط الثلوج » ٠

وكان جافث يتدرب على قول كلمة هواى لماذا حسب السلم الموسيقى حينما

وصل الدكتور انسلموث تقوده جولى وزميلتها يصحبهم ١٤ رجلا وامرأة بآلات تصويرهم واجهزة تسجيل الصوت التى تعمل بالبطريات وكتب الطيور الخ ٠

وهكذا أصبح جافث الاعجوبة التاسعة فى دنيا علماء الطيور فقد كان يقف للتصوير أثناء تناوله ثلاث واجبات فى الافطار وأربع وجبات فى الغداء ويتناول الشاى مرتين ثم يتناول عدة وجبات عشاء مبكرة فى وقت وضوء يسمح بالتقاط صور ملونه ٠ وجاء المهتمون بالطيور من كل الانحاء ليروه ويعجبوا به ويقدموا فروض الطاعة والولاء تحت شجرته وأصبح جافث سعيدا موفور العافية ٠

ثم حدث شيء فى اليوم الثامن لهذه الحياة الزاخرة فبعد انصراف المعجبين وبينما هو يستعد للنوم يسمع خفق جناحين بالقرب من الشجرة التى اتخذها ماوى له ولمح جافث طيف بوم قبل أن يختفى فى الظلام ٠

وزمجر جافث « من الأفضل له أن يبقى بعيدا عنى وألا يحاول مشاركتى فى رزقى » وحاول النوم ولكن دون جدوى فقد كان هناك شيء غريب فى هذا البوم كان يمتاز بشيء لطيف حلو يختلف عن شارلى مثلا أو ارث أو جرفيس ٠

وثار جافث على نفسه ٠ أأنت مجنون أم أبله ؟ لقد لمحته فقط وانت تعلم أنك لا تحسن التمييز بعد الساعة الرابعة والنصف ثم تقول شيئا لطيفا حلوا ؟ ورغم ذلك جافاه النوم وازداد الامر سوءا مما جعل جافث يخرج من مخبئه عسى أن يساعده هواء الليل الرطب على النوم ٠ وأخذ يسترجع أنواع الأكل التى أكلها لعل شيئا منها كان سبب ارقه وفجاة سمع صوت البوم وهو يقترب منه ويغرد تساؤله المعروف هو هو مين ٠

لقد كان صوت انثى يغريه ويجذبه وأحس جافث بريش صدره يرتعد مع نبضات قلبه ٠ « اسمى جافث » ٠ ألم نتقابل من قبل فى مكان ما يا آنسة ؟ ٠٠٠٠ ودون أدنى تفكير طار من مكانه ليتبعها ٠

وسقط طبعا فلم يطر أكثر من ستة أقدام ووجد نفسه يصطدم بشجرة ويقع على الأرض وهو يحس أن رقبته قد كسرت ولكنه بعد أن سمع صوت الفتاة حاول أن يطير مرة أخرى رغم ضعفه ولكنه هذه المرة طار أكثر من عشرين قدما قبل أن يصطدم ٠ وأمضى الليلة على الارض يتوجع يائسا ولا يعلم الا مانيتوبا نفسه لماذا لم يبتلعه شيء قبل أن يستطيع الوصول الى شجرته فى الصباح ٠

ولم تعد هذه الشجرة جنة النهمين فلسبب ما أصبح الطعام الذى يضعه الدكتور انسلموث وأتباعه غير شهى ويفتقر الى الدسامة ٠ فلم يذق جافث افطاره الثالث ولا غداءه وضايقته تصرفات الآدميين العجائز بدرجة جعلته يتركهم أثناء تصويرهم له فى فيلم فوتوغرافى ويحتجب فى حجرته بالرغم من كل الرجوات والدعوات والاصوات المزعجة التى كان المعجبون به يصدرونها

كان جافث يحب ٠ لقد تعلق قلبه بها وجاء الغسق وحاول جافث قدر الامكان أن يجعل عينيه تمزقان الظلام وحين جاءت ومرت امامه آه لقد كانت جميلة حقا ولكنها مرت كطيف ثم اختفت فى الظلام وصرخ جافث « انتظرى ٠٠

انتظرى · اريد ان أتحدث اليك بل يجب أن أكلمك ولكن ردها كان واضحا مقنعا، سيدى أتعتقد اننى احدى هؤلاء اللواتى يلتقطهن الغرباء من الطريق بدل ان يحضروا بعد أن يرخى الليل سدوله الى بيتى فى شجرة البلوط الثالثة جنوب الجدول فى غابة جرابراندت ؟ يالها من اهانة ·

وصرخ جافث ولكن لا استطيع ان أرى الظلام · ما رأيك لو جئت غدا ظهرا لتناول الغداء معكم ؟ وسمعها تطير ولكنه لم يستطع أن يسمع ردها ان كان هناك رد · وفى صباح اليوم التالى وجد جافث شجرة البلوط ولكن الجميع كانوا بالطبع نياما فنادى ولكن ما من مجيب الا مجموعة من الصقور ذوات الكتف الاحمر التى هددت بسحقه وتدميره والقضاء عليه اذا تجرأ وعاد الى السعى أثناء النهار ·

وعاد البوم الصغير الى شجرته ونظر بمرارة الى الهدايا والمنح التى قدمها له المعجبون الذين رحبوا بعودته سالما·

وجلس فى بيته مبتئسا وحينما مرت به مرة اخرى اثناء الغسق كان يعرف ما الذى سيفعله · كان عليه ان يتعلم الطيران الليلى بأصعب الطرق · طريقة التجربة والخطأ ·

كانت أخطاء جافث لا تحصى فقد اصطدم بالشجرة مئات المرات وجرحته غصون الشجرة مرات لا تعد كما اصطدم عدة مرات باريال التليفزيون وثلاث مرات بلافتات الاعلانات ومرة فى سيارة كانت متوقفة بالغابة بل ومرة فى ظهر غزال يرعى - وحينما كان يسقط على الارض كان يهب واقفا ليحاول من جديد ورغم الكدمات والخدوش الا انه كان ينجو كل ليلة باعجوبة وينام اثناء النهار ليستأنف نشاطه بالليل ورحل الدكتور انسلموث واتباعه وهكذا بقى جافث دون طعام فهزل وضعف ومع ذلك فلم يتقدم فى محاولاته الليلة كثيرا الى ان جاء يوم استطاع فيه ان يتبعها فيه بمسافة مائة قدم · وكان ذلك هو ما يحتاجه تماما فقد ارتفعت روحه

ومر بعض الوقت ذات يوم جلس آرث وشارلى وجرفيس على فرع شجرة فى غابة جرابراندت حينما مرت بهم بومة شابة جميلة واطلق الشبان الثلاثة صفيرا منخفضا طويلا وهمس جرفيس « يالها من جميلة ولكنها مشغولة دائما

وبدأ آرت يشرح له : سمعت انها مخطوبة لـ ·· ثم توقف فجأة لرؤيته البوم يتبعها على بعد خمسين قدما كان يطير بطريقة عجيبة وعيناه مغمضتان ولكنه كان بطريقة ما يعرف وجهته · وقبل ان يستطيع احدهم الكلام سمعاه يقول لهم من طرف منقاره : « قفا على جانب الطريق حتى لا اصطدم بكم » واستمر فى الطيران محتفظا بسرعته وارتفاعه · وكان شارلى أول من قطع الصمت الذى ساد ، وهم يتبعونه بنظراتهم «أكاد أجزم ان ذلك كان جافث نفسه ، جافث الذى منح الحكمة وعمره ثلاثة أيام ولكنه تغير من ناحيتين أولا انه يطير أثناء الليل ككل البوم ، ثانيا انه لا يتساءل لماذا لماذا ؟ هواى ؟

ونظر جرفيس الى شجرة البلوط الثالثة بعد الجدول فوجد بومين تقفان ملتصقتين جنبا الى جنب وابتسم · من المؤكد انه جافث وقد اصلح من شأن نفسه ·· أصبح يعرف أيضا ·· لماذا ·

عن البخلاء

بقلم : سمير وهبى

نوادر البخلاء من الطرائف الموجودة فى الآداب القديمة والحديثة على حد سواء ، وسبب تسجيلها أن فيها عنصرا من الفكاهة ، وهى فكاهة من النوع الذى يثير الابتسام والتفكير ، واصبحت لهذا السبب ، مادة للتندر ، خاصة وانها تعرض لصفة من صفات النفس الانسانية ، وان كانت خسيسة ، فهى لاتخلو من الطرافة والتسلية والعبرة ٠

يروى قدماء الاغريق عن ميداس ملك فريجيا أنه كان جشعا ، محبا للذهب ، فطلب من الاله باخوس أن يمنحه القدرة على تحويل كل شىء يلمسه الى ذهب ، فتحققت رغبته ، ولكنه فقد سعادة الحياة ، اذ تحول كل شىء الى المعدن النفيس، حتى المأكولات الذى يتغذى بها أصبحت صلبة وقاسية بمجرد أن يلمسها بأصابعه ، فمات كمدا ٠

وبخلاء الجاحظ نالوا شهرة عريضة ، لاتقل عن شهرة هرباجون بخيل موليير ، او الأب جرانديه بخيل بلزاك » وجميع هؤلاء اتصفوا بالبخل والامساك وهى رذيلة تصفهم مع « شيلوك » فى صف واحد ، جميعهم يعدون نقودهم فى تلذذ ظاهر ، لان رنين الذهب يطربهم ، فهو عندهم نديم يسهرون معه ، وهو عندهم خليل يهمسون له باخص شجونهم ، هو فؤادهم ووجدانهم ، كلما زاد مقداره عندهم طربوا ، واذا تعرض لهزة وجموا ، وربما فلتت أعصابهم ٠

والى جانب هذا الجشع المتأصل نجد التقتير ، نجده فى شئون المعيشة كالأكل والشرب والملبس ، ثم نجده أيضا فى الابتعاد عن الناس ، وهل الناس الا مجلبـــة للمصائب ! واذا كان البخيل عزبا ، اقتصرت مضايقاته مع الخدم أولا ، وهم العارفون بشئونه ، وينبههم الى الاحتراس من التبذير ، وطريقة سؤاله تنبىء عما يتفاعل فى أعماق نفسه ، واذا استطاع أحكام الرقابة بنفسه لما تردد لحظة واحدة ، وبعد الخدم ، يأتى الجيران الذين يشتركون معه فى مصالح واحدة ، ثم من بعدهم يأتى الباعة ومن اليهم ممن يضطر الى التعامل معهم ، ونوادر البخـــلاء فى الشراء والبيع أكثر من أن تحصى ، وكل منهم يريد الحصول على أقصى فائدة بأقل مصروف ، فالقماش يريدونه حديدا لايبلى ويكتفون من الأكل بما كان كبيرا فى حجمه وقليلا فى ثمنه ، والبخيل اذن حريص على الكمية الكثيرة وليس على النوع الجيد ٠ والكم عنده أحسن من الكيف، وكلما زادت الوحدات العددية (ولا أقول الحرارية) ، كان الطعام عنده أبرك وأنفع ، وعندما يكتشف بعد فترة أن الصنف الذى اختاره هو الأوفر ، نراه يقتصر عليه ، فهو

مأكوله الدائم يتوفر عليه دون أن يجد غضاضة في الاستمرار عليه ، يطعم منه ويفرض اطعامه على الآخرين .

واذا كان زوجا ، فالويل كل الويل لزوجته ـ أو لجاريته ، ثم أولاده ، الزواج عنده قرين الفقر ، والاولاد هم التبذير بعينه .

واذا أراد تزويج ابنة له ، اختار لها الشخص الغني ، فهذا عنده أهم وأضمن ، فليس للحب عنده مكان ، والعواطف لغو لا طائل تحتها .

أراد هرباجون أن يتزوج ، فجاءته الخاطبة بفتاة فقيرة لم تقع عنده موقعا حسنا ولما كانت الخاطبة محنكة وأريبة ، فقد جعلت تحبذ له فقرها ، ولما كانت عارفة بطباعه وتخشى أن يضيع أجرها ، صارت تبين له وتكرر أن هـذا الفقـر ميزة وفضـيلة ، وامتدحت الخاطبة قناعة الفتاة التي ربيت في الفقر ، ولم تعرف مزالق حياة الاسراف ، وأجرى موليير دفاعها الحار على النحو الذي سنراه ، والفتـاة الفقيرة المرشحة للزواج ليست معدمة كما قد يتبادر لنا وانما عندها مال ولكنه غير وفير يدر عليها ربعا يقدر بأثنى عشر ألف فضة .

والآن لنستمع الى كلام فروزين الخاطبة وهي تحدث هرباجون البخيل :

و ... والشابة ربيت وكبرت في منزل لايعرفون فيه الا قنـاعة الفم ، انهـا فتاة تعودت أكل السلاطة واللبن والجبن والتفاح ، ولا تلزم لها المائدة الدسمة ولا أنواع الشوربة التي تؤخذ قبل الأكل ، وهي لاترغب في الشعير المقشور ولا الاصناف الفاخرة التي تطلبها السيدات ذوات النسب الرفيع ، ولن يزيد مصروفها في السنة كلها على ثلاثة آلاف فضة ، وهي أيضا متواضعة في ملبسها تختار البسيط منها ولا تحب المجوهرات اللامعة ولا الملابس الفاخرة ولا الأثاث الغالي ، وهي لن تـكلفك الا دراهم قليلة ، ان فقرها نعمة لك وراحة .

(المشهد الخامس من الفصل الثاني)

***

ولما استقر رأيه على التزوج بها وكان لابد من دعوتها الى وليمة يقيمها لهـذه المناسبة ، نادى خدمه وألقى عليهم وصاياه ، ومن هذه الوصـايا مثلا انه أمرهم بألا يعطوا شرابا الا لمن طلب وكان ظامئا ، وعليهم ألا يقـلدوا هؤلاء المغرورين الذين «يثيرون» رغبة الشراب في الضيوف بكثرة الحاحهم ويجعلونهم يرغبون في الشراب وهم لايفكرون فيه اطلاقا ، وختاما يقول :

ـ « وعليكم ألا تسرعوا في اجابة الطلب قبل أن يؤكده الضيـف أكثر من مرة ، ولا تنسوا أن تكثروا من جلب الماء» .

(الفصل الثالث ـ المشهد الأول)

ولنستعرض الآن نماذج أخرى من بخلاء آخرين ، وهم كثيرون وصفهم الادباء أدق وصف في حالاتهم الكثيرة ، ومن بينهم المؤلف اليوناني تيوفراست ، ومن بعده لابروير الفرنسي الذي حذا حذوه ، ومنهم بخلاء الجاحظ وأشعب الطفيلي وشيلوك اليهودي والاب جرانديه ، ومن الشعراء من سجل نوادر البخلاء ، ووصفوهم في سخرية لاذعة هي أقرب الى الكاريكاتير، ولا ننسى ذكر جهود الفن السينمائي والقصص الشعبية التي تصور رذيلة البخل ٠

نبدأ بجان دي لا برويير الذي يرجع اليه الفضل في تعريفنا بتيوفراست ، عاش لابروير فيما بين عامي ١٦٤٥ و ١٦٩٦ ميلادية وحياته كما تقول دائرة المعارف التي ننقل منها سيرته ، خالية من الاحداث المثيرة ، قضى حياته مع حفيد دوق كونديه الكبير ، معلما له ثم سكرتيرا خاصا له ، وكل ما يهمنا أن نوجه اليه الانظار ، ان لابروير كاتب أخلاقي بمعنى انه كان يتوخى النصح في كتابته ، فأدبه نوع من الخطابة الواعظة ويتميز أسلوبه بالايجاز المطلق مع القصد في التعبير والمعنى ، وترك لنا كتابا سماه «الصور الاخلاقية» ، وصف فيها أخلاق ورجال عصره أتبعه بترجمة للنماذج البشرية التي كتبها تيوفراست ، وهذه النماذج تتناول وصفا لاذعا لثلاثين شخصية ، نجد البخيل يأخذ منها مكانه الى جانب المتنطع والمتحذلق والغنى والمتكبر ، وعديم الذوق والحذر والعجول والشامت والجبان وسيء الظن وغيرهم ٠

وتيوفراست هذا فيلسوف اغريقي ، ولد في جزيرة لسبوس وعاش فيما بين عامي ٣٧٢ الى ٢٨٧ قبل الميلاد ، وهو تلميذ ارسطو المشهور ، وقد خلفه في ادارة المدرسة التي أسسها ، وكتابه عن الصور الأخلاقية ملىء بالملاحظات التافهة السطحية . ولكنها رغم ضحالتها حافلة بالقفشات اللاذعة والبديعة ، وترجمة لابروير له غير سليمة ، ففي النسختين اللتين رجعنا اليهما ، نجد في الحواشي الشيء الكثير من الاستدراكات على التصرف الجرىء في الترجمة وعدم توخي الدقة في النقل ، وقد يكون هذا راجعا الى رغبة لابروير الصريحة في اضافة ملاحظاته الشخصية لكي تكون الصورة أتم وأكثر شمولا ٠

وبالنسبة للبخيل ، رصد تيوفراست الصفات التقليدية له : فهو رجل عديم الشرف والمجد عندما يواجه بمسالة فيها صرف للنقود ، واذا حاز جائزة التمثيل ، فلن يقدم قربانا ذا قيمة ، وانما يكتفي «بتاج مصنوع من الخشب» ، يرفعه الى الآلهة ٠ واذا حدث ان الشعب كان يعاني أزمة أو اجتمع الكبار لحلها ، وقرروا جمع بعض المال نراه قد زاغ من الاجتماع في لباقة ، فهو يقوم مع القائمين ، لا ليعطي وانما لينسحب وفي حفل زواج ابنته ، عندما يريد أن يتقرب من الآلهة بذبيحة ، طبقا للعادات المرعية نراه لايترك للآلهة الا المواضع التي يجب أن تحرق على المذبح ، أما بقية أجزاء الذبيحة فهو يحتجزها للبيع ، وتيوفراست يصف البخيل في حالات نومه وسفره وذهابه الى السوق لشراء اللحم والخضار ، ونظرا لانه لايمتلك سوى رداء واحد نجده عندما يضطر الى تنظيفه يلازم منزله كما انه يتفادى المرور على الاماكن التي يتوقع ان يتقابل

فيها مع أناس يطلبون منه الاحسان ، ولا يجد بأسا من اتخاذ شارع آخر يمشى فيه حتى يصل الى منزله ، وطبيعى منه أنه لا يستخدم أحدا لخدمته ، فهو الذى يكنس منزله بنفسه ، أما ملابسه فنحن نتوقع أن تكون دائما مستعملة وقديمة ورثة ، واذا اضطر أن تذهب الى اجتماع هام يقابل فيه علية القوم ، عمد الى ثوبه وقلبه ليلبسه على الجهة التى ما زال فيها بعض الرونق ٠

ونجد فى حاشية الطبعة التى تحت يدنا (ويرجع تاريخها الى عام ١٨٦١) ان النسخة الخطية لتيوفراست والمحفوظة بالفاتيكان تذكر أن البخيل لايرسل أولاده الى المدرسة فى الاوقات التى يلزم فيها ـ طبقا للتقاليد ـ تقديم الهدايا الى المعلمين ٠

***

واذا انتقلنا الى الجاحظ ، وجدنا بخلاءه أكثر حياة ، لاننا نجد لهم أسماء ، وهم يعيشون فى بلدان وقرى يسميها لنا بأسمائها : فهم ليسوا « نماذج » مجردة لما يكون عليه البخيل من طباع وأخلا ق ،وانما هم على العكس أصحاب نوادر حدثت لهم مع الجاحظ ، فيرويها لنا بأسلوبه التصويرى الرائع ، ولا ينسى أن يضخم العيوب ، وان يبرزها ابرازا جريا على طريقة كتاب الفكاهة والسخرية ، فكتابه «البخلاء» ، معرض ساخر لشخصيات عايشها وعرفها حق المعرفة واحتك بها فى حياته اليومية ، وسخر منها ، كما سخر أيضا من نفسه ، ووصفها لنا وصف العارف الخبير ٠

وجدير بالذكر أن للجاحظ كتابا آخر هو «محاسن الأضداد» به فصلان يصف فيهما محاسن الكرم والسخاء ، ثم يأتى بضدهما ويتكلم عن محاسن البخل والتقتير ، وهذه ناحية أخرى من عبقرية الجاحظ الذى يرى الشىء وضده ويتسقط فى الصفات الحميدة عيوبها الشائنة ٠

وقصص الجاحظ قطاعات حية تجمع بين الطلاوة والعمق والطرافة وجمال المضمون ، وقراءته فيها تسلية وفكاهة ، نجد «حاتما» الى جانب « مادر » وكلاهما يمثل اتجاها مخالفا ، واحد منهم الى أقصى اليمين ، والثانى الى أقصى اليسار ، الاول يحث الناس على السخاء فيقول :

فلا الجود يفنى المال قبل فنائه ... ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقا بعيش مقتر ... لكل غد رزقا يعود جديد
ألم تر ان الرزق غاد ورائح ... وان الذى أعطاك سوف يعيد

أما أبو عبس البخيل ، فله طريقة فريدة فى النظر الى المال ، كان اذا وقع الدرهم فى يده نقره بأصبعه ثم يقول :

ـ كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها ، الآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ، ثم يرمى فى صندوقه ، فيكون آخر العهد به !

ومن العبث أن نحاول تلخيص قصص البخلاء الذين عرفهم الجاحظ ، فهى كثيرة وجميعها تكشف عن جوانب غنية من فنه الكتابى ، وقد ألف كتابه فى أواخر حياته

اذ ورد في قصته مع محفوظ النقاش ذكر لمرض الفالج الذى كان يشكو منه (البخلاء ج ٢ : ٤٥ طبعة وزارة التربية والتعليم) ، وهو المرض الذى أصيب به فى وقت متأخر من حياته ، وجدير بالذكر أن الحديث عن البخل والبخلاء لم يستحدثه الجاحظ ، وقد لاحظ الدكتور طه الحاجرى فى المقدمة التى كتبها للبخلاء (ص ١٧) ان الحديث عن البخلاء قد راج وانتشر لسببين :

أولهما : بسبب الشعوبيين الذين كانوا يحقرون شأن العرب ، ويرون أن فخرهم بصفة الكرم ليس الا نفجا ووهما لا حقيقة له .

وثانيهما : الخصومة السياسية بين الأمويين والعباسيين ، فقد كان كل فريق منهم يعمل على اشاعة النقائص والمثالب للفريق الآخر ، ولو عن طريق الاختلاق والادعاء . وكان البخل من هذه النقائص التى يلزم كل فريق بها الفريق الآخر .

وقد أيد الاستاذ عبد الحكيم بلبع هذا الاعتقاد ، غير أنه زاد على كلام الحاجرى ، ان « أثر الجاحظ يظهر فى عمق الدراسة واتساعها واحاطتها ونزوعها الى التحقيق العلمى الذى لا يشوبه غرض سياسى أو جنسى» (ص ٢٢٦ من النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه) .

ولاحظ الدكتور احمد محمد الحوفى « ان الجاحظ استعمل فى كتاب (البخلاء) كلمات فارسية معربة للدلالة على مسميات لا أسماء لها فى العربية ، كما ان نزعته العقلية تطالع القارئ فيما يورد من آراء مدعومة بالأدلة المتعاكسة والاقيسة المتعارضة والنتائج المتناقضة ، ولم يخل الكتاب من كلمات أو عبارات نابية عن المعروف من الطابع العام للجاحظ ، لانه حكاها على لسان أهلها بغير تصفية ولا تنميق » .

ويرى الدكتور شوقى ضيف فى هذا الاتجاه دليلا على منهج «الواقعية» الذى اتخذه الجاحظ فى مؤلفاته ، خاصة فى تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره ، حتى انه ليحكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ ، لينقل اليك الواقع بكل ما فيه (ص ١٦٣ : الفن ومذاهبه فى النثر العربى) .

ويقول الجاحظ فى كتابه : «وان وجدتم فى هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب أو لفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا انا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حده الا أن أحكى كلاما من كلام متعاقلى البخلاء ، وأشباه العلماء كسهل بن هرون واشباهه (الجزء الاول صفحة ٧٨) .

***

وأشعب الطفيلى من الشخصيات الطريفة التى نجد ذكرها فى كتب الأقدمين ، كتب عنه أربعة مشهورون ، هم الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادى وأخيرا بديع الزمان ، ومن المحدثين الذين تعرضوا له توفيق الحكيم ، فقد ألف عنه كتابا سماه «تاريخ حياة معدة» (١٩٣٨) ، ثم أعاد نشره تحت عنوان آخر هو « أشعب أمير الطفيليين » (١٩٥٢) . اننا نجد أنفسنا أمام شخص يصر دائما على الأخذ لانه « يرصد الموائد والطعوم ، كما يرصد الفلكيون الكواكب والنجوم » .

وأشعب هذا ، اذا حدثته جاريته الحسناء رشأ عن الحب ، حدثها هو عن حب معدته للطعام ، ونجده دائما فى حالة من الجشع والأخذ سواء فى مكة أو فى حفلة العرس ، ولكنه رغم ذلك ضيف خفيف الظل ومحتال طريف فى كل المجالس ، سواء أكان الخليفة جليسه ، أم بنان صديقه . وتأتى المأساة يوم يتقابل مع « الكندى » وهو بخيل مقتر ، حريص على ماله وطعامه ، فنجد أنفسنا أمام شخص يصر دائما على الاخذ وشخص آخر يصر دائما على قبض اليد .

وفيما بعد ، صورة لمثل هذا اللقاء ، جاء العصر واشعب يتسكع فى الاسواق الى أن انتهى به المطاف امام بستان من بساتين الكندى (عن توفيق الحكيم ص ٢٠) .

وقف أشعب وارسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم «سكباج» بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات ، فاقترب منه مسلما عليه ، فرد الكندى السلام قائلا :

ـ هلم عافاك الله .

واذا باشعب أسرع من خطف البرق فى صحن السماء قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء .

فصاح به الكندى وهو يأكل :

ـ مكانك ، فان العجلة من عمل الشيطان .

فوقف أشعب مأخوذا ..

فساله الكندى :

ـ تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

ـ أريد أن أتغذى ؟

فحملق فيه الكندى :

ـ ولم ذلك ، وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال أشعب :

ـ أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

ـ ويلك ! لو ظننت انك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام .. ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف .

وازدرد الرجل بيضه مما بين يديه ، وجعل أشعب ينظر اليه لحظة ثم قال له :

ـ لقد رأيتك تأكل وحدك ٠

فبلع الكندي ريقه ثم قال :

ـ ليس على في هذا الموضع مسألة ، انما المسألة على من أكل من الجماعة ، لان ذلك هو التكلف ، وأكلي وحدي هو الأصل ٠ وأكل مع غيري زيادة في الاصل واذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء ، فان جليس السوء خير من أكيل السوء ، لأن كل أكيل جليس ، وليس كل جليس أكيلا ٠

وهكذا يدور بينهما حوار لذيذ يستغرق صفحات كثيرة ، دون أن يتنازل واحد منهما عن موقفه ، واحد يطلب ويلح والثاني يرفض ويسوق الحجة تلو الحجة ٠

***

واذا انتقلنا الى أخبار الشعراء وجدنا ابن الرومي في هجائه الساخر يصف بخيلا اسمه عيسى وصفا كاريكاتوريا :

يقتـــر عيسى على نفســـه ... وليس ببـاق ولا خــالد
فلو يســتطيع لتقتيره ... تنفس من منخــر واحــد

وابرع منه وصفا هو أبو نواس الذي هجا ثلاثة بخلاء هم الخصيب والفضــل وسعيد ، واتهمهم بالبخل ٠

سخر من الاول وهو ينظر الى الرغيف في طرب واشتياق :

جعل الطعام على بنيه محرما ... قوتا وحـلله لمن لايسغب
فاذا هم رأوا الرغيف طربوا ... طرب الصيام الى آذان المغرب

أما «الفضل» فقد لصق به صورة بارعة تصمه بالتقتير الشديد :

رأيت الفضـــل مكتئبـا ... ينـاغي الخبز والسـمكا
فأسـبل طرفـه لمـــا ... رآني قادمــا وبـكي
فلمـــا ان حلفت له ... بأني صائم ضحـــكا

تلك صورة ساخرة وجميلة ، جمع فيها حالتين نفسيتين متباينتين ، في طباق جميل (البكاء والضحك) هذا فضلا عن الوصف الفوتوغرافي في صور متتابعة ، كأنها شريط سينمائي ، اذ نرى في أول الأمر الفضل وهو مكتئب ، ثم نراه يناغي السمك والخبز ، وبعد ذلك نشاهده مسبل العينين ، وعندما رأى أبا نواس مقبلا عليه نلمح بكاءه ، غير أن دعابة ابي نواس أرادت أن تكشف عن خبيئة نفس صديقه ، اذ أقسم له (ولم يكتف بمجرد القول) بانه صائم ، ولما تأكد الصديق بفضل القسم بان أحدا لن يشاركه الطعام ، ابتسم وضحك ٠

أليست هذه كوميديا صغيرة من ثلاثة فصول ، تقع فى ثلاثة أبيات فقط ، الأمر الذى يدل على براعة منقطعة النظير ، انها براعة جعلت الفنان يحشر صورا متتابعة ، غنية فى دلالتها فى حيز ضيق ·

وأروع مما سبق تلك الصورة المركبة التى يرسمها لنا لسعيد البخيل الذى ينظر الى رغيفه :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه	يقلبه طورا وطورا يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه	ويجلسه فى حجره ويخاطبه
وان جاءه المسكين يطلب فضله	فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب	وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ان سعيدا ينظر الى الرغيف نظرته الى جوهرة ثمينة يخرجها من ملابسه طورا ، ويتأملها طورا ، يلاعب الرغيف ويداعبه ويناجيه ويتغزل فيه ، ثم يخرجه من ملابسه – لا للأكل – وانما لمجرد شمه ! ويناديه بأعذب الألفاظ التى تخص بها الأم ابنها اليتيم ، فتفيض عليه من كلامها العذب ما يملأ جوانحه سرورا وبهجة ، واذا ما أتى فقير يطلب منه قطعة منه هاج وقام بالسوط يطرده ، وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، وانما يجرى وراءه ويلاحقه فى مطاردة عنيفة حتى يكسر رجليه ويؤذيه بنتف شاربه·

أليست هذه رواية هزلية صغيرة حشد فيها كل المقومات الحسية والنفسية ، من حيث الشكل والمضمون التى تجعلها رواية ناجحة تثير الاهتمام فى نفس قارئها ؟

***

وفى ميدان السينما أخرجت لنا السينما الايطالية أفلاما عن الرذائل السبع التى ذكرها آباء الكنيسة ، ويأخذ البخل مكانه الى جانب الكسل والترف والغضب والشراهة والكبرياء والحسد ·

ففى فيلم «البخل» نرى باولو ستوبا يقوم بدور شخص فاحش الثراء ، ولكنه بخيل مقتر يستغل الفقراء استغلالا مقيتا ، وفى ذات يوم يفقد حافظة نقوده فى أثناء زيارته لأحد الأحياء الفقيرة، وعاد الى زوجته وهو بادى الغضب ، فيتعارك معها ويحاول أن ينتزع من رقبتها عقد اللؤلؤ الذى أهداه اليها فى ليلة زفافها اليه ، وكظمت الزوجة غيظها وانتقمت منه بأن رمت من النافذة مبلغ المائتى ألف ليرة التى أتى بها أحد العمال الشرفاء وقد وجد حافظة بها اسم صاحبها ، ولم تشأ أمانته أن يمس ما بداخلها ، فانصرف دون أن يأخذ حتى مكافأته القانونية ، ولا يسع مشاهد هذا الفيلم الا الابتسام من هذا الانتقام الذى يستحقه البخيل ·

وتسجل القصص الشعبية نوادر طريفة عن البخلاء ، منها الحدوتة الطريفة التى تعرفها كل الجدات وترويها الى صفوتها ، وملخصها أن أحد البخلاء اراد أن يمتحن أهل بيته ، كان يريد أن يعرف مكانته عندهم ، خاصة وانه تعود أن يعطيهم الأكل بمقدار معلوم ويقتر فى المصروف ولكنه كان يدهش أن يرى الطعام وفيرا بعد طبخه

حتى شك فى الأمر ، ولم يعرف أن زوجته وجاريته قد اصطنعتا مفتاحا رائعا . وكانتا تنتهزان فرصة غيابه وتنتهبان الخير من مخزنه ، ولما طال شكه ، حدث أحد مقربيه فى الأمر ، فنصحه هذا الاخير بالتماوت حتى يرى بنفسه كيف ستجرى الأمور عند أهل بيته بعد اعلان وفاته .

ولما جاء المساء ، أخبر زوجته بأنه مريض ، وانه يشعر بأن الموت قريب منه ، ثم سقطت رأسه على صدره ،ولم تمض دقائق حتى عم الفرح ارجاء المنزل ، وفى فجر اليوم الثانى صحا جميع من بالمنزل وكانوا فى حالة سرور ، وقامت زوجته وذبحت الذبائح ، وأمرت الجارية بصنع الفطائر ، وعمدت الى حظيرة الدجاج ، واطلقت سراحها فخرجت الطيور فرحة تمرح فى أرجاء المنزل فى حرية ، ثم طلبت ربة الدار من جاريتها الصغيرة أن تبقى الى جانب زوجها المسجى ، وأعطتها عصا صغيرة لتبعد بها الدجاج عنه .

وكظمت الجارية الصغيرة غيظها لان‌الجميع يأكلون ويلبسون ، أما هى فمحرومة من كل شىء ، جالسة تحرس جثة سيدها ، فما كان منها الا أن وجهت الشتائم الى الميت وتذكره بأيام حرمانها وهو على قيد الحياة ، وبحرمانها أيضا فى يوم وفاته ، ووجهت اليه الشتائم فقالت :

حرمتينى وانت طيبة من الثياب الجديدة
حرمتينى وانت ميتة من أكل العصيدة
لولا خوفى من الله لحرقت عينك بالجريدة !

وكادت تقرب العصا من عينيه ، فقام الميت فزعا وهو يخشى انتقام الجارية .

***

وكما رأينا فان آداب الأم لاتخلو من تلك القصص ، وقد سجلتها ، لان بهـــا مواقف درامية رائعة ، ولانها تصور ضعف الانســان أمام المال ، وتصور أيضا الدور المأسوى الذى يلعبه الجشع فى حياتهم .

فهذه أوجينى جرانديه فتاة بائسة ، وبلوتها الكبرى أن أباها غنى وجشع ، جمع ثروة تقدر بسبعة عشر مليون فرنك ، ولكنها تعيسة لانها لم تتزوج ابن عمهـــا الفقير الذى تحبه . .تلك المأساة التى صورها بلزاك ، لاتقل روعة عن قصة «شيلوك» فى جشعه ورغبته فى الانتقام ، وتكشف لنا عن دخيلة البخيل ، ونعرف من حوادثها أن نفسيته تعقدت بسبب الحرمان ، وسواء أكان هذا الحرمان عاطفيا أم ماديا .. فهو يجد ملاذه ، بل وقوته ايضا ، فى‌المال ، وهذا مصداق ما قلناه آنفا من أن البخل هو الابن العاق للحرمان .

استغفر الله العظيم

مونولوج

بقلم : سعيد صبحي الصفاني

لماذا لا يفهمني الناس ، ويتغابون ، ويتجاهلون الحقيقة ؟ لماذا ؟ .

الحكاية ياخلق الله أن ابنى تخرج من كلية الهندسة فى العام الماضى ، ويريد أن يتزوج فى هذا العام ومصمم على ذلك . وأنا لا أعارض فى زواجه . بل أنا أول الفرحين به . وكل أملى أن أحمل أطفاله وأداعبهم .

والتى يريد أن يتزوجها زميلة له تخرجت معه فى نفس العام . ويحبها من مدة . أنا أعرف هذا . فالولد لا يخفى عنى شيئا . وأنا والله لا أعارض الحب ولا أحاربه . بل أنا أشجعه وأرعاه عندما أعلم انه ينتهى الى خير .

لكن .. الظروف ، لعنة الله على الظروف . انه الولد الوحيد فوق ثلاث بنات . كبراهن تزوجت وارتاحت واثنتان مازالتا فى عمر الورد تنتظران أولاد الحلال .

وأنا موظف بالمعاش . أتقاضى مبلغا ضئيلا أول كل شهر . لا يغنى ولا يسمن . ولولا فضل الله . وما يدفعه ابنى من مرتبه لهلكنا . ومع ذلك فهو يريد أن يتزوج ويتركنا لمصيرنا الأسود .

لماذا ربيتـه اذن ؟ ولماذا انتزعت اللقمة من فمى أنا والأولاد لنشترى له كتبه ؟ .. لماذا تحملنا شظف العيش وقسوة الحياة من أجله ؟ .

كنا نعلق عليه آمالنا جميعا . كان الجسر الذى سينقلنا من حياة الفقر والبؤس الى حياة أكثر اشراقا . كنت أعتبره رأسمالى المدخر للأيام السود . ولقد جاءت تلك الأيام بعد أن أحلت الى المعاش . ونفع الولد . واستطاع أن يساعدنا على اجتيازها بشيء من الأمن والراحة .

لكن هذا كله مهدد بالضياع . اللقمة المضمونة ، والحياة الآمنة . أنا أتقاضى ثمانية جنيهات فقط . ماذا أفعل بها طول ثلاثين يوما ؟! ايجار الشقة ستة. والكهرباء والميـاه تستهلك جنيها .. وهل يكفى الجنيه الباقى طعاما وكسوة. طوال ثلاثين يوما ؟! .

نحسبها .. الجنيه مائة قرش . ونحن أربعة أشخاص . أى ان كل منا يجب ان يأكل ويشرب ويأتى المعجزات

بخمسة وعشرين قرشا ·· فى الشهر !

غير معقول · وغير منطقى · ومع ذلك · فان الناس تريد منى أن أقبل هذا الهراء · كيف ؟ لا أحد يفكر ·
قال لى خاله منذ اسبوع :

– فليتزوج · انه شاب وهذا حقه ·

حقه ؟! ·· وحقوقى أنا ؟ ماذا عنها ؟ أنا الذى صنعته وادخرته للزمن والايام السود · كيف يتزوج ؟ ·· ويتركنا ؟ وماذا يهم خاله ان تزوج ابنى أم لا ؟ هل يطمع فى أن يزوجه لابنته البلهاء ؟ ابنى أنصح من أن « يندب » فيها ·· فزميلته أجمل منها بكثير ·· وأخلاقها عالية ومؤدبة ·

الصراحة ·· البنت تعجبنى ·· وقد اعجبت بها يوم دبر لى مقابلة معها ·· ولكن ·· لعنة الله على الفقر والدنيا القذرة ·

لا ·· لن أسمح له بالزواج · يجب أن يزوج شقيقتيه أولا · والا ·· فماذا تفعلان بدونه ؟ ·

أنا معاشى ثمانية جنيهات · وهو يتقاضى مرتبا معقولا من الشركة التى يعمل بها · وفى امكانه أن يعوضنا جميعا عن سنين الحرمان الطويلة التى عشناها ·

الولد طيب ·· لكنه يريد أن يتزوج ·· لماذا ؟ يحب زميلته ·

وما ذنبنا نحن·· ماذا جنينا لتخطف اللقمة من أفواهنا ونحن لم نبدأ بقضمها بعد · لقد أحسسنا بطعمها فى فمنا · ولكننا لم نقضمها · ويبدو أننا سنغلق أفواهنا على الهواء · هذه قسوة · قسوة لا نرضاها ·

لست قاسيا · ولا أنانيا · وأحب ابنى · والله العظيم أقول الصدق ،فهو فلذة كبدى · والولد لم يلحق بى أذى ولم يخرج عن طاعتى · ولو تخلى عن فكرة الزواج الآن · لذقنا على يديه أياما حلوة تعوض ولو جزءا بسيطا مما قاسيناه . هذا حقنا ويجب أن نتمسك به ·· وليقل الناس ما يحلو لهم ·

أنا أحب ابنى · وأحب البنت زميلته وكلاهما يناسب الآخر ·· لكن ·· آخ لو كانت الظروف أحسن من ذلك · لو كان معاشى أكبر قليلا مما هو عليه·· لو كانت حالتنا أكثر يسرا · لكنت أول المرحبين بزواجه ·· لكن ·· سحقا لـ ·· سحقا لكل شىء · للدنيا ·· للناس ·· للفقر ·· للظروف السيئة التى تجبر الانسان على اتخاذ قرارات لا يريدها ·

لقد سمعتها باذنى وثقب الكلام طبلتها ·

– يريد أن يستغل الولد ·

أنا لا أريد أن أستغله كما يقولون أنا استوفيه دينا فى عنقه · وأطالبه بحق من حقوقى · نريد أن نعيش أن نذوق الحياة ·· الحياة الحقيقية – ولو



مرة واحدة ـ بكل لذاتها المتواضعة التى تناسب أسرة فى مثل حالنا .

لقد اشترى لنا راديو فى العام الماضى بعد أن استلم عمله مباشرة . اشتراه بالتقسيط طبعا . وكان يدفع الاقساط أول كل شهر ويدفع لنا ايجار البيت. وفرحت أمه بالراديو تجلس بجـانبه وقت اذاعـة القرآن . تهز رأسـها وتمصمص بشفتيها فى فرح طفـولى . وتنظر اليه باعتزاز وفخر . أما شقيقتاه فقد قفزتا فرحا وهو داخل به عليهما يحمله فى صندوقه . وتسابقت الايدى اليه .. كل يريد أن يلمسه ويتمسح به .. وكأنه ولى من أولياء الله .

ورن صـوت الراديو فى البيت . الجميع يلتفون حوله وعيونهم ترمقه فى انبهار .وصرخت أنا عندما زاد استهلاك الكهرباء . ولكن نظرات البنـات .. ووجه الام . جعلنى أخجل من نفسى..

كن جميعا فى غاية السعادة · وكنت أنا كذلك · ولم يكن تذمرى الا خوفا عليه ·· على ابنى · فلم نكن نريد أن نرهقه حتى لا يشعر بأننا نستغله ، أو نلقى عليه حملا أكثر مما يطيقه ·

واشترى لنا أشياء كثيرة · لى ولامه ولشقيقاته الثلاثة ·· انه ولد بار ·· ليس عاقا ولا طائشا ·· ولكنه يريد أن يتزوج · وفى هذه الايام بالذات ·

رجوته أن يؤجل فكرة زواجه هذه·· لكنه لا يستطيع ·· البنت تطير من يده هكذا قال لى ·· وهو يحبها حبا جنونيا طبعا ·· يحبهـــا بجنون ·· لدرجة أنسته كل شىء ·· حتى عائلته الصغيرة الضعيفة ·

سحقا للحب ·· لا · بل اللعنة على الظروف المعاكسة التى تعقد كل شىء ·

يا ابنى أنا تعبت ·· امتص العمل قوتى · عصرت حياتى لأجعل منك ما أنت عليه الآن · فلماذا لا تعوضنى عن سنى الشقاء ؟

أنا أبوك ·· أى والله أبوك ·· ألا يعنى هذا شيئا لديك ·· لا سمح الله يا بنى ·· اننى لا أطعن فى ولائك لى·· ولكن ·· الأمر كما ترى ·· مســـألة حياة أو موت ·

تتزوج وتستمر فى مساعدتنا ؟! · هراء ·· فمرتبك كبير بالنسبة لنا · ولكنه ضئيل أمام رغبات فتاتك · حتى مرتبها لن يخفف من الامر · البنت تريد تلفزيونا وغسالة وثلاجة وشقة فخمة تقضى فيها لحظات سعيدة مع من تحب ·· وأنت لك نفس أحلامها ·· تريد أن تتحـــرر من الذل والفقر ·· وتحقق أحلامك ·

ونحن ؟! أليس لنا حق فى أن نحلم مثلكما وأن يتحقق هذا الحلم ؟! لانريد غسالة ·· ولا ثلاجة · نريد فقط لحظات سعيدة متواضعة · تكون عزاء لنا عـلى ما بذلناه من تضحيات غالية من أجـل رفاهيتك واسعادك ·

أمك المسكينة لا تصدق انك تريد أن تتزوج · فهى لم تكد تسترح بعد من معاناة الشقاء · واذا بك تهددها بالعودة اليه ·· لا يا ابنى ·· لا تكن بهـــذه القسوة ·· لا لا·· حاشا لله ·· لم تكن قاسيا معنا فى يوم من الايام ·· لكن الذى تريد أن تفعله الآن هو القســوة بعينها ·· قسوة بغير قصد طبعا ·· ولكنها قسوة على أى حال ·

هل سمعت ما قالتــــه شـــقيقتك الصغرى ·

ـ فليتزوج ·· ولن ينسانا الله ·

كم هى طيبـــة هذه البنت · لقـد كانت ترعاك على صغر ســـنها كالأم الرؤوم · وفى ليالى الامتحـــان كانت تسهر معك · تعد لك الشاى والقهوة وتدهن حذاءك وتكوى قمصـــانك · وتقوم على خدمتك فى صمت ·

لقد منعناها من مواصلة دراســـتها توفيرا لميزانية الاسرة · وركزنا عليك كل آمالنا ·· هكذا شاءت الظروف · يجب أن ينجو واحد منا لينقذ الباقين · واخترناك أنت ·· وضحينا من أجلك بالكثير حتى أوصلناك الى بر الامان ·

ولم تتذمر أختك أو ترفع صوتهـــا باحتجاج · بل تقبلت الامر فى سعادة ·· وهى تحلم بأخيها المهندس الكبير الذى سيحمل الينا الخير الكثير بعد أن يتخرج ·

أرأيت يا بنى ·· بالله عليك ·· لا تهدم آمالنا ·· لا تفجعنا فى أمامنينا ·· لا تصدمنا فى أحلامنا ·· لا تشقينا فقد شبعنا شقاء ·· شبعنا وفاض بنا ·· ولم نعد فى حاجة لمزيد ·· لم نعد فى حاجة الا للحظة هناء ·· للراحة·· من المشوار الطويل ·· لا تجبرنا على السير أكثر من هذا ·· فقد تقطعت أنفاسنا ·

الحزن يعم البيت ·· غير معقول طبعا أن تحزن أسرة بهذا الشكل لمجرد أن أحد أبنائها سيتزوج · ولكن ·· هذا هو الواقع المر بكل تناقضاته وقسوته·

مالى أردد كلمة القسوة كثيرا · هل التصقت بنا هذه الكلمة من طول ماعانيناه منها · ربما ·· فالحياة لم تترفق بنا يوما ·· ولم تكف مطارقها عن دق رؤوسنا لحظة واحدة · ونحن صامدين ·· تصور ! ·· من أجلك وأجلنا ·· وأنت الآن تساعدها علينا تعطيها المطرقة بيدك ·· مطرقة أثقل هذه المرة · عبد المنعم أفندى زوج ابنه فى الاسبوع الماضى · وكان الرجل فى غاية السعادة · فهو ابنه الوحيد ويريد أن يفرح به قبل أن يموت · ولا يحتاج اليه ماديا وهو الرجل المقتدر · فعنده بيت قديم ورثه عن أمه يدر عليه دخلا معقولا يكفيه هو وزوجته · وهو يؤيد ابنى فى طلبه للزواج ·

ـ الزواج عصمة للشباب ياعبد الموجود ·· يقيهم شرور الدنيا ··ونحن يا عبد المنعم ·· من يقينا شرورها ؟ ومن يدفع عنا غوائلها ؟ اليد التى فى النار ليست كاليد التى فى الماء · وأنا يدى فى النار · أنا الذى أحس لسعتها وأكتوى بها لان أمى لم تترك لى بيتا أرثه · لم تترك لى سوى الذل والفقر · الذى يبدو أننى سأعيش وانغرس فيه أبد الآبدين ·

ياناس ·· لقد تعبت ·· ضاقت روحى · لم أعد أحتمل · أن أصارع اللقمة ·· أخاف أن تفلت من فمى ·· أخاف ·· أخاف ·· كانت حياتى كلها تراكيب مختلفة من الخوف والذعر ·· لم يكن ينقذنى من الهلاك الا الامل فى الخلاص على يد ابنى ··وها هو يريدأن يتخلى عنى ·· يتركنى ·· للحيرة ·· للجوع ·· للضياع فى متاهات الشقاء وأنا فى سن لا تحتمل ·· لا تحتمل مطلقا ·· ماذا أفعل ؟ كيف أتصرف ؟ أوشك أن أجن ·· بل بدأت أخرف فعلا ·· أنا أمشى فى الطريق أكلم نفسى·· وبدأ الناس يتهامسون على ·

ـ الرجل سيجن لان ابنه سيتزوج!

مالكم ومالى يا غجر ·· اتركونى فى حالى · اتركونى فى يأسى وذلى · لا تزيدوا عذابى بكلامكم الفارغ · أنا رجل مهدد · خائف ·· خائف من المستقبل الذى انطفأت أنواره فجأة · وأصبح بقعة سوداء لا شكل لها ·· شىء مجهول ·· غامض ·· رهيب ·· يبعث الرجفة فى أوصالى ·· يارب ·· لم كل هذا العذاب ؟ ·· أنا من عبادك المخلصين ·· لقد تعبت ·· تعبت ياالله ولم يعد لى أمل الا رحمتك وغفرانك وأنت أرحم الراحمين ·· فلتفتح لى طريقا للأمل · بقعة من نور وسط الظلام الحالك ·· ثقب فى حائط اليأس ·· والا ·· والا ·· استغفر الله العظيم ·

العاجز

بقلم : آنياس ستيوارت

ترجمة : زهير البيومي

انياس ستيوارت من شبيبة الأدباء الانجليز وقد ولد عام ١٩٣٦ فى أوليد فى شمال استراليا لأب فنان أسهم فى خدمة فن القصة ، فهو الكاتب الروائى ج ٠ ١ ٠ ستيوارت ٠ وفى استراليا أمضى آنياس سيتوارت الثمانى سنوات الأولى من حياته ثم سافر الى انجلترا ليتلقى العلم فى جامعة بلفاست ، ولم يمض على وجوده هناك سنتان حتى لحقت به عائلته عائدة من المهجر الى الوطن الأم انجلترا ٠ ولم يكد آيناس ستيوارت يجاوز الثانية عشرة حتى أخذ يتدرج فى مراحل التعليم المختلفة ، فتنقل بين سبع مدارس ، هجر التعليم بعدها ، وعشق التنقل والترحال على النطاق المحلى ، اولا من بريانستون الى تاتورز ثم كريستشرتشن ثم اكسفورد فى انجلترا ، وراح بعدها يتنقل بين ربوع أوروبا ثم الولايات المتحدة والمكسيك وبلاد البحر الكاريبى ومر فى طريق عودته ببلاد شمال افريقية عن طريق الصحراء ٠ ولما عاد الى انجلترا كان نجمه قد بدأ يظهر بين كتاب القصة اذا لم يلبث أن حصل على جائزة ريتشارد هيلارى لعام ١٩٦٣ فى القصة القصيرة ٠ (المترجم)

***

كان يستطيع أن يقسم عينه نصفين دون أن يشعر بالألم اذا ما أمال المرآة المشطوفة الحافة فى حرص ، ٠٠٠ ها هو ذا الآن له ثلاث عيون وشفة شرماء ، ويأتى بحركة عصبية من فمه ثم يضع يده عند أسفل جذعه ليرى ما اذا كان له شعر أكثر من « فالكرك » ٠ وفجأة لاحظ أن بقعا من قشور رأسه كانت لا تازل عالقة بالمرآة سقطت عليها عفوا عندما كان يصفف شعره ، فبدأ يشعر بالقلق ازاء ذلك ٠

لا شك أن الانتظار صعب ، ولكنه كان يعرف أن لا مناص منه، وأن المخدع جزيرة آمنة حصينة تجنبه الشعور بالملل بمرور الوقت ٠ ولعل هذا هو السبب فى تعوده الاسترخاء على فراشه ساعة كاملة قبل الذهاب الى المدرسة أو حفلات الرقص كما هى الحال الآن ، كان يجد فى اللجوء الى الفراش وسيلة معقولة للقضاء على الخوف ؛ فاذا ماداهمه هذا الشعور ، وكثيرا ما كان ذلك يستمر لأكثر من أسبوع كما هى الحال الآن ، قال لنفسه : « لا زال هناك متسع من الوقت ٠٠ لا داعى للخوف

ما دام الوقت لم يحن بعد ، ... ولم يكن ليخدع نفسه ، وانما كان يقويها لأن الوقت قد حان للتفكير فى هذا الأمر .

ها هو ذا الآن يشعر بحماقته حين استلقى على الفراش بحلته وحذائه ذى الأبزيم الفضى ، ويرهف السمع الى صوت أمه وهى تخرج العربة من «الجراج» بينما كانت أنفاسه تتلاحق سراعا طوال هذا الوقت .

وعاد الخاطر الآخر مرة ثانية فعض على شفتيه وقطع عينه فى المرآة للمرة الثانية ، وتمنى لو تختفى شفته السفلى الى الأبد ... كانت حاله فى الفصل الدراسى الماضى سيئة للغاية وكان صوت زملائه لا يزال يتردد فى سمعه كصوت جماعة من النحل وقعت فى الشرك : « مورتون يمتلك غابة بها شلال ، مورتون !! مورتون !! مورتون ... أنظر الى الحلوى ! » .

« انني فى غاية الحذر ، » قالها بيتر فى حرص وبصوت عال تجاه السقف ثم استدار بعيدا وقد أعيته أصواتهم؛ كان يفكر وهو فى شبه غيبوبة فيما اذا كان زملاؤه فى الفصل الدراسى التالى ستصيبهم حمى الدنج ، ثم يعود فيقول لنفسه ان هذا لا يهم كثيرا .

ماذا لو سقطت عنه سراويله وهو يرقص الليلة ... لا بد أن الفتيات سيعلو صياحهن ، وعكس المرآة مسرعا وزيادة فى الاحتياط أغلق عينيه حتى لا يرى نفسه ، ولكن التظاهر لم يكن أمرا هينا فعاد الى ما كان عليه مرة أخرى دون أن يدرى .

ماذا عن الطبيب الذى جاء لاجراء الفحص الطبى فى الفصل الدراسى الماضى ؟ » كان بيتر لا يزال يفكر فى ذلك ... أمره الطبيب بمزيد من الاعتدال فى وقفته وبدأ بطرقات خفيفة فوق أسنانه بالترمومتر الطبى الذى كان فى يده ، والتفت بيتر اليه قائلا : « سيدى » هكذا كانوا ينادونه ، وفقا لما يتطلب أدب الحديث .

ورغم أن الطبيب كان شارد الذهن ينظف أسنانه بالترمومتر الطبى ثم يتحول عن ذلك الى تأمل أظافره فقد راح يسأل بيتر : « ألا تمارس أداء التمرينات الرياضية ؟! » ويجيب بيتر قائلا : « ألعب كرة القدم ، وكثيرا ما أشترك فى المعسكرات الكشفية وترك بيتر الغرفة ليدخلها زميل آخر بينما راح هو يتعجب لماذا اختفت الراهبة التى اعتادت أن تساعد الطبيب فى كل مرة . وكان الرعب قد استولى عليه وهم يعدون العربة فى الخارج فنهض من الفراش مسرعا وراح يفتش فى الأدراج ، لابد أن يأخذ شيئا فى جيبه ليريه الناس ... ليتحدث عنه ، فأمسك بطلق نارى ، ورأى فرشاة الشعر فتذكر أن طلبة المدرسة كانوا يحكون صدورهم بها فيبدون كالمصابين بالحصبة ، فامتدت يده لتمسك بالفرشاة ، وخطر له أن أباه قد يفطن لذلك فيبتدره بأحد تلك الأحاديث عن مشاعر الخجل التى كانت تنتابه فى صباه ، وقد تحدثه أمه فى تلك الاثناء فتقول له : « بيتر ياحبيبى انك فتى لطيف ، ولذا يحبك الناس فكن شجاعا يا بنى » .

وشعر بالضعف أكثر من أى مرة سبقت فاستولت عليه الرعشة وكشر فلوى وجهه فى المرآة ، ورسم حدوده فى حرص ، وصمم على البقاء هكذا طول الليل ، لا ... انه لا يستطيع ذلك لأنه يحب روز مارى . وفجأة اكتشف أنه يفكر فى « حمى الدنج » والمواد الدهنية التى فى فروة رأسه هربا من التفكير فيها ، ستخذله قدماه لو فكر فيها الآن ، ولم يتمكن من الذهاب

الى الحفل الراقص ، لا بل سيذهب حتى لو اضطر الى السير على أصابع يديه كذلك الفنان الذى يجلس على الرصيف بجوار المتحف القومى . وفكر فى روز مارى ... لكن صورتها لا تريد أن تقفز الى ذهنه مطلقا ، وجعل يتأمل ساقيه فى سراويله الضيقة تهتزان كجناحى فراشة فى مهب الرياح ، وجلس فى العربة صامتا يستمع الى نصح أمه التى اعتادت أن تقدمه اليه كلما اصطحبته معها الى احدى حفلات الزواج كما هى الحال فى هذه المرة ، بينما راحت تدخن سيجارة فقد اعتادت أن تدخن فى مثل هذه المناسبات فقط

وكان عليه أن يترك الأمور تسير كيفما اتفق رغم أنه قد بدأ يشعر بالضجر من الحفل الراقص ... ماذا لو علمت والدته شيئا من أمره مع روز مارى ؟! لا بد أنه فى هذه الحالة سيضطر الى وضع خمار على وجهه طيلة حياته الباقية ، هذا اذا لم يسقط من العربة تحت عجلاتها فتتحطم عظامه .

أخذ بيتر يفكر فى هذا النوع من الموت دقيقة أو دقيقتين ، بينما كانت اصابعه تتحرك من جيب الى آخر باحثة عن الرصاصة حتى وجدها فى أحدها ... ربما لو وضعها أمام رأسه وراح يدعو الله ... أو راح يزيل الغشاء الرقيق عنهاباظافره ... ربما انطلقت وستصرخ أمه « مات بيتر » وخطر له أنه اذا تبقى من جسده شىء كاحشائه مثلا فستطلبها روز مارى لتتناولها مع طعام الغذاء غدا حتى ولو كانت باردة .

وراح يفكر فى منزل روز مارى وخيل اليه أن ليس هناك وجود حقيقى لمثل هذا المنزل ، مثل وجود هذه « الفانلة» فى الحمام ، أو كوجود دراجته فى الظل ، وفكر كيف يتأتى لأمه أن تعرف قصته مع روز مارى ، على أيةحال يبدو أنها لن تستطيع أن تترك العربة تسير فى طريق مستقيم وقتا طويلا كبعض العربات التى كانت ترغم على ذلك ، واندفع بيتر تجاه الباب ولكن الرصاصة لم تنطلق ، ونادت أمه فى سعادة غامرة على سيارة أجرة تترنح فى الطريق ، واندفع هو الى داخل العربة من الباب الأمامى ولو لم يساعده الناس فى الدخول الى العربة لسقط فى أرضها كدمية من القماش ، فى الوقت الذى يستطيع أى واحد غيره أن يفعل ذلك دون شعور بالتعب ، بدأ بيتر يشعر برغبة فى الاسترخاء والراحة اثر شعور طارىء بالتعب ، فراح يستسلم لطرقات الستار الخفيف على راسهواصطدام مسند المقعد الذىيجلس عليه بعنقه المجدوع ، فكان كملاكم يترنح من كثرة الضربات ، أو يسوعى ألقى لأحد الأسود .

حاول أن يتخيل نفسه يرقص مع روز مارى ، أو أن يشعر بنفسه وهو يتعثر خلفها بطريقة خرقاء وهى تجذبه نحوها بحركاتها الخفيفة الملائكية ، ولكن اندفاع العربة بسرعة أدار رأسه بهذه الخواطر ... ماذا لو رقص معها هذا العام ... ربما ساعده ذلك على أن يستمتع بالشعور الذى عاشه فى تلك المرة التى وقع فيها فى شباك الصياد الرقيق ، ولم يشأ بأى حال من الأحوال أن ينهض من مكانه أو أن يخلص نفسه منها رغم أن الوقت كان قد حان . وارتمى بيتر بغتة الى الامام مع اندفاع العربة ؛ كانت درجة حرارته مرتفعة ويداه ترتعشان . ويلغ من هول

الفكرة أن جعلته يشرق شرقة أغلقت حلقه بشيء أشبه بربوة صغيرة هوت فجأة فى لحظة من اللحظات .

أحس بيتر فى هذه الاثناء أيضا أن هناك كائنا حيا يتحرك نحوه .كان ذلك هو حبه لروز ماري ؛ وخطر له أن من القذارة أن يفكر فى احتضانها أثناء استغراقهما فى قبلة ، وفكر فى الذهاب الى المرحاض فاتكأ بيده على ساعد أمه التى كانت تصارع عجلة القيادة كطرزان حينما كان يصارع الفتاة الذئبة ، ولم تكن أمه لتدرى بشيء مما يدور بخلده اما هو فكان قد نسى كل شيء عن المرحاض ، وبدلا من ذلك قرر أنه اذا كانت هناك فرصة واحدة فى حياته تمكنه من أن يبذل محاولة وهو على بعد خمسة وعشرين ياردة فان هذه الفرصة قد حانت فى تلك اللحظة ذاتها ، وهى بالطبع محاولة صبيانية لا تليق بالكبار .

كانت افتتاحية موسيقى « البلول جونز » قد بدأت تدور برأسه ، وكان يعرف سلفا أنها لا بد ستسلمه الى لقاء مع روز مارى ، وجها لوجه ، ولكنه سينتقى فتاة من بين الأربعين فتاة الضخام الجثة واللاتى وقفن من حولها ، وربما كان عليه أن يبدو معتدل المزاج وسط الحفل الراقص ، ... وربما كان عليه أيضا أن يتظاهر بأنه مستغرق فى تأمل ديكور المنزل باهتمام ... وربما ظنوا أنه فنان ... وقد يتحمل هو أى شيء الا أن يرى أمها جالسة أمامه على الأريكة ترقبه طوال الوقت كملاك فضى الشعر ، وربما كان والدها مثل والده فيسأله أسئلة من نفس النوع ... « هل أفدت من التمرينات الرياضية فى الفصل الدراسى الماضى ؟؟ ... ألم تتأكد بعد يا بنى ؟! ... هيا الآن اجمع أطراف شجاعتك وارقص مع الفتيات ... هيا !! ... تعال ... أظن أنك فى حاجة الى كأس من الوسكى ... أليس كذلك ؟؟ هو .. !! هو !! هو .. !! ووجد بيتر نفسه خارج العربة وتحت قدميه حصى من نوع غير مألوف ، ولم تكن أمه تقبله ، وكان هناك ضوء منبعث من بيت زجاجى كبير شف عن خيالات تتحرك وسط الموسيقى والضحك ، ومن خلال الضوضاء والصخب لاح الآن مستطيل متوهج بالضوء الخلاب ، بينما راح هو يتعثر فى طريقه الى الباب المفتوح ،ومدت أم روز مارى يدها الطويلة كغصن شجرة صفصاف على شاطىء نهر ، ولم يكن لشعرها فى الحقيقة زرقة السماء ، وأمسك بيتر باليد الرقيقة التى امتدت له ، وراح يتأملها فى وقار ليرى ما اذا كانت مطابقة لصورتها التى كانت تبدو له فى الحلم ، وسمعها تتمتم بشيء ثم قادته بطريقة ما الى صالة الرقص .

كان الجو من حوله يضج بالموسيقى والحركة تحدهما الجدران من كل جانب، وقبل أن يتحقق من أن كل الذين فى الحفل يرتدون ملابس الغداء ، وجد نفسه وقد دفع وسط حلقة من الفتيان الذين يرقصون .

وتوقفت الموسيقى بينما كانت روز مارى تقف فى مواجهته تماما وسط حلقة من الفتيات اللاتى يرقصن ... ابتسمت له فبادلها الابتسامة ثم غير من وضع قدميه ونظر الى الأرض ... ها هو ذا الآن يفعل ما فعله فى الحلم فيأخذ فتاة من الفتيات السمينات القبيحات المنظر واللاتى وقفن الى يسارها ليراقصها بينما تشيع روز مارى

بوجهها عنه وترفع ذقنها فى امتعاض بطريقة تدعو للسخرية كأنما كانت تقصد المزاح فقط ، فى الوقت الذى كان هو فيه متأكدا من أنها لا بد ستعجب بأحد الفتيان الذين يقفون من حوله ، وانه لن يستطيع أن ينالها بمثل هذه السهولة فى هذه الاثناء سألته الفتاة :

ـ « كم عمرك يا بيتر ؟! » ٠٠٠ بيتر قائلا :

ـ ثلاثة عشر عاما ٠

وراحت الفتاة السمينة تسأله مرة أخرى وهى تتأمل حلته :

ـ أعتقد أنك من أصدقاء روز مارى ولست من أصدقاء جين ٠٠٠ أليس كذلك ؟!

ولما لم تتلق منه جوابا أردفت تقول فى غير اكتراث :

ـ ان لى أختا صغيرة تبحث عن صديق فى مثل سنها ولهذا تقتحم حفلاتى ـ دائما ـ فتفسدها على

فسألها بيتر فى جفاء :

ـ كم عمرك ؟!

وحملقت الفتاة السمينة فيه مذهولة وجذبته نحوها ثم طرحته أرضا كما لو كان زكيبة مليئة ثم قالت :

ـ لا يصح أن تسأل فتاة مثل هذه الأسئلة ٠

فسأل بيتر فى ضيق :

ـ اذن كيف نعرف أعمارهن ؟!

فقالت الفتاة فى حذر :

ـ عدنا لنفس السؤال ٠٠٠ المفروض ألا نطلع الذكور على مثل هذه الأسرار ٠

قالت هذا ثم أسرعت تاركه اياه رغم أن الموسيقى لم تكن قد توقفت بعد ٠

وعادت الموسيقى مرة أخرى ، واحتوته حلقة الراقصين من الفتيان ، والتى كانت تدور فى وسطها حلقة الفتيات اللاتى كن يرقصن قبالتهم ٠

فى هذه المرة لم تكن روز مارى موجودة فى أى مكان اذ أنه لم يرها ، وحينئذ أطبقت عليه فتاة نحيفة قبيحة المنظر بحركة انقضاضية يعوزها التهذيب ، وقرر بيتر أن يكون هو البادىء فى هذه المرة فسألها فى اعتداد وبنبرة تضفى على الكلام اهتماما خاصا نفس الشىء الذى كانت أمه تنصح به فى مثل هذه المناسبات :

ـ الى أى مدرسة تذهبين ؟!

فأجابته الفتاة النحيفة الدميمة على سؤاله ثم أخبرته لماذا تسمى مدرستها « كلية البنات » ، وعاد هو يسألها مرة أخرى فوضع نفسه فى مأزق :

ـ هل أنت شديدة الـ ٠٠٠ أقصد هل أنت بالغة ؟! ٠٠٠ اقصد ناضجة ؟! ٠٠٠ أ ٠٠ أ ٠٠ التحقت بجامعة شتلهام مثلا ؟!

وغمزت له الفتاة بعينها وضمته الى صدرها الناهد بينما أخذ بيتر يبتلع ريقه بسرعة ، وتوقفت الموسيقى مرة أخرى فبدت عليه علامات الاستياء من تعاقب العلاقات القصيرة تفرضها عليه بداية صوت موسيقى ينبعث من « الجرامفون » وتنتهى بانتهاء هذه الموسيقى ، ولمح روز مارى فجأة فراح فى شبه غيبوبة ٠٠٠ خطر له أن قد رآها وأن صورتها ربما تبقى عالقة بذهنه الى ما بعد ذلك بعام ٠٠٠ ، وأن ليس ثمة داع للبقاء حتى نهاية الحفل ما دام الامر كذلك ، وتحقق من أن سعادته برؤياها فى الحلم تفوق سعادته برؤيتها على الطبيعة تماما كالحال عندما دخل « سرك كاتى » فى مدينة « جرينتش » ثم خرج ليقضى وقتا

أطول من الذى قضاه هناك فى تأمل الطابع التذكارى الذى اشتراه من على ظهر سفينة ، رسمت عليه بعض مناظر رآها فى السرك .

وبعد أن ينجز مهمته فى المباراة يستلقى على بطنه وقد وضع يديه حول رقبته وتستسلم رأسه للخواطر التى تتنازعها وقد أيقن أن الفتيان يقاومون الصياد ليسترجعوا ذلك الشعور مرة أخرى ، وكذلك أيقن أن عليهأن يفعل نفس الشىء .

كان مستلقيا على فراشه فى المدرسة فى ثبات وقد أغلق عينيه فى الوقت الذى كان كل جزء من جسده فى حاجة ماسة الى الحركة ، ولكنه ييأس ويمل التفكير فى هذا الأمر كلما تذكر ألا سبيل الى ذلك فيلقى بنفسه بين المأكولات ، يأكل صندوقا بأكمله من الزبيب بشتى أنواعه ثم يعود ليفكر فى « ببلو باجنز » رغم أنه كان يكف عن ذلك أحيانا ليستريح من اللعنات التى كان « هوبت » يصبها عليه من حين الى آخر فى استخفاف لأن له شعرا فى قدميه .

صعق بيتر ووجد نفسه يصفق بكلتا يديه ، وقد أشرق وجهه بابتسامة تدل على الامتنان ألقى بها ناحية الفتاة القبيحة الشكل ، وبالاضافة الى أن التصفيق كان بطريقة فنية ، فقد كان يحدث أحيانا أن يرحب بالشىء من على بعد دون أن يبدى ملاحظة تفيد توقع حدوثه الشىء الذى يدل على عدماكتراث متناه ، بينما تبدو على وجهه امارات السرور العظيم فيقرر بينه وبين نفسه الا وجود للتصفيق لأنه لم يكن هناك داع لذلك . انقطع صوت « الجرامفون » بضع لحظات ثم عاد يرسل الأنغام ، وابتسم بيتر للفتاة الدميمة بتهكم شديد يظهر فراقهما بمظهر مأساوى ثم اندمج مرة أخرى وسط الفتيان ليكتشف أن أمه لم تكن مخلصة عندما نصحته بأن يكون اجتماعيا ، فقد كانت حالته سيئة للغاية ، وكان يعلم أنه لن يتغير أبدا ، وأن الاستمرار فى الحفل حتى نهايته لن يزيده الا اكتئابا فقد كان مخدوعا .

ومع بداية الموسيقى جذب ذراعه فتى على يساره ذو ذقن خفيض الشعر غير حليق وله حزام حريرى حول وسطه ، وكأنما أراد هذا الفتى أن يزيد من سرعة الراقصين فكشر بيتر عن أنيابه ثم لعق شفتيه فى امتعاض ، وفى هذه الأثناء عادت الفتاة النحيفة الدميمة مرة أخرى وسألته فى لهجة أشبه بتلك التى نسمعها فى الاذاعة الأسبانية :

ـ أنت بيتر مورتون .. ؟

وأومأ بيتر برأسه دلالة على موافقته وكأنما أراد ألا تراه روز مارى التى كانت تراقص فتى أحمر الشعر وقد اشرأبت بعنقها وسبحت بعينيها فى الفضاء محملقة فيه كالحالمة ... لعلها تبادله نفس الأحاسيس ، وعادت الفتاة النحيفة الدميمة تسأله :

ـ هل أنت من طلبة مدرسة « فورستر » .. ؟

وأجاب بيتر على سؤالها بالنفى ولم يلبث أن عاد اليه الشعور بالأمان ، الا أن الفتاة كانت تبدو عليها الرغبة فى ضمه بشدة الى صدرها كما لو كان رضيعا فى المهد ولكنها قالت فى عجلة :

ـ انه من غير المستحسن .

أخذ بيتر يفكر فى المراد بكلمة « انه » ... لو أن شخصا ركلك ثم قال لك : « آسف » ، وأجبت عليه

قائلا : « انه على ما يرام » ، من المستحيل أن ينطق شخص بمثل هذه العبارة دون أن يفكر في المراد بكلمة « انه » ... هل المراد بهذه الكلمة هو الجزء الذى ركل ؟ ... أم أنها بعض الضمائر غير الشخصية والملازمة له فى آن واحد بقصد التأكيد ، ... هذه الكلمة على أية حال تفتقر الى الصحة .

صاح بيتر :

ـ أعتقد أن هذه خطوة سريعة .

قال ذلك فى لهجة جادة رغم أنه ليس لديه من الاستعدادات ، يمكنه من أن يفتى فى مثل هذه الأمور ، وتظاهرت الفتاة بالانصات لما يقول وذلك بالتعقيب على حديثه بهذه الكلمات :

ـ ذلك ما أعتقد ... نعم ... نعم ... هكذا .

ويومىء بيتر برأسه فى اتزان فقد كان يعرف أن هذه الخطوة لا تختلف أبدا عن خطوته العادية ، ... لحظة واحدة بعد الآن كفيلة بأن تكشف للفتاة عن الحقيقة ، ولهذا صاح بيتر فجأة وبمنتهى الثقة :

ـ كفى .. اسمعى ... أقول لك كفى ... لنتوقف عن الرقص .

كان يستطيع أن يشعر بعلامات الترقيم بين الكلمات التى ينطقها واضحة على شفتيه ، وقرر أنها غاية فى الاتقان ، فابتسم بشكل طبيعى وأخذ يحرك شفتيه حركات مختلفة ليتاكد من ان فمه على ما يرام .

وصاح بيتر مرة أخرى :

ـ أعتقد أننى رأيت مشروبات‌هناك ... ربما كان فيها كاس واحد فقط .. ليكن .

ختم بيتر عبارته برفع حاجبيه بينما راحت الفتاة النحيفة الدميمة تقول وهى تقفز على أصابع قدميها فى حركة جذابة :

ـ وهو كذلك ..

قاد بيتر فتاته الدميمة وسط الراقصين فى طريقه الى البار ، وتوقف فجاة وبطريقة مبالغ فيها ليسمح لروز مارى بالعبور بينما وقف منتصب القامة كما لو كان شرطيا نشيطا ، وكانت كلمات الفتاة الدميمة لا تزال ترن فى أذنيه معلنة عن آخر محاولة للتخلص من خجله .

وقرع كلاهما كأس الليمون الذى بيده فى كأس الآخر اذ كان قد صب عصير الليمون فى كئوس النبيذ . وبدأ بيتر يشعر بروحه المعنوية ترتفع الى أقصى حد ، فوضع يده فى جيبه وراح يحملق فى عينى الفتاة مقطبا جبينه فى حيرة من أمرها وراح يسائل نفسه لماذا كانت تحملق فيه بنظراتها فى ذهول وكأنها كلبة تنتظر من سيدها أن يطعمها ، أخذ يفتش فى جيوبه بضع لحظات أخرج بعدها الرصاصة وتعجب فى وقار :

ـ يا الهى .. ! ما هذا .. ؟!

واضطربت الفتاة النحيفة الدميمة وهى تسأل بيتر :

ـ ما هذا .. ؟!

ـ انها رصاصة ... فكما تعرفين ابى كولونيل كبير فى الجيش .

وأردفت الفتاة مشدوهة :

ـ وهل أطلقت عليه ؟

ـ يا الهى ... لا بالطبع .

هكذا أجاب بيتر وقد بدت فى صوته علامات البلوغ بشكل طبيعى ثم استمر يقول :

ـ انها لو كانت قد أطلقت عليه

لانفصلت الرصاصة عن الظرف النحاسى ·

وسألت الفتاة وهى فخورة بأنها قد عثرت على الكلمة الصحيحة :

ـ تقصد أن الطلقة لا زالت حية ؟ ·

فرد عليها بيتر قائلا :

ـ نعم ·

ثم راح يلقى بالرصاصة باحدى يديه فى شرود ليتلقفها بالأخرى وهو يسائل نفسه : « من أى معدن صنعت هذه الرصاصة ؟ ··· من الرصاص ؟» ثم صحح نفسه قائلا : « لا من السبيكة» وقرر أنه اذا ما سألته عن معنى كلمة « سبيكة » سيقول لها انها رصاصة من النوع الروسى ولذلك فانه لا يمكن اطلاقها من بندقية انجليزية وسيضيف قائلا : « ألا ترغبين فى كأس آخر · »

وأومأت الفتاة النحيفة الدميمة برأسها وهى تحملق فى الرصاصة التى أخذ بيتر يعيدها الى جيبه بمنتهى الثقة ، ثم نظر لا اراديا الى الصورة الزيتية المعلقة على الحائط والتى تمثل روزمارى واختيها الكبيرتين وأخويها الصغيرين ، وتكلم بيتر قبل أن يتحقق من أنه لم تكن لديه الثقة الكافية لتمكينه من الكلام دون أن يتلعثم ، وسألها وكان سؤاله قد جاء عفوا :

ـ أى صور أطفال آل جيننج تحبينها أكثر من غيرها ؟

كان يعلم حتى وهو يلقى سؤاله أن كلمة « أطفال » ضرورية لكى تضفى على سؤاله صبغة الموضوعية ، ولم تلبث أن أجابته الفتاة فجاءت اجابتها على سؤال موجه اليه :

ـ كلهم فى غاية اللطف ··· أليس كذلك ؟ ··· أيهم تفضل على الآخر ؟

أوشك بيتر أن يقول « روزمارى » ولكن الكلام توقف فى حلقه وكأن جبلا قد أطبق عليه ، وألهبت حرارة الحجرة أذنيه فقال :

ـ أفضل ··· روبين ·

وعلقت الكلمة بشفتيه كقنبلة لم تنفجر بعد أو ككرة الكركيت وقد أطاحت بقفازه ، وفى خلال لحظات تحقق من فشله وداهمه شعور مفاجىء بالغضب فقال وهو يزفر :

ـ يا الهى ·· الجو خانق هنا ·

قال هذه العبارة وهو ينظر شزرا الى صورة أم روزمارى ليؤكد غضبه الذى أعرب عنه فى ملحوظته ، وبدأ الخوف على فتاة كلية البنات ، الشىء الذى أدخل السرور على نفسه بينما هتفت الفتاة قائلة :

ـ فعلا الجو خانق بعض الشىء ·

وفى هذه الاثناء تقدم للفتاة فتى بشرته مبقعة اللون وجذبها وتركوا بيتر خلفهم وقد اتكأ على يديه قبالة الحائط ، وتمنى لو أنهم خطوا ذكريات جميلة على الملصقات الحائطية ولكنه تذكر رابطة الحب التى بينه وبين روز مارى فبدأ يشعر باعتدال المزاج ، وهاجت الموسيقى من حوله ، كعدو بيت النية على قتل مورتون ، الشىء الذى أعياه وأثاره ، ·· ولكن لماذا كان يخشى ذكر اسمها ؟

وخمن أن هذا الأمر له علاقة بالسحر لقد كان فى وقت من الأوقات ابان فترة دراسته يسر ، فى اعتداد ، الى أخلص أصدقائه بأنه يحب ، وذات مرة سأله « ريجلى » عن اسمها ، ولكنه لم يكن ليقوى على ذكر اسمها رغم أن المسافة بين مدرسته وبيتها كانت ثمانين ميلا ، وكذلك كان « ريجلى » الذى سأل

يسكن بعيدا عن منزل روز مارى بمسافة مائتى ميل . هاهو ذا بيتر يبدو معتدل المزاج وقد جلس لا يفعل شيئا ، ورغم ذلك كانت روز مارى تداعب خياله بالقدر الذى يسمح به الخيال ، ... كانت روز مارى تعيش فى ذهنه كانسان يعيش فى القرية ... دافئة ... ولكنها باهتة اللون كقرص معتم ، كانت صورتها ـ دائما ـ قريبة الى عقله ، تداعب تفكيره وتتراقص أمامه ، فاذا ما فكر فى الابقاء عليها أو امساكها اضحت سرابا ،كشعاع شمس عكسته مرآة ، ... وقد يلاحقه هذا الشعاع الراقص فى شبه اصرار ، فتستمر فى مداعبة خياله حتى لتكاد تشغله بجمالها عن كل ما حوله . هكذا كانت تداعب خياله فى أوقات غير منتظمة ، ... تارة وهو يصلح رباط عنقه ، بعد أن ينتهى من الصلاة فى المصلى الملحقة بالمدرسة ، وتارة أخرى وهو يلعب الكرة عالية فيراها أمامه فى السماء ويشعر بأن الرباط الذى بينهما فريد فى نوعه ، حينئذ يداخله شعور بالدفء والأمان لأنه لم يعد وحده فيرقد الى جوارها ثم يستيقظ من حلمه وهو جائع جدا .

بدأ بيتر يشعر بان أمها لا بد أن تلاحقه بنظراتها فقد راح فى شبه غيبوبة وهو ينظر الى ابزيم حذائه الفضى ... وتخيل أنها تهمس قائلة : « عزيزى جون ... اذهب وحاول أن تساعد مورتون الصغير ... لقد كانت روزمارى على حق ، اذ كان يجب الا ندعوه اطلاقا » .

عبس وجه بيتر ، واستسلمت عيناه لنظر النار وهى تأتى على حذائه وتوسل الى الله أن تحرقه النار حتى تأتى عليه .

نظر بيتر الى أعلى ، وان كان على يقين من أن أمها كانت تشير اليه وهى تجلس على الأريكة فى ركن الحجرة ، ولكن حلقة الرقص الدائرة بسرعة صدمته فوجد نفسه لصق الحائط ، وكان يبدو عليها تواضع الأم ، فى الوقت الذى كان حزنه يزداد كلما اقترب منها ، كان يرى أن أسرة روزمارى برغم غرابتها جميلة ... خاصة أمها ، ولعل ذلك بسبب موقفها منه فى الحلم ، وهكذا تبين وهو فى موجة من الحزن أنه قد أفاق من حلم الحفل الراقص بنفس الدرجة التى استيقظ بها على عالم الواقع والحقيقة .

صاح بيتر قائلا : « هالو » فقد وجد فى ابتسامة أم روزمارى ما يشجعه على ذلك ، وهدهدت السيدة « جيننج » الوسادة التى بجانبها وهى تصيح : « بيتر ... !! » قالت ذلك وكأنهما تقابلا لأول مرة فى « نورتبول » .. ، فجلس بيتر وقد تذكر أن عليه ان يربط سراويله الطويلة بشكل غير عادى ، بينما استمرت السيدة جيننج تقول :

ـ اخبرنى ، كيف حالك فى المدرسة؟! ... روزمارى مسرورة للغاية لأنك استطعت أن تحضر بنفسك .

وفكر بيتر فى الطريقة المثلى للاجابة عن سؤالها ثم قرر بينه وبين نفسه أن السؤال الحقيقى الذى يمكن أن يكون له جواب هو الجزء الأول من كلامها فقال :

ـ أحوال الدراسة معتدلة كما تعلمين ... أقصد أنها ليست سيئة للغاية ... أقصد أنها على ما يرام ... أقصد .. ! .. ؟ .

وانهار يائسا لأنه عاد الى نطقه المتعثر . أحس ذلك بوضوح فى كلامه فالقى بكل ثقله وتهوره بعبارة هى أقصى درجات الشجاعة عند من هم فى مثل سنه ، رغم ما بدا من بساطة فى القائه لها :

ـ ان روز مارى تبدو جميلة للغاية هذه الليلة .

وقالت السيدة « جيننج » :

ـ ما هذا كله يا بيتر ؟ ... هائل ... لذيذ ...

أخذت تردد هذه العبارات وهى فى غاية السرور تتسلى برؤيته كأنه ببغاء محبوس فى قفص بحديقة « ريجنت » بينما كانت لا تزال تلتفت يمنة ويسرة من فرط الغبطة ، وتداعب الوسائد على جانبيها وهى تنظر باحثة عن شخص لتعرب له عن مدى غبطتها بمنظر بيتر وهو يتحدث بهذا الكلام الذى استغربته منه .

احمر وجه بيتر خجلا ، ولم يكن انزعاجه لما رآه من تصرفات السيدة « جيننج » الا ليسلمه لمغامرة جديدة ، ولهذا خطر له أن يعيد المحاولة السابقة من مسافة تبلغ خمسين ياردة ، وانتصب واقفا على قدميه فى قوة وهو يبتسم للسيدة « جيننج » وقد فطن فى نفس الوقت الى أن الموسيقى الراقصة قد توقفت ، وأن روزمارى تقف بمفردها الى جوار المدفأة ، فعبر الحجرة بخطوات وئيدة ، فقد خطر له فى هذه الاثناء أن تسرعه قد يؤخذ على أنه تصرف يعوزه التهذيب ، واستدارت روزمارى ناحيته ... انها روزمارى حقيقة ... بالوانها الرقيقة وعينيها المشرقتين اشراقة غير عادية وغريبة فى نفس الوقت أغرب منها اثناء الحفل الراقص الذى عاشت أشباحه فى عقله بضع لحظات ، وابتسم بيتر ابتسامة عريضة ، مع بداية الموسيقى أمسك بها فى حرص كأنها من زجاج وقال وقد بدأ يتبع حركاتها :

ـ حقيقة اننى لم أتقن الرقص بعد .

وأجابت روز مارى وقد أذهلتها عبارته :

ـ انك أحسن بكثير منى يا بيتر ... اننى اذكر أنك كنت تحب موسيقى الفالس ، وها أنت ذا الآن تطلبنى للرقصة الأولى

ورد بيتر فى عجلة وقد أحس بأن الملائكة قد هبت لنجدة الفتى «مورتون» .

ـ نعم هو ما تقولين .

وتذكر بيتر موسيقى « البول جونز » وعرفها فقال بلهجة لا تدع مجالا للشك :

ان موسيقى « البول جونز » صاخبة دائما ، أليس كذلك ؟!

ولم تقل روز مارى شيئا ولكنها ابتسمت فقط موافقة على كلامه ، وعادت تحملق فى الفضاء البعيد مرة أخرى كما لو كانت تحلم . كان فى استطاعتها أن تفعل ذلك ... تتحدث قليلا ... ثم تحلم ... وتبدو سعيدة طوال الوقت ، رغم الحزن المأساوى الذى كان يغلف بيتر ، فقد كانت دائما تبدو طبيعية ... تتجاوب مع كل شىء تماما كما كانت تتجاوب مع خياله ببساطة ، وبلع بيتر ريقه ، وبدأت نوبة التلعثم تلعب دورها مرة أخرى . فقال :

ـ هل تحبين أن نكف عن الرقص؟! ... أخشى ألا أكون مجيدا للرقص .. ألا تحبين أن نشرب ؟

قال هذا ولكن بطريقة غير آمرة كتلك التى كان يتبعها فى معاملة الفتاة

النحيفة الدميمة ، ولم يعبأ بنوبة التلعثم التى أصابته فاستمر قائلا :

ـ أقصد ··· أعرف أن هذه المشروبات ملك لك ··· ولكن بما أنى معك الآن أستطيع أن أقدم لك كأسا ··· أعتقد ألا مانع لديك ··· أليس كذلك ؟!

قال هذا وهو يتلعثم فى ارتباك شديد ، ويطوح برأسه يمنة ويسرة ، ورنا بعينيه الى سقف الحجرة فى استغراب بحيث يستطيع أن يرقب الفتى « مورتون » الأحمق فى برود ، بينما راح يفكر لماذا كان يحدثها فى رقة كما لو كانت طفلة ، وتمنى لو أنه لم يفشل · كانت كل دقيقة فيه أثناء محادثته لها تنم عن الخوف الذى لم يلبث أن تحول الى رعب فصار بذلك مدعاة للتهكم الممزوج بالشفقة ، الشىء الذى يسترعى الانتباه ·

وأطل « مورتون » الآخر من السقف ليقول فى نبرة مريرة : « نعم ·· الشفقة !! ·· وفى هذه الأثناء قالت روز مارى :

ـ اننى أحب يا بيتر ·

قاد بيتر صديقته روز مارى وهو أشبه ما يكون بالثمل ، ولكنه ثمل مبعثه النشوة بالنصر ، وراح بيتر فى المرات التى كان ينادى فيها باسمه المجرد ··· أفراد أسرته كانوا لا يعبأون بذلك كثيرا ، ··· وكذلك كان ناظر المدرسة التى يتعلم فيها · كان يدعوه « مورتون بيتر » ثم ينظر اليه نظرة ملؤها الرحمة بعد أن يكون قد جاد عليه بست جلدات من مضرب «الكريكت» كان ذلك شيئا غريبا للغاية ·

راح بيتر يحملق فى روز مارى تلك الشخصية الوهمية وهى ترشف كأسها وحاول أن يستخلص منها معنى أو يفهم شيئا من أمر تلك المخلوقة الوهمية التى تشبع حاجات جسمانية ، وكذلك حول أن يثبت صورتها فى ذهنه حتى يتذكرها الى الأبد ، وفى هذه الأثناء سالته روز مارى :

ـ ألم أرك من قبل بالقرب من هذا المكان تركب دراجة ··· قبل عيد الميلاد مباشرة ؟

شعر بيتر بانه يتجمد وهو يتذكر الحلم فقال : ـ

ـ لا ·· لا أعتقد ذلك ··· أعتقد أنه لا يمكن أن أكون هذا الشخص ·

وأومأت روز مارى برأسها وعادت تسرح بناظريها الى البعيد ·· وفى هذه الأثناء سالها بيتر قائلا :

ـ كيف حال كلبك ؟

كان يقصد ان يقول لها انه يعرف كلبها ويخصه برعايته ، أما هى فراحت تجيب وهى تبتسم وترقب شيئا على بعد أميال :

ـ أو تقصد « تشيمى » ··· لقد هرب ·· كان حزينا للغاية لأننا أبقينا عليه معنا مدة طويلة كما تعلم ·

بدأ بيتر يشعر مرة أخرى بتعثر الكلمات الكبيرة على لسانه ، كانت كلمات تشبه قبعات أمه فى سخافتها ··· فعض شفته السفلى وأخذ رشفة من كاس البرتقال الذى بيده ، ولايدرى لماذا كان لها طعم الدم ، فراح يردد دون وعى منه « فهمت ·· فهمت » ·

أخذ بيتر يشرب كأس برتقاله ببطء متتبعا روز مارى وهى ترشف برتقالها رشفة ··· رشفة ·· دون أن يعبأ بالحفاظ على الجو الوقور الذى أحاط بكليهما منذ البداية ، لم يقل شيئا ··

اد لم يكن لديه ما يمكن ان يقوله طالما هى معه .

تنبه بيتر الى أن الموسيقى قدتوقفت، وأن الناس يصفقون بأيديهم بطريقة مهذبة وهم يسيرون فى خطوات منسابة لا تحكمها الموسيقى الراقصة ، فلم يكن لهم وجود فى الدنيا التى يقفون فيها مع روز مارى ، ولاح له شبح يتحرك تجاهها ، عرف فيه ذلك الشاب الذى كان يرتدى قميصا حريريا والذى تظهر فى ذقنه كدمات زرقاء ، كان يبدو كالمصاب بالصرع وحب العناد ، وجمد بيتر فى مكانه من تلقاء نفسه ، ولعل ذلك كان تصرفا غريزيا ، بينما أدار ذلك الفتى ظهره له وانحنى قليلا ليومى. لروز مارى قائلا :

ـ يا آنسة روزمارى جيننج ... أكون سعيدا لو سمحت لى بهذه الرقصة

ومشت روزمارى غير عابئة بوجود بيتر وان كانت لا تزال تبتسم . حينئذ شعر بيتر بأظافره وهى تقطع فى كفيه وبذلك التل يسد حلقة حتى ليكاد يشرق بينما راح ينظر الى النافذة الفرنسية وقد ايقن انه لا بد أن هناك حجرة خلف ستائرها الثقيلة قابلة الزجاج البارد كالثلج بعيدا عنهم جميعا ، رغم ذلك فقد كانت على الجانب الآخر من أمها، ونظر الى ساعته وتحقق من انه قد قضى ساعتين وهذه فترة طويلة خاصة اذا كان قد قضاها مختبئا فى المرحاض ... قد يظنون أنه قد راح فى اغمائه فيكسرون الباب بالبلطة ويدخلون .

خرج بيتر من باب المكتب وهو يمشى على أطراف أصابعه ، ولم يكن بالدهليز شىء سوى صف من المعاطف المعلقة على المشاجب ، والضوضاء ورائحة الطعام التى سرت الى هناك من المطبخ .

شاعت البهجة فى نفسه لان الموسيقى قد اختفت من خلفه ، ولكن الذعر تولاه حين خطر له أنهم أغلقوا الباب الامامى حتى يمنعوا الناس من الهرب ، ولما تحقق من أنهم لم يغلقوه خرج وأغلقه خلفه ثم هرول مسرعا وظلام ليلة عيد الميلاد يمزق عينيه والدموع تتجمد فوق وجنتيه ، وبعد وقت طويل مر بطيئا احمر صدره بفعل الحرارة وبدأ يفكر فى أعماله ونقوده ، ولكنه لم يجد لديه شيئا سوى الرصاصة التى فى جيبه فتحقق من ضياعه ... لقد كان فى طريق غريب صفت على كلا جانبيه أعمدة البرق التى تهدد بالسقوط فوقه مثلها فى ذلك مثل جذوع الاشجار التى كانت تهدد بالسقوط أثناء اللعب على المرتفعات بينما كانت الاغصان الرابضة هناك تهتف : « مورتون ! موتورن ! مورتون »

وفى ثبات بدأ بيتر يتبع الطريق الذى اصطفت على جانبيه أعمدة البرق غير عابىء بالمصير الذى يقوده اليه وكان حتى بعد أن يعود الى منزله يظل مستيقظا لبضع ساعات والموسيقى لاتزال تطن فى أذنيه وروزمارى لاتزال شاخصة أمام ناظريه ، وحين يستلقى نائما يكون على يقين من أن الحلم سيعاوده مرة أخرى .... ها هو الآن يهبط التل مرة أخرى على دراجته مارا خلف منزلهم فيضطر الى رفع الدراجة ليعبر الحاجز الذى لم يكن له وجود حقيقى ،وبينما هو فى صراع مع الحاجز تظهر والدتها من الباب الامامى وتقف ناظرة اليه فقط ... كلها جمال ... واشراق كالملائكة ولكنه يشعر بخجل فظيع . ثم يستيقظ من نومه كصياد فاشل أفزعه من نومه كابوس .

مسألة فيها نظر

بقلم الكاتب الأردني
فخري قعوار

رمش ابراهيم الدحبور رمشات سريعة متتالية حالما صحا من نومه ، ثم اغمض عينيه اغماضة شديدة ، وفتحهما بكل وسعهما . معتقدا أن هذه الحركة المرتبة تبدد النعاس . وهب ناهضا ، فالقى نظرة الى ساعة يده ، أحس بعدها وكأن ارقامها وعقاربها وكلمة « مينو » المحفورة على مينائها قد مسحت جميعها ، أو اختلطت ببعضها ، فامتدت يمناه الى منضدة بجانب سريره ، فتناول نظارتيه وثبتهما على وجهه الصغير ، كانت الساعة تشير الى الخامسة وثلاث دقائق ، أستطيع التحكم بمشاعرى حتى فى ساعات النوم فهو يملك القدرة على الصحو ساعتما أراد ، فكيف بك مثل هذه الساعة التى اعتاد النهوض فيها ؟

أحس دبيب خطوات قادمة من الحوش فتوقع أن تكون خطوات ابنته غندوره آتية بقهوة الصباح ونفس التمباك كالعادة ، لكن ظنه أخطأ هذه المرة ، عندما رأى زوجته سالمة تدخل اليه بالقهوة بلا نفس . لقد شعر أن ثمة شيئا منطو على مقدمها ، فلم يسبق لها أن نهضت قبل الثامنة أو الثامنة والنصف ، وأحيانا تروح بها نومة ! فتظل فى غطيط وشخير مستمرين حتى التاسعة والنصف أو العاشرة ، فهى حامل ، وقالت لها قارئة البخت الشهيرة « غنطوسة » منذ خمسة عشر يوما أنها ستلد صبيا ، ونصحتها بالاكثار من النوم والاكل الدسم .

ـ صباح الخير .

قالتها باقتضاب ، فأجابها بطريقة بث فيها التساؤل :

ـ صباح النور .

ابراهيم مضيفا ، وهو يتناول فنجان القهوة :

ـ غريبة ... ما الذى جعلك تنهضين مبكرة ؟

أشاحت بوجهها ، وكأنها لا ترغب فى الاجابة ، وهى تغمغم :

ـ لا شىء .

قالتها باسلوب جعله يقول فى نفسه « ليس لاشىء كما تقولين ، بل كل شىء » وهمت بالخروج وهى قائلة :

ـ سأحضر لك النفس .

فكور يسراه حتى بدت كالمفك الانجليزى الصدىء ، الذى يستعمله منذ سبع سنوات فى مشغله ، قائلا بالحاح :

ـ أهى هنا ؟

ـ هنا وأين تظن أنها ستكون .

اطمأن قليلا ، لكن شعوره بوجود شىء ما ، متعلق بابنته ، ظل يلح عليه .

هل جاء ـ مثلا ـ سليم ابن اخيه من « البلد » اليها فى الدائرة فحادثها فى الموضوع القديم : أن تترك العمل ويتزوجا ؟ هل بعث عفيف الاشعر ـ مدير الدائرة ـ كتابا بالاستغناء عن خدماتها ؟ ٠٠ هل ٠٠

ـ تكلمى ماذا حدث ؟

فنظرت اليه بعينين غائمتين مقذيتين وكانها تقول له : «أأقول لك أم لا؟٠٠» وأخيرا غمغمت وهى تحول ناظريها عنه، وتحرك قدميها بقصد الخروج :

ـ لعب معها عفيف لعبته القذرة !

ابن الكلب ! ٠٠ قام بهذه الفعلة بعد ان اشعره أنه كوالدها تماما عندما تسلمت العمل ، لكنه غدر ٠٠ غدر البغل الاسترالى ٠٠ وفيما غدره ، فى اعز ما يملك ، فى شرفه ، طعنه فى صميم قلبه ، القذر ٠٠ سود سمعتى ، فضحنى ٠ سأقتله !! أو ٠٠٠ أو أقتلها ٠٠ أوووه ! ترو فى الأمر ، تمهل ، لاتاخذ الأحكام بوحى العاطفة ، أنت رجل تزن الأمور ، وتفكر بعقلك ، فكر بعقلك الآن ، أنت بحاجة الى العقل فى هذه اللحظات أكثر منه فى أى وقت مضى ، شرفك وشرف ابنتك وسمعتك وسمعتها وسمعة آل دحبور جميعهم ، كلها منوطة بحكمك الساعة ، لا تتعجل ترو ، ترو ٠ وضع فنجان القهوة على المنضدة ، وألقى بجسمه النحيل على السرير ، وكانه يلقى بدراجة بخارية من على أحد السطوح !

دخلت « سالمة » حاملة النرجيلة بيسراها ، وبالاخرى تحمل ملقطا ثبتت جمرة بين نصفيه ٠ وضعتها أمامه ، ووضعت الجمرة فوق التمباك المرصوص فى قمتها ، وخرجت بصمت أبله ٠ نهض وراح يكركر بعصبية وقلق ٠ كان مابين نواجذه يفور فى فمه ، وشفتاه تزمان حول الممص ٠ ما أحقرنى ! ٠٠ أود لو ينهال على انسان ما يضربنى على راسى حتى أدوخ ، أو أن تاتى غندوره نفسها تضربنى بقبقابها على وجهى حتى أبصق دما ! الذنب ليس ذنب أحد غير ابراهيم نفسه ، هو الذى اضطرها للعمل ، اضطرها لذلك لانه عاجز عن اعالة ثمانى « بقرات » فى بيته ! ولكن لا ليس ذنبه ، انه ذنب القدر ، هكذا شاء له ، وهكذا يجب أن يكون ٠ لو جاء غندور بدلا منغندوره ، لوحذفت هذه التاء اللعينة ، انها قدرة ، بل قدر ثمانى مخلوقات أيضا ٠ أف ٠٠ كم ابتعدت عن المسألة ، يجب ، يجب ماذا؟ آه ٠٠ يجب أن يكتم الامر جيدا ويقابل عفيف الاشقر ٠ وراح يتحدث مع نفسه :

ـ ماذا قررت ؟

ـ سأقابله ٠

ـ لا ترض بحل مهين ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لن أرضى ٠

ـ ما هو الحل فيما ترى ؟

ـ أن يتزوجها ٠

ـ هل تصدق ظنونك ؟

ـ يجب أن لا أصدقها فى هذه المسألة بالذات ٠

ـ لا أدرى ٠

ـ ما هو الحل فيما ترى ؟

ـ ما هو الـ

ـ أوووه ٠٠ لا حل عندى ٠٠ لا أعرف ٠

ـ هيه ٠٠ هدىء من روعك ٠٠ هدىء ٠٠ متى ستذهب اليه ؟

ـ الآن ٠٠ الآن ٠٠ لن أتوانى ٠

وشعر بقدميه تحملانه الى « غرفة البنات » ، ووقف ازاء صف من الفراش الموضوع على الارض ٠ سبع « فرشات » وسبع بقرات ،وحاولأن يعرف غندوره من بين الرؤوس الملففة بالأغطية وقبل أن يتوجه نحوها بعينيه المشتعلتين وراء الزجاج السميك واعصابه المتشنجة ، سمع سالمة تقول :

ـ حرام عليك يا ابراهيم ٠٠ ليس لها ذنب في الموضوع كله ٠٠ كل ما حصل كان فوق طاقتها ٠

صفعة احساس يهينه في كبريائهمرة اخرى ، وكانها تقول له ـ كما رأى من قبل ـ أن الذنب ليس ذنب غندورة ، ولا ذنب عفيف ، بل هو ذنبه هو ٠٠ هو وحده ، وبلا ارادة منه قال لزوجته بانفعال زاد قليلا فوصل اقصاه :

ـ اغلقي فمك ٠

شد غندوره من شعرها صائحا :

ـ قومي يابنت الكلب ٠٠ياعاهرة٠٠ قومي ٠

ولمح وقع المفاجأة على قسمات وجهها، ولمح علامات الخوف واليأس تكمن فيه، لكنه لم يلن ، وصفعها ، وصفعها مرات ومرات ، وصار كالثور الهائج تماما ، وعم الصياح البيت ، فغندوره تصيح وتنشج من جهة ، وسالمة تحاول حسم الموقف بالكلام وبقدرما يسمح لها بطنها المندلق أن تفعل ، وصحت البنات ، ورحن يبكين دون ان يفقهن السبب لهذا الشجار ٠

وبعد معاركة غير قصيرة ، هدأ ابراهيم دون سابقاشارة ، وراحيسترد أنفاسه اللاهثة ، ويثبت نظارتيه المنزلقتين عن قمة أرنبة أنفه ، فاقتادته زوجته الى غرفته ، وهو مايزال ـتاكيدا لرجولته ـ يقول :

ـ سودت سمعتى ٠٠ دفنت كرامتى ٠٠ وطأت رأسى بين الناس٠٠ اللهيلعنك ويلعن الساعة التى رأيتك فيها ٠

وعاد يكرر بهيجان وثورة ، وزوجته تحاول حل الموقف بصورة معقولة ، فقالت :

ـ كل ما عليك فعله الآن٠٠ ان تذهب لعفيف ٠

وظل مثابرا على كركرته ، ولميجبها فأضافت قائلة :

ـ حاول أن ترى حلا معه ٠

فصاحبها صيحة أجفلتها :

ـ قلت لك ألف مرة اغلقى فمك ٠

وترك النرجيلة قبل أن ينهى النفس كالمعتاد ، فغسل وجهه دون استعمال الصابون النابلسى هذه المرة ، وخلع منامته ، وارتدى ملابسه ، وخرج الى الحوش مقتادا دراجته الى الشارع ، فركبها مستعينا بارتفاع الطوار على غير عادته ، فهو يركبها فى العادة كما يركب الفارس المغوار حصانه ٠ لم يكن يعى ما يدور حوله اثناء سيره ، فكان يحرك رجليه بطريقة آلية تماما ، وينعطف فى المنحنيات اعتمادا على غريزته ، فشوارع المدينة ـ فى عينيه ـ ضباب ، وافكاره مطارق فى رأسه ، ونبضات قلبه لحن الفشل الحزين ٠٠ وانتبه الى صوت طفل يافعيحمل حقيبته متوجها لمدرسته وهو يقفز الشارع قائلا :



– افتح عينيك يا عم ٠٠

وسمع الغلام يقول لزميله :

– أعمى ويركب دراجة ٠

فخاطب ابراهيم نفسه – وقد ابتعد عن الغلامين – مغمغما :

– نهار اسود ٠٠ ما فى ذلك شك ٠ ولاحت له لافتة جاره «بولس كرابيديان» بائع المشروبات ، ولأول مرة يشعر بفعالية كلمات اللافتة فى نفسه ، كما أنه – ولأول مرة أيضا – عرف أن رواد البار أناس طيبون ظلمتهم ظروفهم فجاءوا لينسوا واقعهم المرير ٠

وأزعج الصباح الهادىء عندما رفع باب المشغل ، وادخل دراجته ، وجلس للتو على كرسى القش الوحيد فى المكان ، وشهق شهقة طويلة جعلته يعتقد – اعتقادا ساذجا – أنه ابتلع كل الهواء المحيط به ٠ وتأمل الدراجات التسع التى حوله ، وتذكر الشبه المرتبط بينها وبين أفراد عائلته من ناحية العدد ٠ لقد فكر فى هذا التقارب منذ أمد غير قصير ، الأمر الذى دعاه لأن يفكر فى شراء شىء ما آخر ٠ فلعله يرزق بابنه « صابر » الذى طال انتظاره له – أو على الأصح – طال انتظار آل دحبور كلهم لهذا المخلوق العائش فى رحم سالمة الآن – وهذا خاطر استبعده كثيرا – أو ما يزال منطويا فى عالم الغمام الاسود ٠ وبالأمس ٠٠ بالأمس فقط أحضر هذه الدراجة الحمراء الموضوعة على مقربة من الباب ٠

ودخل فتى طويل القامة سائلا

استنجار دراجة ؛ فرفض ابراهيم طلب الفتى – رغم انه من زبائنه الدائمين – بحجة أنه سيغلق المحل الآن ·

وانقضى بعض الوقت وهو فى دوامة صامتة ، ثم نظر فى ساعته فوجدها الثامنة والنصف ·

ان الكلب لايأتى الى عمله فى الدائرة كسائر خلق الله ·· التاسعة ·· التاسعة والنصف ·· العاشرة ·· هذه هى مواعيده · على كل حال سأتجه اليه ·· فان لم أجده فسأنتظر · وأغلق مشغله وركب دراجته وسار فى الشارع العريض · وقد اعترف فى قرارة نفسه أنه ضعيف ·· ضعيف للحد الذى يجعله يحس بارتجاف فى قدميه ، وخفقان زائد فى صدره · وأحس بشىء يسقط من الدراجة ، فعرف للتو أنه المنفاخ · فوقف وحاول اعادته الى مكانه ففشل ، اذ وجد قطعة الصلب التى تمسكه قد سقطت ، فاضطر لحمله فى يده · واستأنف سيره ·

توقف أمام عمارة كبيرة ، على شارع فرعى من طريق السلط ، تذكر من لافتتها السوداء المنقوشة بالخط الأبيض، أنها المكان الذى جاءه حين توظفت ابنته، وضع الدراجة فى « بيت الدرج » بعد أن أقفل عجلتها الخلفية بمفتاح خاص ، وصعد الدرج بكاهل مثقل وجسم مهدود ، وهو يلوح بيده بالمنفاخ ! ·· وصادفه المراسل هابطا ، فاستوقفه سائلا :

– عفيف موجود ؟ ··

– قصدك الأستاذ الأشقر ؟ ·· سيأتى بعد قليل ··

ثم أضاف وهو مستمر فى مشيته :

– بامكانك انتظاره فى غرفته فى الدور الثانى ··

هذا هو الدور الثانى ، هذه أبواب كثيرة ، كل منها كتب عليه شىء معين ·· هذا باب عفيف ، وانتبه لتركيب الاسم ومعناه عندما وجده مكتوبا أمامه ، فهو ليس عفيفا كما يدعوه الناس وكما يشهد اسمه ، بل نذل وقذر ، كما أنه ليس بأشقر كما سبق ورآه ·

دخل غرفته ، وجلس على أقرب مقعد صادفه · ليس فى الغرفة غير طاولة وعدد من المقاعد وخزانة ، أما الجدران فمعلق عليها صورة بموازاة الطاولة ، وبعض الآيات والحكم : « رأس الحكمة مخافة الله » ·· « اتق شر من أحسنت اليه » ··· « الله » ··· « محمد » ··· وانتبه لدخول الرجل ، لقد جمدته المفاجأة ·· لم يكن يتوقع مجيئه بهذه السرعة ، ولا يمهله لأن يمهد لبداية الحديث وما يترتب على كل كلمة من أخذ ورد ··· و ··

فرج له الرجل شفتيه فى ابتسامة شاحبة فاقعة ، بدت فيها أسنانه صدئة متآكلة من السجاير · وقال مادا يده لابراهيم :

– أهلا ·· أهلا يا صباح النور ··

فغمغم ابراهيم بكلام لا معنى له ، ومد يده ببرود ، وصافح الرجل وهو ما يزال يرحب :

– أهلا وسهلا ·· شرفت وآنست ··

ثم أشار له الى المقعد قائلا :

– خذ راحتك ·· تفضل ·· أهلا ·

ثم نادى بكل عزمه :

- ربحى .. يا ربحى ..

ولم يكد يتمم كلامه حتى ظهر المراسل قائلا :

- نعم يا سيدى ..

- ماذا تشرب يا أبو غند ...

ولم يقل كلمة « غندورة » كاملة ، ثم استدرك :

- يا ابراهيم افندى ؟ ..

وأحس ابراهيم بكل زوايا المشكلة تتجسم أمامه .. ولم يجب على سؤال عفيف .. أحس بالغرفة تدور به . ولكننى رجل واقعى ، أستطيع التحكم بمشاعرى فى جميع الأوقات ؛ وانتفض ليطرد خواطره ، متسائلا :

- نعم .. نعم .. ماذا قلت ؟ .

- أقول ماذا تحب أن تشرب ؟

- لا اريد شيئا ..

- لا يمكن .. يجب أن تشرب شيئا ..

- لا .. ليس المجال مجال شرب شىء ..

وازاء تمنعه قال عفيف للمراسل :

- هات شايا بالنعناع بسرعة .

ودار عفيف خلف طاولته ، وقبل أن يجلس فتح علبة سجاير «جولد ستار» ، ودعاه لأخذ سيجارة ، فرفض وعاد يرحب به ترحيبا زائدا عن الحد المعقول ثم قال بطريقة حاول جعلها عادية ، لكن الافتعال بدا فيها واضحا :

- لم لم تأت غندوره هذا اليوم .. ؟

الكلب !! ويتساءل أيضا وكان المسألة لا تعنيه .. فأجابه بتحد مهشم:

- ماذا تقول يا رجل ؟ ..

فبدا القلق على وجه عفيف ، لكنه قال ببطء شديد :

- اتساءل عن سبب تأخر غندوره .. اذ ليس من عادتها أن تتغيب ..

ابن اللئيمة !! يبدى تجاهلا تاما فى الموضوع ، يحاول تغطية الأمور . وسمعه يقول :

- أليس من حق المدير أن يسأل عن سبب تغيب موظف عنده ؟

- أتعنى انك لا ..

وصمت . تشابكت الكلمات فى حلقه ولم يبق على الكلام .. فقال عفيف :

- أتعنى ماذا ؟ ..

فأجابه ابراهيم بصوت كأنه الحشرجة.

- أتعنى انك ..

ووقفت الكلمة فى حلقه مرة أخرى ، لكنه لم يجد بدا من نطقها :

- أتعنى انك لم تمسها ؟

وعاد عفيف يبتسم ابتسامته الصفراء الكالحة ، ليحاول اخفاء الحكاية ، مع أن كل مسامة فى جسمه تنطق بالخديعة والرياء .. ثم قال :

- ماذا تقول يا ابراهيم أفندى ؟ .. هل جننت ؟

ولم يدر كيف قال بطفولة وسذاجة:

ـ لا لم أجن ٠٠ وعليك أن تتزوجها

ـ ها ٠٠ ها ٠٠ فهمت الآن ٠٠ أنت تريد أن تزوجنى منها ٠٠

ثم أكمل بتهكم :

ـ ولكن الرجل يختار زوجته بروية وهدوء ٠٠ ولا يرغم عليها هكذا مرة واحدة ٠٠ وبلا سبب ٠٠

ابن الهرمة ! لا بد من تهشيم رأسه بهذا المنفاخ ، لا بد من ذلك ٠٠ وليكن بعد ذلك ما يكون ، وقال بنفور :

ـ لو لم أكن متزوجا لما ترددت ٠٠

أحس أن كل ثغرة أمل مفتوحة أمامه قد أغلقت ٠ وشعر بالاشياء من حوله تكبر ٠ بينما هو يتضاءل ٠٠ أصبح عفيف كالعملاق بطوله وعرضه وقوته ٠٠ الغرفة تكتم أنفاسه ، المنفاخ يتضاءل فى يده ٠٠ لوح به فى الهواء فالفأس يزداد صغرا ، وعندما هوى به على رأس عفيف ٠٠ ظن أن العملاق لا يهمه أن يضرب بقشة قديمة جافة ٠ وحاول الخروج فاصطدم بربحى الآتى بالشاى، فدلق السائل على الأرض ٠٠ وغاب ٠

بعد دقائق ، كان ابراهيم يجلس خلف منضدة عند «كرابيدان» ، ويجرع الكأس ذا اللون الابيض أثر الآخر ٠ لم يبق أحد فى الحان لم يعرف حكايته ، تحدثها بصراحة وعنف ، صاح ، وبصق وركل ، عرف أن حرارة المشروب تولد طاقة كبيرة للانفجار الساحق ! وفكر بالاستظلام لكن جلساءه أقنعوه بعدم الجدوى ٠٠ ، ولم يبق أمامه غير أن يرى « سليم » ٠ وجاءته ابنته الصغرى لتعلمه خبرا صغيرا ٠٠ لتقول له ان صابر قد جاء ٠



النهر الخالد

متولى

بقلم

سوريال عبد الملك

الســـاعة جاوزت الواحدة صباحا ، والانتظار أصبح كابوسا أثقل منك أيها الجرسون الصفيق ، لماذا ترمقنى باستياء من بعيد ؟ ماذا تريدنى أن أشرب فوق ما شربت يا بارد ؟ صحيح أنا هنا منذ ثلاث ساعات ، ولكنى شربت وأكلت ثلاث طلبات ، اقترب منى كلما مررت وانحن ٠٠٠ وتصنع انك سمعت ندائى ٠٠٠ فانا متشـــاغل عنك بالقراءة ، والكتاب الذى بيدى أطول من ليلتك التى لا يبين لها آخر ، أما الحساب فسأدفعه حتما ٠٠٠ ولكن لا تتعجلنى ، قد يأتى جلال بيه ويدفع عنى الحساب ٠

ما أرذلك أيها الجرسون ! ٠٠ لقد انتزعتنى من أحسن أجزاء الكتاب الذى بين يدى ، انت طبعـــا تجهل عن مؤلفه كم هو انسان ومعلم وصديق ، تمامـــا كما تجهل اننى اقترضت اليوم جنيهـــا من رئيس القلم ، ولكن لا بد انك تعلم اننا نعبر الهزيع الاخير من الشهر ، ولقد حاولت أن أبيع ما تبقى لنا فى القرية ٠٠٠ الدار أو العشـــة كما سماهـــا العمدة ٠٠٠ ففشلت فى بيعها بقيمتها ٠٠٠ كان العمدة هو الشـــارى الوحيد ودفع لى ثلاثين جنيها ٠٠٠ ومازال ينتظر أخى الأصغر سعيد لكى يوقع على عقد البيع ٠٠٠ وعمتى فى البلد بكت كثـيرا على دار أخيها، علام تبكين أيتها الساذجة العجوز ؟ على قوالب الطين ! أم على الانسان الذى تحول بكل انسانيته الى طين ؟

كم قرشا ستبقى معى ؟ ولكنك أيهـــا الجرسون أقسمت ان جلال بيه لا يمكن أن يتغيب عن هنا ليلة ، وأخى سعيد لا بد أن ينقل الى القاهرة حالا ٠٠٠ والا

فسيشطب اسمه من الدراسات العليا ، وأنا نفسى فى حاجة الى وجوده معى ٠٠٠ أنا وحيد والوحدة بعد الاربعين قاتلة ، وسعيد لسوء حظى عين فى سوهاج ، لو طاوعتنى يا سعيد وأقلعت عن التدخين ٠٠٠ كنا دبرنا الجنيهات الخمسين للكلب وخلصنا ، ولكنك تحتج بكثرة العمل ٠٠٠ أنا أيضا أدخن ولكننى ألف ٠٠٠ ما للسجاير اللف يا سعيد ؟ انت لاتحب اللف الا على جلال بيه ٠٠ أيها المجنون انت تنصب له كمينا لتودعه السجن ؟؟ كيف تصارع الجبال يا فار ؟ على العموم أنا سبقتك وبعت الدار ٠٠٠ وسأكتب كمبيالات بالباقى وستنقل رغم أنفك هذا الشهر ٠٠٠ قبل أن تفضحنا مع الناس ٠

الصفحة التى كنت اطالعها تاهت ٠٠٠ بصرى يزيغ عن الكلمات والمعانى تتبدد ، والـــكتاب يتارجح فى يدى ، قلت لك أيهـا الجزار ابتعد عنى ٠٠٠ أنا لعمت حمل الشرب الثقيل ٠٠٠ ولكنك كريم وتقسم بالطـلاق ، لعنة الله عليك وعلى الطلاق وعلى الحشيش ٠٠ الذى يشتت أفكارى ٠

جانبا أيها الكتاب حتى أعرف أين رأسى ٠٠٠ فلأركـز بصرى وفكـرى على ما حولى : المكان رحب ٠٠٠ والأضـواء حالمة ، والموسيقى تنساب كظلال الأمل من حيث لا أدرى ، أنفاس ملائكة تعطر الدفء من حولى بهمسات الغرام ، ووجوه مثقلات بالشباب ، ووجنات تســـاقط أنوثة وجمالا ، وغادة كالحلم هناك تداعب رفيقها ، وقريتنا الآن تغط فى ليـــل كئيب ، على شفتيهـــا كلمات ناعمة متكاسلة ٠٠ ذوبتها فى ابتسامة أشهى من كل أملاك عمدتنا ، هى تنصت فى لهفة الى لمسة على ذراعها الممتلىء العارى ٠٠٠ وهمسة الى خصـــلات شعرهـــا الثائرة ، انفجرت الآن من كليهما ضحكة مفاجئة كالزوبعة ٠٠٠ الزوبعة فى بلدنا تسرق التبن من الاجران وتعرض البهائم للجوع ، ولكنها هنا موسيقى مترامية الصدى ٠٠ يموت على ضفافهـــا الخوف ويتجمد الزمن ، احدى ساقيها تتسلق الأخرى وتتأرجح ، بيد ترفع الكأس ٠٠ وبالأخرى تداعب حبات العقد الراقد على ثدييها ، أقدام كثيرة أغرتها الموســـيقى بالعبث ، وأيد كثيرة استأجرها العمدة لتهدم دارنا وتبنى مكانها حظيرة للمواشى كل ما هنا جميل ٠٠٠ وليس ما يثيرنى سوى اننى نهب لبعض العيون بلا سبب ، وضحكات مدببة بدأوا يصوبونها من كل اتجاه ٠٠ صوب رأسى تماما ٠

صـــاحبة البيت زمانها نامت ٠٠ وأغلقت الباب خوفا على الدجاج الذى فوق السطوح ، سعيد يسكن فندقا فى سوهاج بنصف مرتبه ، الرجل الواسطة الذى عرفنى بجلال بيه موظف بسيط ولكن مصاريفه فى اليوم تعادل مرتبى فى الشهر ٠

الساعة الثانية ٠٠ انت يا ربى الذى أخرت عنى جلال بيه ، هل الرشـــوة حرام الى هذا الحد ؟ أم انك غاضب منى بسبب النفسين ؟ انت تعلم انها مجرد مجـــاملة للجزار ، والجـــزار يعطينى البروتينات على الحســـاب ، والمصيـــبة انه يستلطفنى من بين سكان الحارة ، وأنا فى الحقيقة أخشى أن يقول عنى كالآخرين ٠٠ أفندى وطالع فيها على الفاضى ، أنا يارب شرحت لك الآن كل شىء ٠٠ ولا بد انك قد سامحتنى ، سأنتظر جلال بيه

اذن حتى تسوقه الى ، هـــذا الافندى الداخل من الباب أنا أعرفه ٠٠ نعـم أعرفه جيدا ٠٠ شفته ألف مرة ولكن اسمه راح من على لسانى ، لا ٠٠ لا ٠٠ تمام ، رزق أفندى ٠٠ مشاء الله يا رزق أفندى ؟ موظف فى الدرجة الســابعة وزبون هنا ؟ لا بد أن الحكاية كبرت ! البركة فى شغل المناقصات والممارسات لـــو كنت على درجة من أول عشرين سنة كان زمانى رئيســـك ، ولو كنت رئيسك كنت حاسبتك حساب الملكين : لماذا تهرب مع شلتك الى الطابق العلوى؟ يا حرامى وأنا عارفك ، أنا نفسى لا أود أن أراك ٠٠ حتى اللص الآخر لن انتظره ٠٠ أنا متعب ٠٠ وقرفان حتى الرجل الواســطة لم يات ليعتذر لى أو يؤجل الموعد ، كلهم « بهوات » ، أنا هنا فقط « المرمطون » ، حتى ســـعيد بعيد عن المولد ، لا ياسعيد أنا لن انتظر أحـــدا يا عزيزى وطالع نهار ٠

كان هنـــا فى جيب البنطلون ورقة بربع جنيه٠٠ أين انت أرجوك ياحبيبتى؟ آه ٠٠٠ لقد بددتك ثمنا لعلبة السجائر، العلبة التى اشتريتهـــا لتناسب الناس والمكان ، فلأشعل السيجارة الخامســة عشر ، ثمن علبة الســــجائر هذه ٠٠ يشترى فى بلدنا كيلة ذره «بالهز والدك» تعال أيها الجرسون الراقص ٠٠٠ لقـــد مللت نفسى معك ، تعال بلا انحناءات يا منافق ٠

أنا شربت ويسكى ! ورحمة ســيدنا آدم ما شربته فى حياتى ، العفو ياسيدى ٠٠ يا سيدى العفو ، متشكر ٠٠ هات الباقى هات وخلصنى الله يسترك ، هذا الجنيه أكرم منك ومن كل هؤلاء الناس ٠٠ صديق ودود انكر ذاته واختفى فى جيبى ٠٠ بينما جلست أنا ســـاقا على ساق ٠٠ لأتفرج وحدى على هذا النعيم، مع السلامة يا صديقى الاخضر القلق فى رحلتك المجهولة ٠ يا ساتر ! كيف وصل الحساب الى ثلاثة وستين قرشا ؟ يعنى ضاع الجنيه ٠٠ خذ لك ستة قروش طاعة منى للقانون ٠٠ وأكون قد سرقتك فى ثلاثة مليمات ، وقرش لك أيها الصبى فقد رويت عطشى كثيرا ، وتعالى أيتهـا الاشلاء الباقية اســـتعين بك على برودة الليل العجوز ، لمـــاذا علموك الانحنـــاء مبكرا يا بنى ؟ طبعـــا لأنك تبيـــع الماء بالفلوس ، تصـــور انك لو أتيت بكل زبائنك ٠٠ وعبئتم مياه أزيارنا جميعا ٠٠ لما انحنى صبى فى قريتنا خلفكم ولا أمامكم ، بل سيدعونكم أيضا الى أكلة «فطير» أشهى ألف مرة من «جاتوهاتكم» التى لم تنتبه لهـــا امعائى ، لعنة الله على كل النـــاس وأنا أولهـــم ، دوار عنيف يا بنى يتنزه فى جمجمتى ، كان شـــيطانا وليدا تركته أمه داخـــل راسى بلا رضاعة ، مع ان المعلم الجزار نبهنى الى عـــدم أكل الحلو ٠٠ ولكننى أموت فى الحلو أيام الموالد ، ما زال فى جيبى قرص اسبيرين ٠٠ وكوب الماء ، لأمسح العرق وأسترح قليلا ٠

تعال نستعد للخروج ياكتابى العزيز هنا بين ذراعى وقلبى حتى أقراك مرة ثانية وثالثة ، وانت يا علبة سجائرى ٠٠ وقلمى ٠٠٠ ومشطى ٠٠ ومنديلى وكوفيتى ٠٠ لماذا بعثرتكم هـــكذا على الترابيزة : الأ بأس فاننساء هنا أيضا مبعثرات عن الحيـــاة ، والرجـــال عن الحياة ، والرجال عن اشنابهم، والفلوس تبعثر بلا قيمة ، وأشياء كثيرة تبدو فى غير مكانها ٠

أيها المبلغ الدسم أرقد حيث انت بين دفتى البطاقة الشخصية ، احتضن صورتى ٠٠ وقبلها ليلة أخرى قبلات الوداع ، القروش الباقية فضة ٠٠٠٠ ومكانها هذا الجيب الضيق ، واهجعى يا محفظتى الوديعة فى مخبئك العميق ٠٠ واستدفئى جيدا بالصبر والقناعة والبطانة الحرير ، ها أنذا أغلق عليكم الزر فالريح باردة فى الخارج ، ولذلك احضرت كوفيتى، لماذا تشيرين لجلسائك على كوفيتى وتضحكين يا بنت !! الا تروق لعينيك الحمراوين الذابلتين خطوطها الحمراء الواعية ! وتقهقهين ؟! أقسم بشرف أى بنت من بنات قريتنا ٠٠ اننى اشتريتها بعشرين قرشا من شارع الموسكى ، أهملت المحلات المضاءة بالنيون فى عز الشمس ، واشتريتها من عجوز قابع خلف ساقه الوحيدة ٠٠ المرتمية على تراب الرصيف ، كان يعرض بضاعته أيتها الغبية فى صمت مهين ٠٠ وفى عينيه أسرة أكثر كآبة تستجدى عيون الزحام ، ومع هذا يا ابنة الليل فانا أنشرها حول عنقى أنا ٠٠ أنا لست أعرضها على أحدكم ليشتريها يا بائعة الضياع ٠

الحمد لله ٠٠ خف الصداع ٠٠ ولكن البرد ٠٠ هذا العدو غبى يتربص بى الآن ملء الشوارع ولكنه على أى حال ٠٠ ليس أقسى من ليالى الساقية فى شتاءات الصبا لماذا تنحنى أمامى يا حارس الباب ؟ آه ! انت تفتح الباب بالبقشيش !! يا عينى على طولك وعرضك وحزامك الحرير !

ولكنى أغلقت جيوبى كلها يا بطل ٠٠ وأنا لست مدمنا على محلكم ٠٠ أنا مجرد كاتب باليومية فى أرشيف تحت الأرض ، ليلتك سعيدة ، وبالمناسبة شركة سعيدة للطيران أفلست ، إنا خارج من غير بقشيش ، اذا فار الدم فى رأسك فانطح بها الحائط من هنا للصبح ٠

صباح الخير أيها النهر الخالد مسافر أنت زادك الخيال كما يغذون واغراقك فى الخيال أفسد عليك صحتك ٠٠ لأنك لا تصل الى قريتنا الا كالشبح ٠٠ مجرد قناة هزيلة يتقاتل أهلى بالشوم على شاطئيها من أجل الزروع الشاحبة ، الريح صعبة وساقاى ترتعشان ٠٠٠ والميدان مرتع فسيح للصقيع ، عمرى ما مشيت اتطوح بهذا الشكل المخزى ، حمراء يا اشارات المرور حمراء ، فسأعبر الميدان من أقصر الطرق ٠ ٠ أنا مجهد ولا وقت للدوران مالك أيها الجندى تلوذ بالجدار كالمذعور من الليل ! لو ان لى رداءك السميك وذراعك هذا القوى ٠٠ لألهبت قفا الليل صفعا ٠٠ وسقته مع كل أكوام البرد ٠٠ الى حيث جلال بيه والرجل الواسطة والعمدة ٠٠٠ ورزق أفندى وآخرين ٠٠ وصببتهم جميعا فى بالوعة مظلمة ٠٠ ثم رصفت الشارع من فوقها بالطوب والزلط والزفت

سلام عليكم ، كبريت ؟ طبعا يا شاويش ٠٠ وسيجارة ، يا سيدى واجب على الحاضر ، كنت فى انتظار

جلال بيه ، جلال بيـــه المدير العام ، أراهن انك مســـطول على الآخر ، والا كنت شـــكرتنى أو على الاقل رددت السلام ، القصد ٠٠٠

هذه السيارة الأنيقة لماذا تســـهر فى الشـــوارع ؟ لو كان عندهم ذوق ويوصلوننى لغاية الامام !! بظهر انهم أولاد حلال فعلا ، مساء الخير ؟ صباح الخير يا جماعة الفجر قرب يشقشق ، الساعة ؟ غريبة ! وساعاتكم ؟ طبعـا عندى بطاقة ، متأخر فى الشـــارع ؟ وماله ! ٠ أهذا سؤال أنته وهو ٠٠ تفضل البطاقة ، حاسب من فضـــلك فيها فلوس ٠٠ تتفرج على الساعة ؟ لماذا تنزعها من يدى ؟! وانت لماذا تشد الكوفية والكتاب ؟ يخرب بيتك قطعت جلدة الكتاب ٠

آه ياعينى ٠٠ الحقنى يا شاويش ٠٠ عينى ٠٠ يا شاويش بذمتك ما كنت شايفهم ؟! كان بينك وبينهم ربع دقيقة اجر يا شاويش ٠٠ آ٠٠ هم عند المفارق اضرب فى الكاوتش ٠٠ نعم؟ مسئولية؟ انت مسئول عن هـــذا المبنى الحكومى فقط ؟ وأنا يا شـــاويش ؟ أنا كذلك مبنى حكومى ، أنادى عسكرى الداورية؟ والله عال !! يا سيدى أنا مصدق ان ربنا عنده العوض انما سعيد ٠٠ المهم سعيد يا شاويش ، ابنك اسمه سعيد ؟ ما شاء الله !! وراح الحج مع جده ؟ الله يخرب بيت الحشـــيش ، يا أخى أنا مصدق ان اسم سعيد جميل ، اللهـم طولك يا روح ، واسم سعيد فى كل بيت ٠٠ عمرك طويل ٠٠٠ والعمل ؟ طبعا لا زم أبلغ القسم يا حاج، ضربونى وسرقوا الفلوس والســـاعة ، حاولوا خطف الكوفية طبعا ٠٠ انمـــا لا يمكن أعصـــابى ماتت يا حاج على الكوفية والكتاب ٠

القصة حول العالم

بقلم : على شلش

« روائى من نيجيريا »

لم تعد أفريقية ، وخاصة فيما وراء الصحراء الكبرى ، مادة للكتاب والفنانين الأوربيين أو الأمريكيين ، يلجأون اليها كلما فرغت مادتهم أو دفعهم الفضول لمعرفة أسرار الطبيعة السخية البكر التى تتميز بها القارة . ذلك لأن الأفريقيين الذين عاشوا فيما وراء الصحراء فى ظل الاضطهاد والسيطرة الاستعمارية قد شرعوا منذ حين فى تحطيم أغلال هذه السيطرة ، وبالتالى فى اثبات وجودهم على نحو واسع يتعدد بتعدد مجالات الحياة . ومن الطبيعى والحال هذه أن نجد بين أيدينا ــ لأول مرة ــ أعمالا أدبية وفنية أفريقية المبنى والمعنى ، لكتاب وفنانين من أبناء القارة التى نفضت غبار الاستعمار فى السنوات الأخيرة بصفة خاصة .

وقد صدر مؤخرا فى سلسلة مطبوعات جامعة أكسفورد كتاب بعنوان « سبعة كتاب أفريقيين » للباحث والناقد الانجليزى جيرالد مور الذى تخصص فى آداب القارة عبر الصحراء الكبرى ، أى تلك المنطقة الشاسعة التى تمتد الى المحيط الهندى فى الجنوب ، والتى كان يحلو للجغرافيين الأوربيين أن يطلقوا عليها فيما مضى اسم « أفريقيا السوداء » .

ونعرض فى هذه الجولة لأحد فصول هذا الكتاب الهام ، وقد خصصه المؤلف لدراسة قاص معروف فى نيجيريا ، هو شنوا أشيب ، الذى يعتبر أحد اثنين من أعلام القصة فى بلاده . ونيجيريا ــ كما هو معروف ــ كانت حتى عام ١٩٦٠ أكبر مستعمرة بريطانية فى غرب أفريقيا ، وهى مقسمة الى أربعة أقاليم ، ويبلغ سكانها نحو ٣٦ مليون نسمة ، يتحدثون بعدد من اللغات أهمها لغة « الهوسا » ، لكنهم يتعاملون ويكتبون بالانجليزية التى فرضها عليهم الاستعمار البريطانى .

وقد جعل جيرالد مور عنوان هذا الفصل : « شنوا أشيب : الحنين للوطن والواقعية » واستهله بالتمييز بين أشيب وزميله القاص المعروف أموس توتولا . ذلك لأن الاول قد أدار كل انتاجه تقريبا حول فكرة البحث عن الماضى ، والعود الى الحياة القبلية الأولى حين لم يكن الرجل الأبيض قد دهس التربة الأفريقية بعد . وهذا الحنين الطاغى الذى يشد أشيب الى الماضى يتلمس طريقه بطريقة واقعية ، ويتم دون أى

تعصب عرقي أو رفض عصبي ، وهما محوران يدور حولهما – في رأى مور – كثير من كتابات الافريقيين الزنوج المحدثين .

وظهرت أول رواية لأشيب عام ١٩٥٨ تحت عنوان « الأشياء تتداعى » ، فكانت أول رواية بالانجليزية في غرب أفريقية تلقى استحسان النقاد ، نظرا لمحافظتها على الأصول الفنية للرواية على خلاف مايكتبه زميله توتولا . وهي رواية قصيرة استلهم أشيب عنوانها من الشاعر الأيرلندي المعروف وليم بتلر ييتس ، وعالج فيها مجتمع قبيلته « ايبو » التي تعد من أكبر قبائل نيجيريا ، كما تظهر فيها خصائص أسلوب الكاتب كالايجاز وقصر العبارات والبعد عن التبرير والحكم والتفسير والادانة ، وهي صفات أثرت كثيرا في نجاح الرواية .

وبطل الرواية يدعى أوكونكو ، عاش بين ١٨٥٠ – ١٩٠٠ في قرية بشرق نيجيريا تبعد قليلا عن نهر النيجر ، وهي منطقة لم تتأثر بالتدخل الاوربي حتى عام ١٨٩٠ ، لكنه كان يافعا حين شهد قدوم البيض الى أرض قبيلته . وهو رجل قبلي قلبا وقالبا ، معتز بنفسه ، لايخاف ، تسيطر عليه فكرة تحقيق منزلة لنفسه داخل العشيرة تعويضا لنفسه عن فشل أبيه الذي كان يعمل عازف ناي متجول ، لايستقر له مقام حتى مرض وتوفى .

ورغم أن الرواية قصيرة ، الا أن أوكونكو لايظهر فيها بطلا من النوع النمطي الذي يتقولب – ان صح التعبير – داخل اطار معين ، غير مايظهر بطلا مأساويا تتصارع في داخله نوازع الضعف والقوة . ومن خلال صورة أوكونكو وحياته يرسم أشيب صورة حية للحياة القبلية واحتفالاتها ومهرجاناتها وطقوسها وعاداتها . فهاهو ذا يصور مباراة للمصارعة تصويرا ينبض بالحيوية ويعتمد على دقائق البيئة وتفاصيلها . يقول :

« خرجت القرية كلها ، رجالا ونساء وأطفالا الى الساحة . وجلسوا في حلقة واسعة تاركين وسط الملعب خاليا . بينما جلس شيوخ القرية وأعيانها على مقاعدهم الخاصة التي جلبها لهم أولادهم أو عبيدهم . وكان أوكونكو بينهم ... ولم يكن المصارعون قد ظهروا بعد حين كان قارعو الطبول يسيطرون على الساحة ، وقد جلسوا بدورهم أمام حلقة المشاهدين الواسعة ، في مواجهة الشيوخ ...

أما الشبان الذين كانوا يتولون حفظ النظام في هذه المناسبات فقد أخذوا يروحون ويجيئون ، وهم يتشاورون مع أنفسهم ومع رئيسى فريقى المصارعة اللذين ظلا خارج الحلقة خلف الجمهور . وفجأة اندفع عدد من الشبان يحملون « جريد » النخيل ، وراحوا يعدون حول الحلقة ، ويحفظون الجمهور خارجها ، اما بضرب الأرض بالجريد ، واما بضربها بسيقانهم وأقدامهم فيما لو كانوا مشاكسين .

وفي النهاية رقص الفريقان داخل الحلقة ، وأخذ الجمهور يزأر ويصفق . وراحت الطبول تدق بجنون . وراح الناس يزحفون الى الأمام . بينما تسلل الشبان الذين يحفظون النظام الى داخل الحلقة ملوحين بجريد النخيل . وراح العجائز يهزون رؤوسهم

مع دقات الطبول ، وهم يتذكرون الأيام التى كانوا يتصارعون فيها على ايقاعها المحموم ....

كان هناك اثنا عشر رجلا من كلا الجانبين داخل الحلقة ، بينما التحدى ينتقل من جانب لآخر . وبين المصارعين سار اثنان من المحكمين ، كانا يوفقان أية مباراة حين تتساوى كفتا الفريقين . وتمت خمس مباريات على هذا النحو . لكن اللحظات المثيرة الحقيقية كانت تصاحب طرح واحد من المتصارعين أرضا . فحينذاك كان صوت الجمهور الراعد يرتفع الى السماء ، فى كل اتجاه ، حتى يبلغ القرى المحيطة .

وكانت آخر مباراة بين رئيسى الفريقين ، اللذين كانا يعدان من أفضل المصارعين فى القرى التسع بأسرها . وراح الجمهور يتساءل عمن تكون له الغلبة هذا العام . قال البعض ان أموفو أفضل الاثنين ، وقال البعض الآخر انه ليس كفؤا لأكيزيو ، ولم يحدث فى العام الماضى أن تغلب أحدهما على الآخر ، رغم أن المحكمين سمحا للمباراة بوقت أطول مما جرت عليه العادة . فقد كان لديهما نفس الأسلوب ، وكان كل منهما على بينة من خطط الآخر . فمن الجائز اذن أن يتكرر هذا العام ماحدث فى سابقه .

كانت حمرة الشفق تهل حين بدأت المباراة . وراحت الطبول ترعد بجنون ، وكذلك الجمهور الذى راح يندفع الى الامام بينما الشابان يرقصان داخل الحلبة . وعجز جريد النخيل عن اعادة الجمهور الى أماكنه .

ورفع اكيزيو يده اليمنى الى أعلى ، فامسك بها أوكافو ، ثم التحما . وكانت المباراة حامية . وجاهد اكيزيو كى يستند على كعب قدمه اليمنى خلف اكيزيو ليتمكن من القائه الى الخلف ... وكان الجمهور قد غطى على قارعى الطبول الذين لم يلبث ايقاعهم الحاد أن أصبح مجرد صوت خافت لايطغى على دقات قلوب الناس .

وكان كل من المصارعين حينذاك لايزال فى قبضة الآخر ... وبدت المباراة متعادلة . وشرع المحكمان فى التحرك الى الأمام كى يفصلانهما ، حين هوى اكيزيو بسرعة على ركبة واحدة ، وقد أصبح يائسا ، فى محاولة لدفع خصمه الى الخلف من فوق رأسه . لكن الخطأ فى الحساب كان محزنا . فبالسرعة التى يلوح بها البرق فى « أماديورا » ، رفع أوكافو ساقه اليمنى وطوح بها فوق رأس خصمه . وعند ذاك انفجر الجمهور فى زئير راعد . واختطف أوكافو .. اختطفه أنصاره وحملوه الى بيته على الأعناق . وراحوا يغنون فى مدحه ، بينما الفتيات يصفقن بأيديهن كالكورس مرددات:

من ذا الذى سيصارع باسم قريتنا ؟

أوكافو هو الذى سيصارع باسم قريتنا

هل طرح مائة رجل ؟

لقد طرح اربعمائة رجل .

هل طرح مائة نمر ؟

لقد طرح مائة نمر ·

اذن ، ابعثوا اليه ان يقاتل باسمنا ·

ويعقب هذا المشهد مشهد آخر يذكرنا بالثمن الذى يدفع لقاء الأمن الداخلى وقيامه على القضاء والقدر داخل القبيلة · ففى جنازة احد شيوخ العشيرة نجد أوكونكو بين المشيعين ، وقد انخرط فيما يحدث فى أمثال هذه المناسبات من اطلاق النيران بالبنادق والرقص والصياح · ووسط كل هذا ينطلق مقذوف نارى من بندقيته خطأ فيقتل ابن الرجل الميت · ومعنى هذا حسب التقاليد أن ينفى أوكونكو ، ويخلع من العشيرة سبع سنوات ·

ورحل أوكونكو مع أسرته · لكن عملية خلعه ونفيه تصيبه بأزمة عنيفة مضاعفة يرى فيها قضاء مبرما على طموحه فى تحقيق مكانة لنفسه داخل القبيلة الكبيرة · غير أن هذه السنين السبع تأتى معها بالارساليات ثم بالرجل الأبيض الى داخل الأرض التى يعيش فيها أوكونكو ·

وبعد انقضاء مدة العقوبة يعود أوكونكو ، وتكون احدى ارساليات التبشيـــر قد نجحت فى اغراء مواطنيه ، وتقيم على أرضهم كنيسة خاصة بها · ويلتقى بصديقه القديم أوبييريكا الذى يقص عليه ما حدث فى غيابه بقوله :

« كيف تظن أننا يمكن أن نقاتل حين يكون أشقاؤنا قد تخلوا عنا ؟ ان الرجل الأبيض غاية فى الذكاء · فقد جاء مع دينه فى هدوء وسلام · وكنا نتســـلى بغبائه ونسمح له بالبقاء · وهاهو الآن قد فاز بأشقائنا ولم يعد يوسع عشيرتنا أن تسلك سلوك عشيرة حقة · لقد غرس سكينا فى الأشياء التى كانت تربط بيننا ، ورحنـــا نتداعى ونتساقط » ·

ومع تساقط الاشياء والناس وتطبيق سياسة « فرق تسد » يحدث فجأة أن يشعل أحد المواطنين النار فى الكنيسة التابعة للارسالية الانجليزية · وفى الحـال تقبض السلطات الانجليزية على عدد من المشتبه فيهم ، وتسجنهم وتعذبهم ، وما ان يطلق سراحهم ويعودون الى القبيلة حتى ينعقد فيها مجلس الحرب لبحث الموضوع · وترسل السلطات جنودها لفض الاجتماع لكن أوكونكو يفقد أعصابه فيقتل قـائد الجنود ، ويقبض عليه ، ويحكم عليه بالاعدام شنقا ، وتنتهى حياة هذا القاتل الشجاع المحب لعشيرته وقومه ·

·· تلك هى حال نيجيريا ، وخاصة فى الشرق ، كما صدرها أشيب حتى مطلع هذا القرن · لكن نيجيريا المعاصرة تختلف عن هذه كثيرا ، فقد تغلغلت فيها المـــدنية الأوربية ، وأصبحت سكنا لعدد من الاجناس والجنسيات ، بل والمجتمعات التى يختلف كل منها عن سواه فى الادراك والقيم والاخذ بأسباب المدنية · ومعنى هذا ظهور مادة خام جديدة أمام الروائى ، مما جعل أشيب يلتفت فى روايته الثانية اليها · وعنوانها : « لم تعد هناك راحة » · وبطلها أوبى أوكونكو حفيد بطل الرواية الاولى ، أى انه ينتمى

الى الجيل الجديد الذى عاصر انصهار مجتمعه وذوبان كثير من قيمه الأصيلة فى بوتقة الحضارة والمدنية ·

ويشب أوبى فى كنف أسرة ريفية محافظة يعمل عائلها فى التدريس بمدارس الارساليات ، ويتاح له أن يسافر الى لندن للدراسة فيقضى هناك سنوات يعود بعدها ومعه نظرة جديدة أكثر تحررا وتمسكا بقيمة الفرد ، ويعمل فى العاصمة النيجيرية موظفا فنيا بوزارة التربية ، مشرفا على المنح الدراسية بها · لكنه يكون قد تعرض لتجربة حب فى الطريق الى بلاده ، بطلتها مواطنة له درست التمريض بالخارج ، تدعى كلارا وهى من عشيرة دون عشيرته فى المستوى الاجتماعى ، يعمل أفرادها بالخدمة فى بيوت الموسرين · وتعمل كلارا بعد وصولها فى أحد مستشفيات العاصمة ، وتتوثق علاقتها بأوبى ، ويصمم على الزواج بها · غير أن الأمور لاتلبث أن تمضى على غير ماتشتهى سفن الحبيبين · فيلقى أوبى معارضة « اتحاد أوموفيا التقدمى » وهو حزب تولى الانفاق عليه فى الخارج وأنفق فى سبيل هذا مبلغا كبيرا · ويتهمه الحزب بأنه خارج على تقاليد قومه ، خاصة وقد فاجأهم باعتزامه الزواج من كلارا ، فى حين يعيش المنحدرون من أصلاب العبيد ويتاجرون ويتزوجون ويموتون منفصلين تماما عمن ولدوا أحرارا · لكن أوبى يمضى فى تصميمه ويعد نفسه للتخلص من ديونه للحزب ، ويتمكن من شراء سيارة خاصة ، ويتحسن دخله ، وفى هذه الأثناء يزور مسقط راسه بأمل الفوز بموافقة والديه على الزواج · لكنه لايجد منهما تشجيعا ، بل ان أمه تهدده بالانتحار ان هو فعل وتزوج بكلارا · ويعود أوبى مغلوبا على أمره الى العاصمة ويحيط كلارا بما حدث ، وينصحها بالانتظار ريثما ينجلى الموقف · لكن الفتاة تصدمها المفاجأة، لاسيما وقد حملت منه · فتجهض نفسها ثم تترك العمل بالمستشفى وتفر من«لاجوس» العاصمة ولا تراه مرة أخرى ·

ويغرق أوبى فى الديون أملا فى استعادة كلارا ، ويخضع لاغراء مهنته فيقبل الرشوة فى النهاية من راغبى الحصول على منح دراسية ، ولا يلبث فى وقت قصير أن يتخلص من ديونه ، لكنه لايلبث أيضا أن يكتشف ، فيحاكم ويسجن ويفصل ·

وتبدأ هذه الرواية بمشهد المحاكمة حيث يعود أوبى بذهنه الى الماضى فى عود طويل يصله بحادثة اكتشافه نفسها ، وفيه يتذكر كل حياته وحبه ومأساته ·

ورغم أن الأثر هنا مقبض الا أن أشيب قصد أن يقدم صورة مقبضة لحيرة أوبى، التى هى حيرة آلاف سواه من شباب نيجيريا · ولو أننا أجرينا بين الروايتين السابقتين مقارنة لاكتشفنا لأول وهلة صلة النسب بينهما ممثلة فى قرابة بطليهما ، وتعارضهما فى الفكر والسلوك فى الوقت نفسه · فأوبى الحفيد أكثر انسانية ورفقا ، وأوسع أفقا ، لكنه يفتقر الى مالدى جده أوكونكو من قوة ارادة ونزاهة ·

وأشيب فى روايتيه يعنى بالأمثال والأقوال المأثورة التى تتردد بين حين وآخر فى قصصه وعلى لسان شخصياته ، لدرجة أنها فى رواية « الأشياء تتداعى » كانت تمثل الاعلام والتعبير الطبيعى عن أفكار الشخصيات · ومنها مثلا :

● **يمدح الانسان نفسه اذا لم يجد أحدا يمدحه ٠**

● **منذ أن تعلم الانسان الرماية دون أن يخطئ الهدف تعلم الطير أن يحلق دون أن يحط على غصن من الأغصان ٠**

● **بوسعك أن تميز القمح الناضج اذا نظرت الى مظهره ٠**

● **ما يخصنا ، يخصنا وحدنا ، لكن مايخصنى يخصنى وحدى ٠**

، وشنوا أشيب كاتب واقعى ، لكن مما هو جدير بالملاحظة أن ملامح حياته قد ملأت خياله وغذته ٠ فقد ولد عام ١٩٣٠ بقرية تدعى « أوجيدى » وهى قرية كبيرة ترقد على مبعدة أميال من نهر النيجر ٠ وكان أبوه معلما فى ارسالية ، وكان جده يافعا حين جاءت أول ارسالية الى أوجيدى ٠ ويحكى عنه أنه رحب برجالها فى منزله لكنه طلب منهم أن يغادروا القرية حين استمع الى تراتيلهم وغنائهم الدينى فخشى أن يحسبه جيرانه قد مات ٠ وكان جد أشيب لأمه يمتهن الحدادة ، وهى مهنة كانت تلقى احتراما كبيرا بين الناس ، لما كانوا يظنونه فى أفرادها من قوى سحرية !

وحين شب أشيب عن الطوق ألحقه أبوه بمدرسة ثانوية حكومية فى بلدةأوموا هيا، ومنها انتقل الى الكلية الجامعية بابادان ، حيث كان ضمن أول دفعة تخرجت منهـا ، وهى دفعة لها تأثير كبير اليوم على الحياة فى نيجيريا ٠ وقد عمل منذ عام ١٩٥٤ مذيعا بهيئة اذاعة نيجيريا ، وأصبح مديرا للبرنامج الخارجى فيها ٠ وله عدا روايتيه هاتين عدد كبير من قصار القصص ٠

ويختتم جيرالد مور هذا الفصل عن أشيب بالحاقه صفة الخيال الخلاق الى ماسبق من صفات ألحقها به ٠ ومن رأيه أن هذا الخيال الخلاق قد مكنه من أن يتنفس الحياة حوله دون تعصب عرقى ، وأن يدفعه الى الفهم الموضوعى ٠ غير أن أشيب يحتاج رغم هذا الى كل مالديه من واقعية وادراك فى سبيل مزج عالمه الذاتى بعالمه الموضوعى ، حتى يتقدم أكثر ، كروائى مرموق اليوم فى بلاده ، وفى عالم قارئ الانجليزية على السواء ٠

زوايا وأنباء

● **كتب الناقد الانجليزى ارفنج واردل فى صحيفته « ذى أوبزرفر » معلقا على مشكلة الشكل فى الرواية التقليدية والجديدة ، بقوله :**

« ان الاعتراض الموجه الى الرواية التقليدية هو أن أشـكالها لم تعد توافق تصورنا للعالم ٠ أما الاعتراض الموجه الى الرواية التجريبية فهو أنها غير قابلة فى العادة للقراءة »

● **صدرت عن دار هودر وستاوتون رواية جديدة للكاتب الانجليزى نيكولا** موزلى بعنوان « الحادثة » ٠٠ ملخصها أن معيدا للفلسفة باكسفورد يقع بصره ذات ليلة على حادثة تحطم سيارة ، فيهرع اليها ، فاذا به يجد طالبا وطالبة من طلبة الجامعة

الذين يقوم بالتدريس لهم · لكنه يجد الطالب ميتا أما الفتاة التى كانت تقود السيارة فيجدها حية ، ويضطر الى اصطحابها معه الى بيته كى ينقذها من تحريات الشرطة،لأنها هى التى كانت على عجلة القيادة · وهناك يعرفها بزوجته التى تستعد للوضع، ويخفيها أياما ريثما تهدأ التحريات ، وفى هذه الأثناء يعرفها بأحد أصدقائه من الروائيين ، ويجدان فيها معا مادة للعبث ، الى أن يستيقظ ضميره ويخشى على منصبه من الضياع والفضيحة ، فيتركها لسبيلها ، ويعود الى زوجته المشرفة على الوضع ·

● **الذئب والجرس ·· عنوان الرواية التى نشرتها دار لوسويل الباريسية للقاص اليوغوسلافى ميودراج بولا توفيتش ، بعد روايته الأخيرة « الديك الأحمر » · وتدور أحداث الأولى فى مونتنجرو ابان الحرب الاخيرة ·**

● ثمن سانت بيف ·· عنوان رواية جديدة صدرت عن دار دنوييل بباريس للكاتب ميشيل بريتمان ·· لايتعلق بالناقد المعروف سانت بيف ·· وكاتبها متأثر بكامى ومدرسة الرواية الجديدة ·

● **صدر الجزء الثانى من يوميات الكاتب الراحل ألبير كامى عن دار جـــاليمار فى ٣٥٢ صفحة** ، ويمتد من يناير ١٩٤٢ الى مارس ١٩٥١ · **وقد هاجم الناقد ماكس بول فوشيه هذا الجزء** بمجلة الاكسبريس الباريسية ، وقال انه **تافه لايستحق النشر بدليل أن كامى نفسه** ما كان **ليرضى عن نشره** ·

● صدر عن دار جرازيه كتاب للناقد الفرنسى كليبر هيدين هاجم فيه مدرسة الرواية الجديدة ·· قال : « الرواية الجديدة آلة سوقية مقبضة تهدف الى تدمير الادب نهائيا · » وقال عن ناتالى ساروت انها أكثر كتاب الطريقة الجديدة سذاجة ·



بين القصة والقراء

يقدمه : ثروت أباظه

حورية أحمد سعد الله :

أولا يا آنسة حورية أنا لا أستطيع أن أجيب على الخطابات فور ورودها الى لأن كمية الخطابات التى تصل الى المجلة تجعل هذا الأمر مستحيلا استحالة مادية • فارجو ألا يمسك القلق بعد ذلك اذا أنا تأخرت فى الرد • أما عن قصتك شموع على الطريق ، فهى تنبىء عن موهبة قصصية تبشر بمستقبل كبير ان شاء الله فقدرتك على تقديم القصة فى براءة وبساطة وفى أسلوب سلس كل هذا يشير الى موهبتك القصصية وخاصة اذا كانت هذه هى أولى محاولاتك • القصة فيها انسانية ولكنها أيضا فيها سذاجة يغتفرها لك انها أول قصة لك • فتحول طالب الطب من فكرة الانتحار الى الكفاح سريعة ولو كان كل من يحاول الانتحار يعدل عنه بهذه البساطة لما انتحر أحد • وأنت تنسين أسماء أبطالك فقد كتبت اسم سهير على أنها سميره أكثر من مرة وهذا يدل فى القصة القصيرة على أنك لاتهتمين اهتماما كافيا باشخاص قصتك فانه لا شىء يجرح كرامة الانسان مثل نسيان اسمه وما أظنك تحبين أن تجرحى كرامة شخصياتك • وفى القصة لمحة فنية تدعو الى الاعجاب وهى عرضك لشخصية عم عثمان الذى يمثل الكفاح هو أيضا مما يضفى على القصة جانبا من الفنية ومما يؤكد صدق موهبتك • استمرى فى القراءة واكتبى لنا وأعتقد أننا سننشر لك عما قريب •

سيد على شعبان :

أنت محق فيما يتصل بالمدرس الذى قسوت عليه وكان من الميسور أن أكتب

له رسالة شخصية ولكن ألا ترى معى أنها قضية عامة • وان السكوت على هذا المستوى فيه خطر على مستقبل التلاميذ•

اما عن قصـــتك الطفل المنتظر فهى قصة تدل على موهبة لاشك فيها الا أننى أعتقد أن بدايتها لا تتفق مع نهايتها • فبينما تفهم من البـــداية أن الزوجـة تعرضت لنوبة تعودت أن تتعرض لها نفهم من النهـــاية أنها قد أصيبت هى وزوجهـــا معا بالجنون المطبق • وأراك أيضا قد شخصت المرض منذ السطر الاول من القصة فقلت انهـــا شعرت بالضياع وأنت قد أقمت قصتك كلهـا لترسم هذا الضياع وكانت القصة فى ذاتها كافية لترسم الصورة التى أردت رسمها دون أن تشرح هذه الصــــورة بالكلمات المباشرة • أعتقد أننا سنتنشر قصتك القادمة •

نبيل أبو القاسم :

كنت أتوقع مع بداية قصتك سبيلا آخر تسير فيه القصة كنت أنتظر أن تقدم الينا الشيخ حيا يقول ما لم تكن التلميذة المتكبرة تنتظر أن يقول ويفعل ما لم تكن تتوقع أن يعـــــل ولكنـك اكتفيت بأن وصفت أثره دون أن تقدمه الينا شخصا حيا يحيا ويقول ويفعل فيصف نفسه بحياته وبقوله وأفعاله أما أن تتغير نظرة التلميذ لمجرد أنك أردت أنت يا كاتب القصة لها أن تغير نظرتها فهـــذا يجعلنا نشـعر أنك تمســـك بشخصيات قصتك من رقابهم وترغمهم ارغاما على أن يسيروا فى الطريق الذى تريده وأنت ككاتب قصـــة تتدخل مرة أخرى فتقدم آراءك عن شباب اليوم فى شكل خطابى وهذا يضر بسياق القصة حتى وان كنت تلقى خطابك على لسان أشخاصك •

والتعميم فى الفن القصصى يضر به فاذا أردت أن تقول ان شـــباب اليوم منحل فلا يجوز لك أن تقول ذلك فى جملة بل عليك أن تقدم لنا نموذجا من هذا الشباب الذى لا ترضى عنه • القصة تمثل قطاعا صغيرا يصـــدق على القطاع الكبير • فاذا تكلمت عن شباب اليوم في جملتهم فقد كان الأولى بك أن تكتب عنهم مقالا أو بحثا •

وشخصية الأزهـرى التى رســـمتها شخصية مثالية أردت لها أن تكون مثالية كم كنت أتوق الى تعمق هذه الشخصية ومعرفة الدوافع التى جعلتها على هذه المثالية • كل هذا لا يمنعنى أن أطالبك بمواصلة القراءة والكتابة وأعتقد أنك ستكتب فى القريب ما ترضى عنه •

عبد المنعم اسماعيل زيادة :

أسلوبك رائع لاشك فى هذا ولكنك لم تقدم الينا قصـــــة مكتملة انما هى خطرات بلا حدث والخطرات فى ذاتها لا تحمل من العمق ما يعفيها من الأحداث والأشخاص فى قصــــتك كثـيرة كثرة لا تتحملها القصة القصيرة • ولا أدرى ••• هل تروق لك كفنـــان مســـالة الدوسنتريا التى أشرت اليهـــا بهـذه الطريقة البعيدة كل البعد عن الجمال • ترى هل الواقعية هى أن نذكـــر كل شىء ••• أليست هنـــاك فى الطبيعة البشرية أشياء يعرفهـــا الجميع ولكن الجميع يتواضعون على ألا يذكروهـــا • ترى هل خدمت هذه الجملة شيئا فى

القصـــة ٠٠٠ ألم يكن من الممكن تقديم هذا الخبر بطريقة أكثر جمالا أو أكثر نظافة على الأقل • اننا من الذين يحبون الجمال فى الفن وأنا مضطر الى هذه الأنا لأنهـــا تعبر عن رأيى الشخصى لا ألزم به أحدا غيرى • أتراك على مثل رأيى هذا •

انك وقد ملكت هذا القلم القــادر تستطيع لاشك أن تقدم الى الفن القصصى أعمالا أكثر فنية وجمالا من قصة الليل والأشـــجار • وانى فى انتظـار هذه الأعمال •

محمد صفوت محمد عبده :

أعتذر اليــك عن تأخرى فى الرد وأرجو الله أن يكون قد وهب لك نعمة الشفاء •

وصفك لمشاعر الأب والاخوة جميل فيه انسانية وفيه بســاطة قريبة الى النفس كم كنت أرجـــو ألا تقول « أما وداع الأم لابنها البطل فانا لا أستطيع أن أصفه وأصــوره مهمــا أوتيت من البلاغة والبيان » قد يصلح هذا التعبير فى خطاب أما لكاتب قصــــة فى يده أدوات القصة جميعا فهو غير مقبول • تستطيع أن تصف هذا الوداع فى كلمة فى حركة فى اشارة فى دمعة تحاول أن تخفيها ولكن لا يقبل منك أن تقول أنك لا تستطيع أن تصفها •

أما القصة فى ذاتهـــا فهى مباشرة خطابية ولعل الموضوع الذى اخترته لها هو الذى مال بك الى هــذا الطريق • وأظنك ترى معى أنهـــا لا تستطيع أن تكون قصة فهى تعتمد كل الاعتماد على الخطابة والعواطف الفجة •

وقد قــرأت قصـــتك الموعد أيضا وسأنشرها فى عدد قادم •

محمود محمد أحمد الأشرافى :

الفكرة فى قصتك لا بأس بها ولكنها تحتاج الى الحبكة فان القارىء يتوقع منذ اللحظة التى جمعت فيها الجنيه لعم رمضان أنه سيفضل أن يكسر الزجاج فى كل يوم لا فى كل شهر • وقد كان خليقا بموظفى المكتب أن يعرفوا ثمن الزجاج وخاصة أنهم ليسوا من الغنى بحيث يجهلون أثمان مثل هذه الأشياء •

ولكن هذا لا يمنع أنك كنت موفقا فى تقــديم قصتك فى أسلوب سهل قريب المأخذ • أرجو أن تكرر المحاولة •

ابراهيم عبد الخالق أحمد ـ غزة :

تتسم قصتك بالافتعـــال فالحوادث فيها مركبة تركيبا فاجعا ليؤيد الرأى الذى ترى • الأخوان يمـوتان فى لحظة واحدة وبطريقة بدائية دون أن تمهد لموتهما الأحداث الطبيعية • انما الواضح أنك أنت الذى قتلتهما لتقنع الاب برأى ابنه الذى كان يعارضه • ان القصص الحماسية لاتبلغ من نفس قارئها مايريد الكاتب الا اذا كانت مكتوبة بفنية تنأى بها عن الافتعال والخطابة وقد لجأت الى الافتعال والخطابة معا •

على أن أسلوبك فى الرد لا بأس به• أرجو أن تحاول مرة أخرى وأرجو أن تصيب من التوفيق ما لم تصب فى هذه القصة •

أقدم فى هذا الشهر قصة الساق الخشبية لفتحى عبد الحميد مقلدى وهى قصة نابضة بالانسانية ، كتبها القصاص فى فنية بارعة

الساق الخشبية

بقلم : فتحى عبد الحميد مقلدى

أخذ ينقل خطوه بطيئا متثاقلا وهو يدلف فى شارع « كلوت بك » بعد أن خلص من ضجة الميدان الهائج المائج لتلقفه ضجة أخرى أقل صخبا ولكنها اكثر تحديدا ، تختلط فيها أصوات الباعةهنا وهناك والمساومة التىلاتنتهى مع الزبائن مع أصوات الترام بصريره المألوف وبين الحين والآخر يعلو صوت مرتفع يعلن عنبضاعته فى لكنة صعيدية يعتز بها .. أربع سنوات متتاليات يشهد كل يوم هذه المسرحية المتكررة . نفس الوجوه لنفس الاشخاص ، لا تغيير ولا تبديل بائعة البخور بجسمها الجرم الضخم وقد افترشت مكانا تجول منه بعينيها الكبيرتين وهى تمضغ « لبانة » وكأنها بقرة تجتر فى حالة استرخاء ... وباعة لعب الاطفال وقد زحموا المكان حتى يكاد لا يتسع لمرور شخص واحد ... وباعة « الكرشة » وهم اكثر تواضعا وقد جلسوا على الارض تحت الرصيف بسكاكينهم اللامعة يلقون بالماء والدم كيفما اتفق، فيكون مرتعا خصبا لأسراب الذباب الكثيرة كل هذا لم يحاول أن يلتفت اليه « فهمى عبد السلام » وهو يحاول أن يفسح لنفسه طريقا يسير فيه الى منزله بين هذه الكتل المتدافعة فتلك قصة كل يوم منذ أن التحق بكلية الهندسة حتى اصبحت جزءا من حياته .. ولكن اليوم بالذات هو يوم الخميس وعقله مشغول لا يكاد يأبه بالبلاطى والحقائب المعلقة فى البواكى والتى تصطدم برأسه من حين الى آخر .. لأن يوم الخميس هو اليوم الموعود .. يوم الفرج بعد الكرب العظيم .. .. يوم التحرر من الميكانيكا والرسم الهندسى .. والهيدروليكا والكلام الفارغ والقرف الذى كتب عليه دون أن يبتغيه . واخذ يفكر فى حرقة : مالى انا وهذه المواد الجامدة الغليظة . ان ساعة واحدة اقضيها مع الموسيقى أستمتع واذوب تعدل عندى الدنيا كلها ولكن لا فائدة ما كان هو ماسيكون ولفظ « الباشمهندس » يطوق عنقك حيث لا فكاك ولابد أن تتجرع الكأس حتى الثمالة . وعلى كل ما علينا لنكن فى ساعتنا . فاليوم الخميس ويجب أن نفكر فى سهرة ممتعة تمسح عنا هذا العناء . ففى الساعة السابعة سيأتى صاحبنا محمد ويلزم وضع برنامج للخروج . فلا داعى مثلا لحكاية السينما فانها اصبحت تكرار ممل . اذن مارأيك فى التنزه على الكورنيش ولكن بعد ساعات نكون قد فرغنا من احاديثنا المعادة عن الكلية ومحو الأمية فى الريف وما الى ذلك . اذن ما رأيك فى المسرح آه المسرح !! ولكنه ...

« ياساتر يارب » نطقها فهمى فزعا وجلا وهو يستدير على عقبيه بحركة سريعة مفاجئة . لا يدرى ماذا حدث ؟

أو كيف حدث ؟ او لم حدث ؟ وانما كومضة البرق .. كانتفاضة العين سمع صوت ارتطام على الارض . ونظر بجانبه فاذا شخص ملقى على الارض وقد امتدت ساقه اليسرى بشكل متصلب وهو يحاول أن ينهض بعناء وما أن استوى على الارض واقفا وهو يرتجف حتى صرخ في وجهه فزعا :

— انتم عمى .. مش تفتحوا قدامكم
— احنا مش بنى آدمين زيكم ..

ولم يدر فهمى ماذا يفعل وانما وجد يده تمتد بحركة تلقائية وتربت على كتف الرجل فى أسف حقيقى ولسانه يتمتم ببضع كلمات : أنا آسف .. فى الحق لم اكن اقصد ..

ولم يدعه الرجل يتم كلامه ان كان عنده كلام يقال وانما أشاح بيده فى وجهه بحركة حانقة غاضبة واتخذ طريقه وهو يجمل ومال بعض أصحاب الفضول نحوهما ولكن لم تتح لهم فرصة التجمع وابداء الآراء والملاحظات فقد انتهى الموضوع سريعا وغاب الرجل فى الزحمة مخلفا وراءه فهمى فى حالة ذهول كامل ، وقد اشتد تقلص يده على الكتب بينما حاول بيده الأخرى أن يبحث عن منديله ليمسح العرق الذى نزل على جبينه والذى لم يكن ليحس به لولا ان ضب زجاج النظارة وأفاق لنفسه قليلا واستأنف سيره ثانية وقد استحالت خطواته اشد ثقلا وأكثر بطئا وهو يحدق بنظره أمامه دونما يستطيع أن يركز فى شئ .. ماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ وهل أنا السبب ؟؟ وستين علامة استفهام اخرى قفزت الى ذهنه مختلطة مشوشة لا تجد لها حلا ولا تستقر فى مكان . وبعد جهد استطاع عقله أن يتخذ مكانه الطبيعى وان يستأنف سيره المعتاد وكانما كانت تلك الحادثة بمثابة « طسة » الماء على النائم ليفيق .

ولم يكن بطبيعة الحال يستمرىء لذة التفكير فى اعداد سهرة الخميس وما حولها ولكنه كان يحاول جاهدا فى ان يفسر ماذا حدث ، واستطاع بعد لأى أن يلتقط صورة الرجل .. نعم .. انها صورة مشوشة مبهمه ولكنها واضحة يستطيع ان يتميز منها جبهته العريضة التى حرقتها لفحة الشمس فأحالتها الى لوحة برونزية الشكل وقد علتها طاقية صوفية بيضاء مخروطية الشكل تكمل وجهه المستطيل وقد نمى ذقنه فأحاله الى مزرعة شوك حديثة النبت . وهذه السمرة المشوبة بالاصفرار .. وثمة شئ آخر قد حفر فى ذهنه حفرا هذه الاختلاجة فى عضلة وجهه بين أعلا جانب الفم وأسفل الأنف .. بالشقاء ! يا الله مالى أنا وهذا الرجل المسكين أعذبه وأسبب له الألم والبرح .

ووصل الى منزله وجلس على المائدة ليتناول غذاءه وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه ولو للحظة من التفكير فى هذه الحادثة المؤلمة — يجيب على كلام أمه اجابات مقتضبة بنصف وعى وبنصف انتباه — لا بل بدون وعى ولا انتباه . لأن وعيه كله وانتباهه كله قد تركز فى منظر الرجل وهو ملق بجانبه على الرصيف .. صورة اختلاجة عضلة وجهه تلح عليه الحاحا ثقيلا ممضا .. وصوت الارتطام يطن فى اذنه دون انقطاع .. وأخيرا وجد انه من الضرورى ان يحكى لأمه ما حدث ؟ فجزعت المرأة ابتداء . ودقت على صدرها دقة خفيفة

كمعظم النساء لله مثل هذه الحالات وقالت لابنها :

— يا خبر يابنى ! كان مالك انت والرجل المسكين .

وحينما أوضح لها انه لم يكن يقصد وان الحكاية جاءت قضاء وقدرا . هونت عليه ثم مالبثت أن نسيت الموضوع بتاتا واخذت تثرثر وهى تنتقل من موضوع الى آخر .. اما هو فقد ترك المائدة بعد أن ازدرد بضع لقيمات لم يعرف لها طعما ولم يستسغ لها نكهة وذهب الى فراشه كعادته بعد الظهر ولكنه لم ينم وانما حاول جاهدا ان يركز ذهنه فى هذا السؤال البسيط : كيف حدث هذا ؟ واجهد فكره فى ان يجد تفسيرا ولكن دون جدوى ، واخيرا حاول أن يقنع نفسه بانه لم يقصد وأن الرجل وقع على الارض دون ارادة منه وانه يبدو وهو سائر فى طريقه والرجل فى طريق مضاء ان تحاجزت قدميهما على شكل علامة « × » ولكنه لم يتنبه واستمر فى تقدمه فوقع الرجل وما ان وصل الى هذه النتيجة حتى ازداد الألم فى فمه وأغمض عينيه محاولا أن يستجمع ارادته فى ترك هذا الموضوع

وفى الساعة السادسة بعد أن صلى والح فى الدعاء . لبس بذلته كاملة وتالق كعادته كل خميس ولكنه لم ينتظر صديقه « محمد » وانما اتخذ طريقه الى تحت البواكى فى شارع « كلوت بك » حيث وقعت الحادثة وقصد من فوره الى الرجل العجوز ذى النظارات السميكة الجالس على صندوق الماركات أمام دكان الحلوانى . وكانت له بمعرفة سابقة وقص عليه الحكاية ثم ساله عن هذا الرجل وعنوانه . فابتسم له العجوز ابتسامة لم يفهم معناها وقال له أنه لم يكن فى وردية الصباح . وحنق فهمى واغتاظ من نفسه كيف لم يلاحظ هذا ؟ واتجه دون تردد الى الصمايدة باعة اللعب وهو الذى لم يفكر مرة طوال أربع سنوات فى ذهابه ومجيئه ان يلقى عليهم حتى تحية السلام . وسألهم وبدا عليهم انهم نسوا تماما فى بادىء الامر . ثم تذكروا فاستغربوا ودهشوا . وكاد فهمى ييأس ويلعن نفسه ويومه لولا ان واحدا من باعة الكرشة ملوك الرصيف التحتى قد سمع طرفا من محاورتهم فدله — دون أن يخفى دهشته هو الآخر — على مقهى يجلس عليه هذا الرجل الذى اتضح أن اسمه المعلم حسان بائع الفطير وفرك فهمى يده مسرورا جدا وهو فى طريقه الى هذه المقهى وقد استولى عليه شعور مبهم غامض ولكنه سعيد على كل حال . وقفز الى ذهنه سؤال خبيث : ماذا سيقول للرجل ؟ أى صحيح ماذا ساقول للرجل ؟ ولكنه لم تملكه الحيرة كثيرا وانما اهتدى الى انه يكفيه ان يجد الرجل ويعتذر له عسى أن يصفح عنه وتوقف عند مكان ضيق صغير تجلس على جانبه امرأة مترهلة تبيع خضروات جافة ذابلة . سألها وهى بين اليقظة والنوم هل هذه مقهى « غفر الله لمن جلس » فأومأت اليه براسها دون ان تتكلف عناء الاجابة .

دخل فهمى المقهى فاذا هى شحيحة الضوء يتدلى من سقفها « كلوب » يلعق ضوءه فيخرج اللهب من طرف

الرتينة المقطوع فيرسل ضوءا يشمل المكان ثم يخبو وهكذا دواليك . وقد انتشرت فى المكان سحب الدخان الزرقاء. تنبعث منه المناضد المنتشرة هنا وهناك. وفى الوسط تتمركز حيوية المقهى ونشاطها فى منضدة رخامية صغيرة التف حولها عدد كبير فى شبه مظاهرة صامتة تتعلق انفاسهم بالورق المفتوح على المنضدة وعلى ايدى اللاعبين التى تتحرك بخفة ومهارة .

وعمد فهمى من فوره الى الشخص الذى بدا له أنه صبى المقهى وسأله عن المعلم حسان فبربش عينيه الضيقتين واقام كفه عموديا فوق حاجبيه ليستجلى النظر جيدا فى هذا الافندى الغريب ثم تلعثم واضطرب . ثم أقام يده مرة اخرى حول عينيه ونظر وفحص ويبدو انه اقتنع هذه المرة فعمد من فوره الى شلة الجماعة المكبة المنكفئة حول ورق اللعب واستخرج واحدا منهم بعد جهد فاذا حسان واقفا أمام فهمى ينظر اليه دهشا مستطلعا فمد له هذا يده محييا فقدم اليه يدا حذرة مترددة . وحاول فهمى ان يبين وجهة نظره وهو يقول : ياأخ حسان انا لم اقصد . وان الذى صدر منى كان عفويا .. واننى اتأسف لما حدث . وقال كلاما كثيرا استمع اليه حسان جيدا فى بادىء الامر ثم تابع اللعب من مكانه ولما انتهى فهمى من كلامه قال له : يا افندى دى حاجة بسيطة .. وانا نسيت على كل حال . ثم استدار واخذ مكانه حول اللعب من جديد ولم يلتفت وراءه حيث ترك فهمى يجفف عرقه المتساقط . وخرج الى منزله . واستغربت أمه لرجوعه مبكرا على غير عادته يوم الخميس ولكنه اغلق باب حجرته وراح فى دوامة من التفكير العنيف . ولاول مرة يستعين بحبوب أمه المنومة .

وفى الصباح التالى اشترى فهمى شيئا من الفاكهة وذهب الى المقهى حيث اشاروا له على بيت يسكن حسان حجرة من طابقه السفلى . دخل فهمى المنزل فوجد امراة تغسل وحولها حفنة من الصبية وعلى مقربة منها يجلس حسان على كرسى خشبى منخفض ينفث دخان سيجارته ، وما أن رآه حتى هب واقفا وهو يتطلع اليه بنظرة دهشة متسائلة فبادره فهمى قائلا : ياأخ حسان أنا عارف انك زعلان منى . وانا صحيح غلطان فى حقك لكنى والله لم أقصد . واحنا اخوة .. و .. ولم يستطع أن يكمل فقد اربد وجه حسان وانقلبت سحنته وظهرت اختلاجة عضلة وجهه مرة أخرى وهو يصيح :

– ياأفندى حرام عليكم ! احنا بنى آدمين زيكم من لحم ودم . يعنى علشان ماحنا فقرا تستهزؤا بينا ، مش أصول دى ... ولم يعد فهمى يسمع شيئا .وارتعشت يداه وسقطت اكياس الفاكهة وتبعثرت محتوياتها . وانطلق يندفع على وجهه حتى وصل الى منزله واستلقى على فراشه كما هو

ولم تفهم امه شيئا حينما لم يستطع النهوض ليؤدى صلاة الجمعة التى يحرص عليها .